معالم قرآنية في البناء

شفاء القرآن.. وجيل البناء

ملامح المجتمع القدوة

أ.د. محمد أديب الصالح



العبيكان
Obeikan

شفاء القرآن... وجيل البناء

ملامح المجتمع القدوة

أ. د. محمد أديب الصالح



© مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالح، محمد أديب

شفاء القرآن وجيل البناء./ محمد أديب الصالح. - الرياض ١٤٢٧هـ

٤٥٢ ص؛ ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٠ - ١٠١ - ٥٤ - ٩٩٦٠

١ - القرآن - مباحث عامة   أ. العنوان

ديوي ٢٢٩   ١٤٢٧/٥٣٩١

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٥٣٩١

ردمك: ٠ - ١٠١ - ٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥



توطئة

الحمد لله الذي يسجد له ما في السموات وما في الأرض طوعاً وكرهاً وظلالُهم بالغدوِّ والآصال.

والحمد لله عالمِ الغيب والشهادة الكبير المتعال، القائم على كل نفس بما كسبت وهو شديد المِحال.

والحمد لله الذي له مقاليد السموات والأرض، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون.

وتبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

سبحانه من إله غفورٍ ودودٍ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، أنزله بالحق وبالحق نزل، وهو النور المبين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوحى بهذا الكتاب المبين إلى خاتم رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبدالله رحمة العالمين؛ مباركاً ليدَّبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب، نعم، ونزّله تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين. ويسّره بلسانه ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً لداً. حيث الغايةُ الكبرى أن يحصل التذكر وتأخذ الهداية سبيلها إلى القلوب ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله؛ أدّى الأمانة في تبليغ ما أنزل إليه من تلكم الآيات البينات، ولم يدَع أن يبيِّن - وقد أوتي القرآن ومثله معه - ما يلزم بيانُه خير بيان، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) (الدخان: ٥٨). (٢) (النحل: ٤٤).

فجزاه الله عن الأمة ونصرة الحق خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما اختلف الليل والنهار؛ أداءً لبعض حقه وقد أنقذنا الله به من التهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الهداة المهتدين، الذين أدُّوا أمانة نقل الكتاب الكريم وبيانه المحمّدي على خير وجه وأكمله للعالمين، ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم على طريق القرآن المجيد وبيانه من سنة سيد المرسلين.

وبعد، فليس من نافلة القول أو مكروره التذكير بواحدة من المسلَّمات عند أولي الألباب، وهي أن واحداً من أهل النَّصَفة أوتي ولو أثارة من علمٍ، لا يماري في أن من أجلِّ نعم الله على الأمة المحمدية، بل على البشرية جمعاء، هذا القرآنُ المجيد الذي أنزله الله على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالحق، وبالحق نزل، أنزله عليه - كما تدلّ معالمه - ولم يجعل له عوجاً، ويسره بلسانه ليبشر به المتقين وينذر به قوماً لداً لعلهم يتذكرون.. هذا الذكر الحكيم - وهو كلام الخلاق العليم - يتبوأ من رفعة القدر وسعة العطاء في كلماته التي لا تنفد، المنزلةَ التي لم يبلغها كتاب ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1]، كما يتبوأ من عظيم المكانة التي لا تجارى في قيمه وحقائقه ومعانيه الناطقة بها معالمه، ناهيك عن أسلوبه وفصاحته، حيث بلغ من سموِّه أن الله تبارك وتعالى رقاه إلى مقام دلّ بعظمته أنه المعجز حقاً، وأنه مع دلالاته القاطعة على أنه من عند الله لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته، ولو بالإتيان بسورة من مثله لعجزوا ولم يقدروا ولو تمالؤوا جميعاً على ذلك ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

---

(١) (الكهف: ١٠٩).
(٢) (الإسراء: ٨٨).

فسبحان من أنزله تبصرة وذكرى لأولي الألباب، وجعله مهيمناً على ما سبقه من الكتب، وأغزرَها علماً للعباد ونفعاً، وأجلَّها منزلة وقدراً ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[1].

وهكذا شاء ربنا تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتاب الخاتم - وقد أنزل على صاحب الرسالة الخاتمة - ينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، ولم لا وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير. ألا إنه الفصل ليس بالهزل، لا يمتري عاقل في أنه كلّي التشريع، وعمدة الملة. فهو أصل الأصول، وحبل الله المتين، لا تزيغ به الأهواء ولا يَخْلَقُ على كثرة الردّ - أو عن كثرة الردّ - ولا تنقضي عجائبه، فهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[2] من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وأنت واجد في معالمه النورانية الخيرة، المكيُّ منها والمدني، والتي يطالعك من خلالها عمومُ هدايته.. نهجاً من البناء الحضاريّ القويم، على صعيد الفرد والجماعة والأمة بشمول وعمق بالغَين، الأمر الذي يرقى بالأمة، أن لو عملت به، إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ويوم يقوم الناس لربِّ العالمين، ذلك بأن هذه المعالم - وهي من هذا الكتاب وإليه - حقٌّ كلها، ونور كلها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[3] وقوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[4].

---

(١) (المائدة: ٤٨).
(٢) (الجن: ١ - ٢).
(٣) (الإسراء: ١٠٥ - ١٠٦).
(٤) (فاطر: ٣١).

أجل، هو الحق وأنزل بالحق، فليس لشيء من الباطل - كائناً ما كان شأنه وشأن أهله - إلى تلك المعالم من سبيل، مهما افترى المفترون، ومكر الماكرون، ومارى السفهاء والملبِّسون، وانتحل العابثون المبطلون. وجلّ شأن ربنا السميع القاهر فوق عباده إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

فطوبى لمن تحملهم نورانية هذه المعالم إلى أن يكونوا على الجادة، يحسنون اصطحاب هذا القرآن تلاوة وتدبراً وتذكراً، يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويدورون معه - وهو كلام العليم الحكيم - حيث دار. وما أعزّها ثمرة مخالطةُ تلك المعالم مخالطة إيمانية واعية، تسمو بأصحابها المهديّين إلى حيث السدادُ في الأقوال والأفعال، والظفر بالسعادة العاجلة، وحسن العقبى يوم الدين، حيث يشهد لهم القرآن بأنهم كانوا في الدنيا لا يدَعون أن يدوروا معه حيث دار.

وكم دعا السلف الصالح إلى التحقق بذلك، وكشفوا لمن يقوم به عن أعظم البشريات. روى صاحب «الحلية» عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود: أن رجلاً أتى أباه عبدالله بن مسعود فقال: يا أبا عبدالرحمن، علّمني كلمات جوامعَ نوافع، فقال رضي الله عنه:

«اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، ودر مع القرآن حيث دار، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً»[2]. وروى الباجي عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول: «إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة»[3] ورضي الله عن ابن أم عبد إذ يقول: «إنما هذه القلوب أوعية

---

(١) (فصلت: ٤١-٤٢).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصفهاني: ١ / ١٣٢ . «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ١ / ١٦٥. «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ١٣٢ .

(٣) ينظر تفسير الثعالبي: ٢ / ٢٥٢ .

فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»[١]. ولا تعجب ما دام القرآن هو الكتاب المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس على معارضته ولو اجتمعوا وتظاهروا، والذي صرّف الله فيه دلائل الهدى ونوّعها لتخاطب كل عقل وقلب، وسبحان من أنزله على نبينا المصطفى ليكون للعالمين نذيراً.

وعلى هذا السنن من اصطحاب اللمحة السريعة في هذه العجالة في القول: ما بد من التنويه بوضوح الدلالة على أفضلية هذه المعالم وما تتسم به من الدقة المتناهية، والحكمة البالغة في وفرة عطائها الذي لا يستثني ساحة من ساحات البناء، ذلك البناء الذي لا ينأى عن العبودية لله والحفاظ على إنسانية الإنسان ونصرة الحق وتوفير ما يثمر الحضارة المثلى، لما أن هذه الحضارة من نور القرآن الذي هو المعجزة الحقة الباقية إلى يوم الدين، وسداها ولحمتُها هديه الربانيّ وبناؤه الحق المكين.

وجماع ذلك على صعيد الهداية والبناء الشامل المتكامل للفرد والجماعة والأمة - ناهيك عن البناء الحضاري القويم - قول الله تعالى في سورة الإسراء - وهي سورة مكية -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٢]، وأقوم من القَوام، وهو العدل والاعتدال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٣]، وفلان أقوم كلاماً من فلان: أي أعدل.

فهذا الكتاب المبين يهدي ويرشد العباد على خير منهج في دينهم ودنياهم وآخرتهم لأقوم الحالات وأصوبها، وأفضل الطرق وأسدّها، وأوضح السبل وأعدلها؛ فالهداية به قائمة أبداً للحالة التي هي أسدُّ وأعدل

(١) «الربانيون قدوة وعمل » ١٧١، وانظر «الحلية» ١ / ١٣١ .
(٢) (الإسراء: ٩).
(٣) (الفرقان: ٦٧).

وأصوب، ويمكن أن نقول: يهدي للملّة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق. وهذا مبنيٌّ على أن كلمة (أقوم) نعت لموصوف محذوف ذهب كثير من العلماء إلى تقديره على الوجوه التي ذكرنا أو بعضها. ومثل هذه الكناية كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[1]. أي بالخصلة التي هي أحسن. فكان أفعل التفضيل (أحسن) صفة لكلمة الخصلة المقدرة.

ولا علينا أن نذكر أن فريقاً من العلماء ذهب إلى أن (أقوم) ليست للتفضيل؛ فالمعنى: يهدي للتي هي قيّمة أي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[2]، وكما قال سبحانه: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[3]، أي مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

هذا: ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه على كلا الوجهين في كلمة (أقوم) فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يأتي على وجه الإطلاق في تقرير أن هذا الكتاب الكريم يرشد للطريقة التي هي أسدّ وأعدل فيمن يهديهم وفيما يهديهم له، فيشمَل الهدى - كما يقول صاحب الظلال - أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلَّ منهج وكل طريق، وكلَّ خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي ما أوضحه الزمخشري من عظمة الإعجاز ورفعة الذوق البلاغي في حذف الموصوف بقوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في «الكشاف»: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملّة أو الطريقة، وأيَّما قدّرت لم تجد مع الإثبات - أي إثبات الموصوف - ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقَد مع إيضاحه».

وفي خاتمة المطاف: لقد قدمت هذه اللمحة الوجيزة من القول الذي هو في سموّ موضوعه عن القرآن ومعالمه الخيّرة قليل قليل من كثير كثير،

---

(١) (فصلت: ٣٤). (٢) (البينة: ٥). (٣) (البينة: ٣).

قدمتها وأنا بسبيل الإشارة العجلى إلى أن الصفحات القادمات هنا ثمرةٌ من ثمرات رحلة ميمونة طالت بعض الشيء، منَّ الله بها عليّ - وهو ذو الفضل العظيم - صحبت من خلالها عدداً وافراً من المعالم القرآنية المكي منها والمدني، الهادية إلى كل ما هو أسدُّ وأعدل في مختلف الأحوال والشؤون، لما أنها من محكم التنزيل وإليه.

وقد كنت حريصاً - من خلال التدبّر المستطاع - على تناولها بأمانة علمية منهجية والكشف قدرَ الطاقة عن معانيها ومنارات الهداية في كل منها حسب موقعه على الصعيد المطروق في ساحة البناء الشامل المتكامل بمعناه الإسلامي الحضاري، البناء الذي تناول - مع العقيدة والعبادة والأخلاق - شؤونَ الحياة بأكملها، لما أن جذور حضارتنا الإسلامية تكمن في هذه المعالم الخيّرة وبيانها من السنة المحمدية، ثم فهوم أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان. وأينما وجدت المصلحة في عرف هذه الحقيقة: فَثمّ شرعُ الله ودينه.

واللهَ أسأل أن يتقبل بقبول حسن هذا العمل النيّر بجوهره وعطائه، المتواضع بتناوله والكلام فيه، وأن ينفع به قارئه والناظر فيه، وأن يتفضل بالعفو عما يكون من زلل. إنه سميع مجيب الدعاء، لا ربَّ غيرُه ولا خير إلا خيرُه، منه التيسير والعون وإليه المرجع والمآب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة وصفوة الله من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الهادين المهتدين؛ أجمعين.

أ. د/ محمد أديب الصالح

أستاذ ورئيس قسم السنة وعلومها في جامعة الإمام محمد بن سعود، وأستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق سابقاً

رئيس تحرير مجلة حضارة الإسلام



الإيمان والعمل

القرآن يهدي للتي هي أقوم

«١»

كلما عاود المسلم النظر في آي الفرقان الحكيم، تالياً متدبراً متذكراً، صادق الوجهة، مخلص النية، موصول القلب بالله، متفتح البصيرة على نور هداه، مصحوباً ذلك بما لا بد من توافره لفهم كلام الله: ازداد يقيناً على يقين، بواحدة من المسلَّمات عند أولي النُّهى، وهي أن هذا الكتاب ـ الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، المنزلَ على النبي المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام قرآناً عربياً غير ذي عوج، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلا تبلى جدته ولا يَخْلَق على كثرة الرد ـ: يرشد العباد ـ على أكمل وجه ـ في دينهم ودنياهم وآخرتهم جميعاً، لأقوم الطرق وأسدِّها، وأفضل الحالات وأعدلها، وأوضح السبل وأصوبها، أن لو استمسكوا بهديه، وأخذوا الأنفس بنهجه القويم، وسلكوا سبيل الانتفاع بخيره العميم.

فإذا توافر لهم ذلك: عمروا الأرض في نور عبودية الله وطاعته، وبنوا الحضارة المثلى على هدي كلماته التي لا تنفد وشرعته، وكان لهم التمكين في الدنيا، والفوز بالنجاة يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

ولا بدع أن يكون الأمر كذلك؛ فالقرآن الكريم أصل الأصول لهذا الخير المراد لبني الإنسان، حيث الإخراج من الظلمات إلى النور، وهو كليُّ الشريعة المكين، والنبعُ السلسبيل الفيَّاض بالقيم الربانية التي هي مناطُ السعادة الحقة في الدنيا، والأجرِ الكبير يوم المعاد.

والحقيقة التي نومي إليها في شأنه العظيم، والتي هي من المسلّمات عند أولى النهى الذين بَصرُوا بها مدركين: حقيقة لا يمتري فيها مؤمن، ولا ينقص من

قدرها إلا محروم سفه نفسه، أو جهول مدَّعٍ يفتري على الحق، بل وعلى العربية إن كان من أهل اللسان، فيهرف بما لا يعرف، ويتطاول، ويتعالم، وماله ـ وقد ضرب على قلبه بالأسداد ـ في فهم الكتاب المعجز من نصيب!!

ومن هنا : فإن منكر هذه المسلَّمةِ التي هي حق اليقين، المثقلةِ بالخير العميم للإنسان أنى وجد، وحيثما كان، في تحدٍ لسلطان الزمان والمكان، والجنس واللون واللسان: يجيء شيئاً إداً وأمراً فظيعاً ـ والعياذ بالله ـ لأنه في هذه الحال، منكر لما هو معلوم من الدين بالضرورة، متبع هواه، مجافٍ لحكم العقل السليم في مواجهة نصوص كريمة قطعية الثبوت قطعية الدلالة، وما أكثرها وأوفرها، ناهيك عما يشهد به تاريخ أمتنا وعما ينطق به الواقع في حياة البشرية، وما مرّت به الأمم ـ وتمر به ـ من تجارب، ينصبُّ الحكم عليها في تأييد هذا الأمر الجلل وتوكيده، وإن كان كثير من الناس عن هذا غافلين، ولا تسل عن المكابرين المتغافلين!!

ومن أبرز المواطن التي دلَّت في كلام الله الحكيم الخبير على هذا الذي حوله نحوِّم: ما جاء في سورة «الإسراء» المكية من قوله تعالى ـ بدءاً من الآية التاسعة ـ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾[1].

وأنت واجد أن هاتين الآيتين الكريمتين قد سبقتا في صدر السورة بآيات جاءت على ذكر ما تفضَّل الله به على عباده الصالحين وأكرم به من اصطفاه من عباده المرسلين، فأكرم محمداً ﷺ واختصَّه بالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك ـ سبحانه ـ حوله، وآتى موسى عليه السلام التوراة، وجعلها هدىً لبني إسرائيل، مبيناً أنهم لم يعملوا بها، بل عصوا وتمرَّدوا على هديها، فقضى عليهم بما قضى من التسليط عليهم بذنوبهم من يسومهم سوء العذاب في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار!

(١) سورة الإسراء، الآية ٩-١٠ وانظر «التفسير الكبير» للرازي (١٠/١٦١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/٢٢٤) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: (٥/٢٠٦٧) «تفسير المراغي» (١٥/١٦-١٧).

وكان في هذا كله ـ كما هو ظاهر ـ: دلالةٌ على نبوة محمد ﷺ، وردع لكل عاقل عن معاصي الله والصدِّ عن سبيله؛ وتنبيهٌ على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة، ومعصيته توجب كل بلية وغرامة. ولا يظلم ربك أحداً، ولكن العُتاة المخالفين عن أمر الله أنفسَهم يظلمون.

وفي نقلة إلى تذكير الأمة بأن القرآن المنزل على محمدﷺ هو المهيمنُ على ما سبقه من الكتب المنزلة وناسخ لحكْمِ التوراة وغيرها، وأن عليها أن تكون كفاء هذه الخاصية والإكرام: نجد أن الله تبارك وتعالى بعد أن ذكر ما ذكر، وبيَّن ما بيَّن من تلكم القضايا الكبار في صدر السورة المذكورة بدءاً من قوله جل شأنه: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾... قفَّى على ذلك بمدح هذا الكتاب الذي أنزله على خاتم النبيين المبعوث رحمة للعالمين بخاتمة رسالات السماء وهي الإسلام، وجعله المهيمن الناسخ؛ وذلك بوصفه بثلاثة أنواع من الصفات: ذلكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الآيتان:

أولها: أنه يهدي العباد ويرشدهم لأقوم الطرق وأسدِّها، وأوضح السبل وأعدلها، في العقائد والعبادات والأعمال والأخلاق، الأمر الذي يأخذ بيد العاملين بهذا الهدي إلى السعادة في الدنيا والجنة الموعودة في الآخرة؛ فمن اتخذ القرآن إماماً لهدايته: كان من أكمل الناس، وأقومهم، وأهداهم في جميع الأمور؛ وكم كان سلف هذه الأمة حراصاً على سلوك هذا السنن الكريم الوضاء؛ يقول العلامة الباجي: قال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: «إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل. فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة»[١].

الثانية: أنه يبشر المؤمنين الذين اهتدوا لما هدى إليه القرآن من الطرق والذين لهم من كمال إيمانهم ما يحفزهم إلى عمل الصالحات والإكثار من القربات: بالجزاء الأوفى والثواب الجزيل.. جنةِ الخلد التي فيها ما لا عين رأت

---

(١) «الجواهر الحسان» للثعالبي: (٢/٢٥٢).

ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال ابن جريج: كل شيء في القرآن «أجر كبير» «أجر كريم» «رزق كريم»: فهو الجنة[١].

ويرى بعض العلماء حمل «الأجر» على العموم فهو أجر أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه، إلا هو[٢].

الصفة الثالثة: أن هذا القرآن يبشر المؤمنين أيضاً بما أعدَّ من العذاب الأليم لأعدائهم الذين لا يؤمنون بيوم الحساب؛ وذلك ـ كما يقول العلماء ـ أن المؤمنين كانوا في أذى من المشركين، فعجَّل الله لهم البشرى في الدنيا بعقاب الكافرين.

وهكذا ترى أن من سلك أقوم الطرق ـ وهو ما يهدي له القرآن ـ لا بد أن يفوز بأعظم المقاصد عدلاً من الله وفضلاً والعكس بالعكس، ولله عاقبة الأمور.



(١) انظر «جامع البيان» للطبري: (١٥/٣٧) «روح المعاني» للألوسي: (١٥/٢٢).

(٢) انظر «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور: (١٥/ ٣٩-٤٠) «تيسير الكريم الرحمن» للشيخ عبد الرحمن السعدي: (٤ / ٢٦٤).

القرآن يهدي للتي هي أقوم

«٢»

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وصلوات الله وأزكى تسليماته على النبي المصطفى والرسول المجتبى سيد الأولين والآخرين نبينا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم اللقاء.

وبعد: فهذه كلمات أستفتحها بالتذكير بآيتين كريمتين سعدنا باصطحابهما في رحلة عجلى فيما سبق من القول، ونحن بسبيل الإشارة إلى أمر جليل عظيم هو حق اليقين بل اليقين كله، أعني حقيقة أن كتاب ربنا الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير يهدي لخير الحالات والطرق وأسدّها، وأوضح السبل والخصال وأعدلها في العقائد والعبادات والأعمال والأخلاق وكل ما يتعلق بذلك من شؤون الدين والدنيا والآخرة.

والآيتان المعنيتان هما قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾[١].

وقد سبقت لنا في تلك الرحلة نظرة إجمالية في هاتين الآيتين أستعين الله في إتباعها بعضَ الوقفات التي تحمل شيئاً من التفصيل يسعف ـ بعون الله ـ أكثر وأكثر في استلهام المعاني، والانتفاع بما تحمل الكلمة الهادية فيهما من كريم العطاء!

لقد افتتحت الآية الأولى بما يدل على أن القرآن كما يطلق على ما احتواه المصحف بدءاً من سورة الفاتحة وختماً بسورة الناس: يطلق كذلك على قدر معيَّن منه؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ يشير إلى الحاضر في أذهان الناس من المقدار المنزل من القرآن في العهد المكي قبل هذه الآية.

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٩-١٠ .

ومن لمحات الإعجاز في هذا التعبير القرآني: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أنه جاء على وجه الإطلاق فيمن يرشدهم ويهديهم، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً لا يحدُّها زمان ولا مكان، فلا حصر لهذه الهداية في جيل من الناس أو قوم، مهما اختلف الزمان والمكان، وتنوعت الأجناس، واللغات والألوان. قال الآلوسي: (يهدي أي الناس كافة، لا فرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى عليه السلام)[١].

كما أنه جاء ليشمل الخيرُ الذي يهديهم إليه كلَّ منهج وكلَّ طريق يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان، مهما بلغ تطور الوقائع والأحداث، ثقافة وفكراً وتصوراً وتطبيقاً مبلغه!.

وقد استأثرت كلمات﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ بكثيرٍ من اهتمام أولي الشأن في بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، فرأوا أن هنالك محذوفاً جاء وصفه بـ(التي هي أقوم) قال القرطبي: [فـ (التي) نعت لموصوف محذوف أي الطريقة التي هي أقوم][٢] فكان ذلك في ذروة البلاغة وفخامة الأسلوب، حتى بدا لهم أنه لا مقارنة بين أن يكون المحذوف مذكوراً وبين ما جرى عليه التعبير القرآني كما هو في قوله سبحانه: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

يقول صاحب «الكشاف»: [(التي هي أقوم) للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملَّة، أو للطريقة. وأياً قدَّرت: لم تجد مع الإثبات، ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقد مع إيضاحه][٣].

لذا تجده رحمه الله قدّر أن يكون المحذوف: للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملّة، أو للطريقة. الأمر الذي دلَّ بوضوح على أنه بسبب من هذا الإبهام للموصوف بحذفه، وهو الذي أعطى ما أعطى من البلاغة والفخامة في أسلوب الكلام المعجز: تعدَّدت الأقوال في تقدير ما يمكن أن يكونه.

---

(١) انظر «روح المعاني»: (٢٢/١٥).

(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (٢٢٥/١٠).

(٣) انظر «الكشاف»: (٣٥٣/٢) «البر المحيط» لأبي حيان: (١٢/٦).

روى الإمام الطبري بسنده عن ابن زيد قال: [قال ابن زيد في قوله: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال: للتي هي أصوب هو الصواب وهو الحق قال: والمخالف هو الباطل، وقرأ: قوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝﴾ [البينة:٣] قال: فيها الحق ليس فيها عوج وقرأ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ يقول: قيِّماً مستقيماً][١].

وقال الزجاج: «يهدي للحال التي هي أقوم الحالات وهي توحيد الله والإيمان برسله والعمل بطاعته»[٢] قال القرطبي: وقاله الكلبي والفراء[٣]. وفي «زاد المسير» لابن الجوزي: (قال ابن الأنباري: التي وصف للجمع، والمعنى يهدي إلى الخصال التي أقوم الخصال)[٤].

ونقع عند الرازي في «التفسير الكبير» على قوله هناك [﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ نعت لموصوف محذوف، والتقدير: يهدي للملة، أو الشريعة، أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق. ومثل هذه الكناية كثير الاستعمال في القرآن كقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]. أي بالخصلة التي هي أحسن][٥].

وهذا الحافظ ابن كثير يقول في تفسيره: [يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ـ وهو القرآن ـ بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل][٦].

وهذا يذكر بما ذهب إليه شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري الذي قال في «جامع البيان»: (يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويسدِّد من اهتدى به للتي هي أقوم، يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام، يقول جل ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضلَّ عنها سائر أهل الملل المكذبين به) ثم استشهد بكلام ابن زيد الذي رأيناه آنفاً[٧].

(١) انظر «جامع البيان»: (٣٦/١٥).
(٢) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج: (٢٢٩/٣).
(٣) انظر «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» للواحدي: (٩٨/٣) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي: (٢٢٥/١٠) وانظر «فتح القدير» للشوكاني: (٢١٦/٣).
(٤) انظر «زاد المسير»: (١٢/٥).
(٥) «التفسير الكبير»: (١٦٢/١٩).
(٦) انظر «تفسير القرآن العظيم»: (٢٠٦٧/٥) تحقيق إبراهيم البنا.
(٧) «جامع البيان» للطبري: ٣٦٠/ ١٥)

ومهما يكن من أمر: فإن هذا الاختلاف في تقدير المبهم الموصوف بالتي هي أقوم: صورة عن تعدد الآفاق المنيرة في هذا الباب، وهو اختلاف تنوُّع جاء نتيجة ذهاب الذهن فيه كل مذهب لا اختلاف تضاد؛ لأن الأقوال كلها تنصب فيما بعد على تلكم القنوات الصادرة من القرآن منبع الخير والعطاء في ملة الإسلام، الأمر الذي يشرق في جنباته قول الحكيم الخبير في فاتحة سورة إبراهيم: ﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾[1] فكلمة التوحيد هي الأساس المبارك، وما أكثر قنوات الهداية النابعة منها، والمرشدة إلى الخير العميم في ضوئها.

من هنا اتجه ابن عطية في «المحرر الوجيز» إلى أن (التي) في قوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أعم من أن ينحصر معناها بالكلمة الطيبة ـ كما يرى البعضهم ـ؛ بل يراد بها الحالة والطريقة؛ يقول: [وكلمة الإخلاص وغيرها من الأقوال والأفعال داخلة في الحال التي هي أقومُ من كل حال تُجعل بإزائها، والاختصار على (أقْوَم) ولم يذكر: «من كذا» إيجاز، والمعنى مفهوم، أي للتي هي أقوم من كل ما غايرها؟ فهي النهاية في القَوام] ونحا هذا النحو من التعميم: الثعالبي في كتابه «الجواهر الحسان» وهو ما عليه الأكثرون رحمهم الله.

القَوام: العدل قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقِوام الأمر: بكسر القاف: نظامه وعماده.



(١) سورة إبراهيم: الآية: ١ .

القرآن يهدي للتي هي أقوم

«٣»

هداية اللّه جل ثناؤه العبدَ إلى مرضياته سبحانه، وتوفيقُه للثبات عليها: مطلب ما أعزَّه من مطلب! وبُغية أكْرِمْ بها من بُغية!

وكلما ازداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، ازدادت ذلته بين يدي مولاه، راجياً المعونة في أن يكون ما تبقَّى له من العمر مشرقاً بنور تلك الهداية زاخراً بعطائها في كل ما يقربه إليه زلفى، وأن يحشره يوم القيامة في زمرة من رضي عنهم ورضوا عنه، وكان لهم بذلك الفوز العظيم.

ألم تر إلى النسق القرآني في سورة الفاتحة أم الكتاب التي يُقرأ بها في الصلوات فرائض كانت أو نوافل؛ كيف تلا الشكرَ الخالص للّه الواحد الأحد ربُّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، ومناجاتَه تعالى بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قولُه جل ثناؤه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

لقد جنح شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري في تفسير ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ إلى أن المعنى نظير قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في أنه مسألة العبد ربه التوفيق للثبات على العمل بطاعته، وإصابةِ الحق والصوابِ فيما أمره به ونهاه عنه، فيما يستقبل من عمره، دون ما قد مضى من أعماله، وتقضَّى فيما سلف من عمره. كما قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مسألة من ربِّه المعونةَ على أداء ما قد كلَّفه من طاعته، فيما بقي من عمره(١).

وزاد الأمرَ تجلية بقوله: (والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أن يكون معنيّاً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته، ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل، وذلك هو الصراط

---

(١) انظر «جامع البيان» (١/١٦٦ ـ ١٦٧).

المستقيم؛ لأن من وفِّق لما وُفِّق له من أنعم اللّه عليه من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء، فقد وُفق للإسلام، وتصديقِ الرسل، والتمسكِ بالكتاب، والعمل بما أمر اللّه به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهج النبي ﷺ، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكل عبد صالح، وكلٌّ ذلك من الصراط المستقيم)[1].

ومما يدل على عظم شأن الهداية، والتوفيق للثبات عليها فيما يستقبل الإنسان المكلَّف من العمر: أن المؤمن ـ وهو يصلي ويناجي ربه بكلامه المنزل في كتابه قائلاً: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو في هذه الحال متصف بالهداية، ومع ذلك يؤمر بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم.

وعلى هذا: فالأمر يشعر بحكمة عظيمة وحاشا أن يكون تحصيل حاصل؛ لأن العبد يفتقر أبداً إلى ربه مقلب القلوب سبحانه في أن يديم فضله عليه في أن تكون الهداية دائماً سرباله المبارك المنجي الذي ينير قلبه وعقله وسلوكه بالخير، ويؤذن بسعادة الدارين؛ فكما تفضل عليه بادئ ذي بدء بأن شرح صدره للإسلام، وهداه سواء الصراط: فإنه يجأر إليه بالدعاء الخاشع الخاضع أن يثبت قلبه على الدين، ويقدِّره على أخذ نفسه بكل ما فيه طاعته ـ جل شأنه ـ ومرضاته فيما يستقبل من عمره طال أو قصر؛ ولا يغيبنَّ عن الذهن أن اللّه تعالى هو الذي أرشده إلى ذلك!

جاء في «تفسير القرآن العظيم» قول الحافظ ابن كثير رحمه اللّه: فإن قيل: كيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك؟ وهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟.

فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده اللّه إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى اللّه تعالى في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء اللّه، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل

(١) المصدر نفسه: (١/١٧١) وانظر «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: (١/١٦١ ـ ١٦٢).

وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله، فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المُعِينة على ذلك، والله أعلم.

وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد كان الصديق ـ رضي الله عنه ـ يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً، فمعنى قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: استمر بنا عليه ولا تَعْدِل بنا إلى غيره، ولا تُضِلَّنا عنه][1].

وأنت ترى أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو الأسوة الحسنة المعصوم ـ لم يدع أن يؤدب أمته بهذا الأدب الرفيع أدب الدعاء بالتثبيت على الدين، إيذاناً بما يجب من استشعار الافتقار الدائم إلى الله عزوجل، وأن له ـ سبحانه ـ تمامَ الفضل والمنة بالهدى والتثبيت عليه فيما يكون من العمر.

ذلكم ما روى الترمذي وحسَّنه وابن ماجه ـ واللفظ للترمذي ـ عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك، فقلت: يا رسول الله: آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»[2] ولفظ ابن ماجه: «.. فقال رجل: يا رسول الله! تخاف علينا وقد آمنا بك وصدقناك بما جئت به؟ فقال: إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن عزوجل يقلِّبها»[3].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/١٦١ ـ ١٦٢).

(٢) انظر «الجامع الصحيح» للترمذي ـ السنن ـ: (٤/٣٩٠ ـ ٣٩١) رقم ٢١٤٠ .

(٣) انظر «سنن ابن ماجه»: (٤/٢٦٥) رقم ٣٨٣٤ بشرح السندي وحاشية البوصيري.

جاء في «تحفة الأحوذي» للعلامة المباركفوري شرحاً لقول من قال: يا رسول الله تخاف علينا؟ (يعني أن قولك هذا ليس لنفسك، لأنك في عصمة من الخطأ والزلَّة، خصوصاً من تقلب القلب عن الدين والملة، وإنما المراد تعليمُ الأمة، فهل تخاف علينا من زوال نعمة الإيمان، أو الانتقال من الكمال إلى النقصان؟ قال: نعم، يعني أخاف عليكم..)[1].

وفي خاتمة المطاف: أرجو أن يكون التذكير بهذه الحقائق في شأن الهداية والحرص على دوامها: عروةٌ مباركة تعيدنا في لقاء قادم إن شاء الله إلى متابعة رحلتنا العجلى التي نسعد معها باصطحاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران: ٦٢] وصلى الله وسلم وبارك على إمام الهداة وسيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم اللقاء.



(١) انظر «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» للمباركفوري: (٣٤٩/٦) رقم ٢٢٢٦ .

القرآن يهدي للتي هي أقوم

«٤»

هذا أوان أن نتابع الحديث عن آفاق العطاء الخيِّر في الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة «الإسراء» وهما قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

وليس بخافٍ أن الأهمية البالغة لحقيقة أن القرآن يهدي للحالة أو الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب: زادت من اهتمام جهابذة العلماء بالكشف عن المعاني ومراميها وأبعادها في الآيتين فلم يدعوا ـ من أجل ذلك ـ أن يميطوا اللثام حتى عن مواجهة الجزئيات لغةً، وبلاغةً، وعلاقةً بما سبق من الآيات ناهيك عن المواءمة بين المعنى الاصطلاحي والمعنى اللغوي، وموقع ذلك من منهج القرآن في الدعوة، وأسلوبه الحكيم في وضع كل مسألة موضعها على سلَّم الهداية، مع الإرشاد إلى عاقبة كلٍ من المهتدين المؤمنين، والضالين المكذبين!!.

ومن سعة العربية التي نزل بها الكتاب وجمالها: أن علاقة الهداية ـ من حيث لفظها ومشتقاتها ـ بما هو مناط تلك الهداية، جاءت في الأسلوب القرآني على ثلاثة أوجه: وجه الارتباط المباشر، كما في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ووجه الارتباط بحرف الجر (إلى) كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1] ووجه الارتباط بحرف الجر (اللام) كما نرى فيما نسعد باصطحابه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[2].

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢ .

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٠ .

وهذا في الحقيقة من معهودات العرب في الخطاب؛ وقد نزل القرآن على هذه المعهودات. قال الإمام الطبري في معرض تفسيره لسورة الفاتحة: والعرب تقول: هديتُ فلاناً الطريق. وهديته للطريق، وهديتُه إلى الطريق، إذا أرشدتَه إليه وسدَّدته له. وبكل ذلك جاء القرآن. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾[1]، وقال في موضع آخر: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2] وقال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3].

وكل ذلك فاشٍ في منطقها موجود في كلامها. من ذلك قول الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست مُحصيَهم ربَّ العباد إليه الوجهُ والعملُ

يريد: أستغفر الله لذنب، كما قال جل ثناؤه:

وعلى السنن الذي سلكه أهل التفسير في تناولهم الآية بالبحث المستقصي: كانت لهم وقفة عند كلمة «أقوم» من قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩][4][5].

فذهب غير واحد من العلماء إلى أن لفظة «أقوم» أفعل تفضيل يعني جيء بها على هذا الوزن. للتفضيل، على معنى أن هنالك مشاركة بين الطريقة أو الحال التي يرشد إليها القرآن، وبين طريقة أو طرائق وسُبل غيرها، وفضلت القرآنية على غيرها فيما حصل الاشتراك فيه.

واتجه آخرون إلى أن لفظة «أقوم» وإن كانت على وزن أفعل هنا: فإنها ليست للتفضيل، بل المعنى أن القرآن يهدي للطريق التي هي طريق قيِّمةٌ أي مستقيمة؛ فهو تفضيل ـ بالوزن ـ على غير بابه كما يقول العلماء، والمراد التميز بهذه الصفة وهي الاستقامة التي تعني الإرشاد إلى كل ما هو سداد وعدل وصواب.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٤٣ .

(٢) سورة النحل، الآية ١٢١ .

(٣) سورة الفاتحة، الآية٦ .

(٤) (٥) انظر «جامع البيان»: (١/١٦٩ ـ ١٧٠) «خزانة الأدب» للبغدادي: (١/٤٦٨).

وفي إشارة إلى هذين الاتجاهين، واستظهار الثاني منهما يقول أبو حيان الأندلسي في تفسيره «البحر المحيط»: (و«أقوم» هنا: أفعل التفضيل على قول الزجاج، إذ قدَّر: أقومُ الحالات، وقدَّره غيره: أقومُ مما عداها، أو من كل حال).

ثم قال: (والذي يظهر من حيث المعنى أن «أقوم» هنا: لا يراد بها التفضيل، إذ لا مشاركة بين الطريقة التي يرشد إليها القرآن، وطريقة غيرها، وفضلت هذه عليها، وإنما المعنى: التي هي قيِّمة أي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[١] و﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٢] أي مستقيمة الطريقة بما يحتاج إليه من أمر الدين)[٣].

وكان من إنصافه ـ يرحمه الله ـ أنه أتى بعد ذلك بكلام صاحب الكشاف الذي قد يشعر بالاتجاه الأول ذلكم قوله ـ كما سلف من قبل ـ: («للتي هي أقوم» للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملة، أو للطريقة، وأياً قدرت: لم تجد مع الإثبات ـ أي إثباتِ المحذوف الذي وصف بالتي هي أقوم ـ ذوقَ البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه: من فخامة تُفقد مع إيضاحه)[٤].

وها هو ذا شيخ المفسرين وقد جنح إلى أن «أقوم» للتفضيل يضع أيدينا على النقطة الجوهرية التي هي محور ما أتى به الله بالأسلوب المعجز على قرآنه المجيد: بأنه يهدي للتي هي أقوم. جاء في «جامع البيان»: (يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويسدِّد من اهتدى به للتي هي أقوم، يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه. وهو الإسلام؛ يقول جل ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضلَّ عنها سائر أهل الملل المكذوبة)[٥].

---

(١) سورة البينة، الآية ٥ .

(٢) سورة البينة، الآية ٣ .

(٣) انظر «البحر المحيط»: (٦/٩١ ـ ٩٢) «روح المعاني» للآلوسي: (١٥/٢٢).

(٤) «البحر المحيط»: (٦/٩٢).

(٥) «جامع البيان»: (١٥/٣٦) دار المعرفة.

ويرى ابن عطية يرحمه الله أنه كان من بلاغة القرآن الاقتصار على «أقوم» دون قول: مِن كذا، وهو من الإيجاز؛ فبعد أن أشار إلى الشمول الذي يُشرق به قوله تعالى: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ مع ملاحظة المحذوف وأن كلمة الإخلاص «لا إله إلا الله» وغيرها من الأقوال والأفعال داخلة في الحال التي هي أقوم من كل حال تجعل بإزائها. قال: (والاقتصار على «أقوم» ولم يذكر (من كذا) إيجاز، والمعنى مفهوم، أي للتي هي أقوم من كل ما غايرها، فهي النهاية في القَوام)[1] انتهى كلامه.

وكنت أشرت من قبل إلى أن القَوام بفتح القاف: العدل والاعتدال كما يقول صاحب «المصباح المنير».

وهذا الذي غايرها ـ كما نرى في كلام ابن عطية ـ خصّ به البقاعي في «نظم الدرر» ما دعا إليه كتاب من الكتب السماوية من طريقة أو حال أو سنة. ذلكم قوله: (ولما كان صاحب الذوق السليم يجد لحذف الموصوف هزة وروعة، لما يجد في إبهامه من فخامة لا يجدها عند ذكره وإيضاحه: قال: «للتي» أي للطرائق والأحوال والسنن التي هي «أقوم» من كل طريقة أو سنة، أو حال دعا إليها كتاب من الكتب السماوية)[2].

وصلى الله وسلم وبارك على عبده محمد الذي أنزل عليه القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وشرَّفه بتبليغه وبيانه وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



(١) «المحرر الوجيز»: (٩/٢٦).
(٢) «نظم الدرر»: (١١/٢٨٠ ـ ٢٨١).

القرآن يهدي للتي هي أقوم

«٥»

هذا حديث موصول باصطحاب الكلام على حقيقة هي عين اليقين، وأعني بها أن القرآن الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، يهدي الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم، للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها وأسدُّها، فبعضهم يصل بهدايته وهم المؤمنون، وبعضهم لا يصل وهم الكافرون؛ لأن المؤمنين يتدبرون آياته فيتذكرون، وليس كذلك الكافرون.

ومن عيون ما دل على هذه الحقيقة ـ على تعدد المواطن وتنوعها في الكتاب الكريم ـ ما نطق به ـ كما أسلفنا من قبل ـ قول الله تباركت أسماؤه وصفاته في سورة الإسراء المكية: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ [الإسراء: ٩-١٠] وقد تأيَّد ذلك بآيات عدة هي من أواخر ما أنزل منها قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وكون آية الإسراء مكية، وآية المائدة مدنية ـ ومن أواخر ما أنزل ـ يوجب مزيداً من الإيمان بهذه الحقيقة كيما يكون ذلك بريد جدِّية العمل بهذا الكتاب الكريم ائتماراً بأوامره، وانزجاراً عن نواهيه، وأخذاً بكل ما دعا إليه ورغب فيه، وبعداً عن كل ما رهَّب منه وحذَّر من الرضى به.

ومما يجدر التذكير به: ما أسلفنا من اهتمام العلماء بالكشف عن عظم المدلول وتنوُّع أبعاده ووفرة معانيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.. الآية، والتنبيه على ما يقع عليه التالي المتدبِّر من الأسلوب الرفيع المعجز حيث لا يغني غناء قوله جل شأنه: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ بحذف الموصوف بهذه الصفة: تعبيرٌ آخرٌ.

وفي هذا الإطار من العناية بأهمية ما دلت عليه الكلمة الهادية في الآية عند العلماء: يحسن التذكير بما ذهب إليه بعضهم من أن لفظة «أقوم» لا يراد بها التفضيل ـ كما هو مذهب غير واحد من العلماء ـ إذ لا مشاركة بين الطريقة التي يهدي إليها القرآن وغيرها من الطرق في مبدأ الاشتقاق لتفضُل عليه. فمعنى «للتي هي أقوم» للتي هي قيِّمة أي مستقيمة كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

وتطالعنا المصادر بجنوح صاحب «التفسير الكبير» إلى هذا الرأي، والحرص على تعليله وتفصيل القول فيه؛ ذلكم قوله هناك: (واعلم أن قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[١] يدل على كون هذا الدين مستقيماً، وقوله في هذه الآية: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان. وأقول: قولنا: هذا الشيء أقوم من ذاك: إنما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة، ثم كان حصول الاستقامة في إحدى الصورتين أكثر وأكمل من حصوله في الصورة الثانية، وهذا محال؛ لأن المراد من كونه مستقيماً كونه حقاً وصدقاً، ودخول التفاوت في كون الشيء حقاً وصدقاً محال... إلى أن يقول: إلا أن لفظ الأفعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا: الله أكبر أي الله كبير، وقولنا: الأشج والناقص أعدلا بني مروان أي عادلا، أو يحمل هذا اللفظ على الظاهر المتعارف والله أعلم)[٢].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦١ .

(٢) انظر «التفسير الكبير» للفخر الرازي: (٢٠/١٦١ ـ ١٦٢).

والمقصود بالأشج هنا: خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز يرحمه الله. قال ضَمْرَةُ بن ربيعة: دخل عمر بن عبدالعزيز إلى اصطبل أبيه ـ وهو غلام ـ فضربه فرس فشجَّه، فجعل أبوه يمسح عنه الدم ويقول: إن كنتَ أشجَّ بني أمية إنك إذن لسعيد[١].

وجاء في «السير» للإمام الذهبي: قيل: إن عمر بن الخطاب ـ وهو جد عمر بن عبدالعزيز ـ قال: «إن من ولدي رجلاً بوجهه شتَر، يملأ الأرض عدلاً»[٢] الشتَر: انقلاب في جفن العين الأسفل.

وعند النووي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» (وكان عمر أشجَّ يقال له: أشجُّ بني أمية، ضربته دابة في وجهه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من ولدي رجل بوجهه شَجَّة يملأ الأرض عدلاً)[٣].

وفي عود على بدء: نعود إلى اصطحاب ما سلفت الإشارة إليه من تنبيه علمائنا رحمهم الله على العلاقة الوطيدة بين بلاغة الأسلوب في القرآن الكريم، ووفرة المعاني في الآية الكريمة التي نسعد باصطحابها، وهي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الآية.

وممن فصَّل القول في ذلك العلامة محي الدين شيخ زاده في حاشيته على تفسير القاضي البيضاوي؛ فكان من تعقيبه على قول البيضاوي في تفسير الآية: (للحالة أو الطريقة التي هي أقوم الحالات أو الطرق) قوله: (للتي: صفة لمحذوف أي للطريقة التي هي أقوم الطرق، وعُدل إلى الحذف مع أن الذكر هو الأصل: ليذهب ذهن السامع كل مذهب فيما يهدي إليه القرآن من وجوه الخير؛ فإن إبهام الموصوف وعدمَ تعيينه بنحو الملة أو الطريقة، أو الحالة، أو الخصلة: يؤدي إلى أن ينتقل الذهن إليها وما يشاكلها، فكأنه قيل: يهدي لما لا يدخل تحت

(١) انظر على سبيل المثال: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للحافظ المزني: (٢١/٤٣٧).
(٢) نظر «سير أعلام النبلاء»: (٥/١١٦) «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر: (٤٥/١٣٤).
(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي: (٢/١٩).

الوصف والحصر، بخلاف ما لو ذكر واحد من الأمور المذكورة؛ فإن ذلك يتعين حينئذ. وحقيقة «أقوم» ههنا للزيادة المطلقة كما في قولنا: اللّه أكبر؛ لأن ما هدى إليه القرآن من الملل والشرائع لا يشاركه سائر الأديان والملل في أصل الاستقامة حتى يقال: حصولها في هذه الملة أكثر وأكمل من حصولها في غيرها)[١].

وجميل ما ذهب إليه القاضي أبو السعود في تفسيره «إرشاد العقل السليم..» إلى أن (ترك ذكر الطريقة التي وصفت بـ(التي هي أقوم) ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها، فيما يعبَّر به عن المقصود المذكور، بل للإيذان الغني عن التصريح بها لغاية ظهورها، لا سيما بعد ذكر الهداية التي هي من روادفها. والمراد بهدايته لها: كونه بحيث يهتدي إليها من يتمسك به ـ أي القرآن ـ لا تحصيل الاهتداء بالفعل، فإنه مخصوص بالمؤمنين حينئذ)[٢].

والحمد للّه الذي أكرمنا بهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونسأله تعالى أن يجعلنا من أهل التدبر والتذكر والاعتبار، وصلى اللّه وسلم وبارك على أمام الهداة المهتدين وعلى آله وصحابته أجمعين.



(١) «حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي» (٣/٢١٢ ـ ٢١٣).

(٢) «إرشاد العقل السليم».. لأبي السعود: (٥/١٥٨).

القرآن.. يهدي للتي هي أقوم

«٦»

أنَّى رجعت البصر في شؤون دينك ودنياك وآخرتك: وجدت أن الطريقة التي هدى لها القرآن الكريم منبع ثَرٌّ من الخير لا ينتهي، ونور يضيء للمؤمن سبيله إلى سعادة الدارين، أن لو عمل بما هدى إليه الكتاب العزيز، وبينته سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩].

ولقد كان النبي ﷺ الذي خاطبه ربه بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] لا يفتأ يدعو بالهداية ويعلم أصحابه ـ والأمة من ورائهم ـ بالقول والفعل والقدوة: أن على المؤمن أن يكون دائم الضَّرَع إلى الله تعالى بأن يثبته على الطريق النورانية التي هداه إليها، لا يتلفت، ولا يبدِّل فيما بقي من عمره المكتوب له كما في تعليم الله المؤمنين أن يقولوا: (**اهدنا الصراط المستقيم**) أي ثبتنا عليه فيما بقي من عمرنا.

فمن عيون أدعيته الجوامع عليه الصلاة والسلام في هذا الباب: ما أخرج مسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن عبدالله عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**»[2].

وها هو ذا ـ فداه أبي وأمي ـ يعلم علياً رضي الله عنه أن يدعو الله بالهداية والسداد، موجهاً إياه إلى تذكر ما به يستشعر المؤمن أهمية ما يدعو به، موضحاً الأمر المعنوي الذي يشرق به كلٌّ من الهداية والسداد: بأمر مادي يحسٌّ ويشاهد.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢ .

(٢) انظر «صحيح مسلم» (٤/٢٠٨٧) رقم (٢٧٢١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: (١٧/٤٠ ـ ٤١) «إكمال مكمل الإكمال» بشرح مسلم للحسيني: (٧/١٤٢) «الجامع الصحيح» للترمذي: (٥/٤٨٨) رقم ٣٤٩١، «سنن ابن ماجه»: (٤/٢٦٤) رقم ٣٨٣٢ «تحفة الأحوذي» بشرح الترمذي رقم (٣٥٥٥).

ذلكم ما روى مسلم وغيره ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي بردة عن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**قل: اللّهم اهدني وسددني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسَّداد سَداد السهم**»[١] وله في رواية أخرى: «**قل اللّهم إني أسألك الهدى والسداد**» ثم ذكر بمثله. ورواه أحمد وأبو داود والنسائي[٢].

أرأيت إلى هذا التعظيم لشأن الهداية والسداد؟! وجَّه سَيِّد ولد آدم في التربية والتعليم ﷺ علياً رضي الله عنه إلى أن يذكر بعد قوله: اللّهم اهدني وسددني أن يذكر بالهدى هدايته الطريق، وبالسداد سداد السَّهم، كيما يحصل له حسن التمثُّل لهذا الأمر الجلل في الهداية والسداد الذي هو بالغيب أشبه، وهو يضرع إلى الله بأن يتفضَّل عليه بهما!

السَّداد في أصل اللغة: الاستقامة والقصد في الأمور، والهدى هنا ـ هو الرشاد ـ ويذكر ويؤنث فمعنى اهدني: أرشدني إلى الأخذ بما هدى له كتابك وثبتني عليه، ومعنى سددني، وفقني واجعلني مصيباً في جميع أموري مستقيماً.

ويبدو سمو التوجيه النبوي لعلي رضي الله عنه، وروعة الأسلوب فيه، إذا ذكرنا أن معنى «**اذكر بالهداية: هدايتك الطريق والسَّدادِ: سداد السهم**» تذكر ذلك في حال دعائك بهذين اللفظين: اهدني وسدِّدني، لأن هادي الطريق لايزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ومسدد السهم يحرص على تقويمه إذ لا يستقيم الرمي به حتى يسدِّد ويقوِّم، يقول الإمام النووي: (وكذا الداعي ينبغي أن يحرص على تسديد علمه وتقويمه ولزومه السنة، وقيل: ليتذكر بهذا لفظ السداد والهدى لئلا ينساه)[٣]».

---

(١) «صحيح مسلم» مع «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض: (٨/٢١٨) رقم (٢٧٢٥) «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» لأبي العباس أحمد القرطبي: (٧/٥٣) رقم (٢٦٥٥).

(٢) انظر «المسند»: (١/١٥٤) «سنن أبي داود» رقم ٤٢٢٥ «سنن النسائي ـ المجتبى»: (٨/١٧٧).

(٣) انظر «صحيح مسلم» بشرح النووي: (١٧/٤٣ ـ ٤٤) «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض رقم ٢٧٢٥ (٨/٢١٨ ـ ٢١٩).

وذهب أبو العباس القرطبي صاحب «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» إلى أن هذا الأمر منه ﷺ لعلي يدل على أن الذي ينبغي له: أن يهتم بدعائه، فيستحضر معاني دعواته في قلبه، ويبالغ في ذكرها بضرب من الأمثال، وتأكيد الأقوال؛ فإذا قال: اهدني الصراط المستقيم، وسدِّدني سداد السهم الصائب: كان أبلغ وأهمّ من الصيغة المجردة عنهما[1].

ولا يخفى أن المعتصِم في تحقيق ذلك كله بعون الله وتوفيقه: الحرصُ على أخذ النفس ظاهراً وباطناً بالسبيل التي هدى إليها القرآن الكريم لأنها أقوم السبل وأعدلها وأسدُّها.

وأنت ترى أن الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة الإسراء بدءاً من قوله تعالى:﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.. قد حملت إلى الأمة امتداح الحق عز وجل كتابه العزيز بصفات ثلاث: أولاها: أنه يهدي للتي هي أقوم، وثانيتها: أنه يبشر المؤمنين الذين اهتدوا لما هدى إليه القرآن من الطرق بقلوبهم وعقولهم وجوارحهم: بالأجر الكبير وهو الجنة كما تدل عليه النصوص؛ لأن من سلك أقوم الطرق لا بد أن يفوز عند الله ـ وهو سبحانه لا يضيع عمل عامل ـ بأعز المقاصد ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ ويقدر العلماء: (بأن لهم) لأن حذف الجر من إنَّ وأنَّ كثير شائع في العربية. والصفة الثالثة: تأتي على صورتين: فإذا اعتبرنا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ﴿١٠﴾﴾ معطوفاً على قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ كان المعنى: ويبشر المؤمنين بأن لأعدائهم أعداء الله ـ الذين من أبرز مظاهر عدائهم عدم الإيمان باليوم الآخر ـ: عذاباً أليماً. فتكونان بشارتين. وعلى الوجه الأول تكون هناك بشارة للمؤمنين ونذارة للكافرين.

وإن كان معطوفاً على ﴿يُبَشِّرُ﴾ بإضمار كلمة (يخبر) يكون المعنى ـ والله أعلم ـ: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بكذا، ويخبر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة مصيرهم كذا[2].

---

(١) «صحيح مسلم» مع «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض: (٢١٨/٨) رقم (٢٧٢٥) «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» لأبي العباس أحمد القرطبي: (٥٢/٧) رقم (٢٦٥٥).

(٢) انظر «المسند»: (١٥٤/١) «سنن أبي داود» رقم ٤٢٢٥ «سنن النسائي ـ المجتبى»: (١٧٧/٨).

وإذا كان الخير يجلب الخير: فلنصحب ونحن نقترب من خاتمة المطاف في هذه القضية الكبرى ـ شيئاً من كلام العلامة الطاهر بن عاشور فقد جاء في «التحرير والتنوير»: (وقد جاءت هذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. تنفيساً على المؤمنين من أثر القصص المهولة التي قُصَّت عن بني إسرائيل وما حلَّ بهم من البلاء مما يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فأُخبروا بأن في القرآن ما يعصمهم من الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل؛ إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل، ولذلك ذكر مع الهداية، بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة.. إلى أن يقول: والأقوم تفضيل القويم. والمعنى أنه يهدي للتي هي أقوم من هدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان، لا يحول دونه ودون ولوجه إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكاً إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضاً وتحذيراً؛ بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه.

وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقومَ من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة.

وهذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفاراً)[1].



(١) انظر «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور: (١٥/٤٠-٤١).

القرآن يهدي للتي هي أقوم

«٧»

ما كنا بسبيله فيما سبق من الكلام المتصل بما حملت إلينا المصادر من بيان لمعنى قوله تعالى: في ختام الآية التاسعة من سورة الإسراء والآية العاشرة بعدها: يحملنا ـ بعد تلكم الإشارة العجلى ـ إلى شيء من التفصيل نقع عليه عند الإمام الطبري، ثم عند بعضٍ ممن سلكوا نهجه من المتأخرين، أو خالفوا عنه!.

فعند الكلام على ما عنيناه هنا وهو قول الله جل ثناؤه: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء: ٩-١٠]. قال بعد البيان عن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. يقول: ويبشر أيضاً مع هدايته من اهتدى به للسبيل الأقصد، الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله به، وينتهون عما نهاهم عنه: بأن لهم أجراً من الله على إيمانهم وعملهمُ الصالحات: كبيراً، يعني ثواباً عظيماً وجزاء جزيلاً، وذلك هو الجنة التي أعدها الله تعالى لمن رضي عمله. وأيَّد ـ رحمه الله ـ هذه الوجهة في تفسير الأجر الكبير بالجنة: بما روى عن ابن جريج من قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ الجنة، وكل شيء في القرآن: أجر كبير، أجر كريم، ورزق كريم: فهو الجنة.

ثم قال الطبري: و﴿وَأَنَّ﴾ في قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ نصب بوقوع البشارة عليها. ﴿وَأَنَّ﴾ الثانية معطوفة عليها. وقوله: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يقول تعالى ذكره: «وأن الذين لا يصدقون بالمعاد إلى الله، ولا يقرون بالثواب والعقاب في الدنيا: فهم لذلك لا يتحاشون من ركوب معاصي الله: أعتدنا لهم، يقول: أعددنا لهم لقدومهم على ربهم يوم القيامة عذاباً أليماً، يعني موجعاً وذلك عذاب جهنم»[1].

(١) جامع البيان «للطبري»: (١٥/ ٣٦-٣٧).

ونقع عند العلامة البقاعي في «نظم الدرر» على شيء من الشمول المتصل بالأمة وما ينالها من الخير بسبب الاستقامة على ما أرشد إليه الكتاب الكريم؛ ففي مواجهة النص القرآني، وما ترتب على الإيذان بالهداية للتي هي أقوم من بشارة للمهتدين ونذارة للضالين: (يرى أنه لما انقسم الناس إلى مهتد به وضال: أتبع ـ سبحانه ـ ذلك ببيانه، وكان التعبير عنهما بالبشرى في قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الراسخين في هذا الوصف، ولهذا قيدهم بياناً لهم بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ﴾ يصدقون إيمانهم بأنهم يعملون على سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ من التقوى والإحسان ﴿ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي جزاء لهم في ظاهرهم وبواطنهم ﴿ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ إشارة إلى صلاح هذه الأمة وثباتاً على دينهم وأنه لا يزال أمرهم ظاهراً، كما كان إنذار موسى عليه السلام قومه إشارة إلى فسادهم وتبديلهم دينهم.

ولما بشرهم بما لهم في أنفسهم، أتبعه ما لهم في أعدائهم فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ أي ويبشر المؤمنين أيضاً بأن ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يتجدد منهم إيمان ﴿بِالآخِرَةِ﴾ حقيقة أو مجازاً المسبب عنه أنهم لا يعملون الصالحات حقيقة لعدم مباشرتها، أو مجازاً ببنائها على غير أساس الإيمان[(١)].

وعبر بالعتاد تهكماً بهم فقال تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أحضرنا وهيأنا ما هو في غاية الطيب والنفاسة والملاءمة على سبيل الوعد الصادق الذي لا يتخلف بوجه، وهو مع ذلك منظور إليه لعظمتنا ﴿لَهُمْ﴾ من عندنا بواسطة المؤمنين أو بلا واسطة)[(٢)].

والذي عند صاحب «التحرير والتنوير» التصريح بالاتجاه إلى عدم القصر على الجنة في الأجر الكبير، وعمد القصر أيضاً على جهنم في العذاب الأليم ذلكم قوله رحمه الله: (والأجر الكبير فُسِّر بالجنة، والعذاب الأليم؛ بجهنم. والأظهر أن يحمل على عموم الأجر والعذاب، فيشمل أجر الدنيا وعذابها، وهو المناسب لما تقدم من سعادة عيش بني إسرائيل وشقائه، فجعل اختلاف الحالين فيهما: موعظة لحالي المسلمين والمشركين)[(٣)].

---

(١) التعبير القرآني يتسع لهذا كله حقيقة فلا داعي والله أعلم- لما ذهب إليه رحمه الله من إدخال المجاز في الموضوع.
(٢) «نظم الدرر..» للبقاعي: (٣٨١/١١-٣٨٣).
(٣) المصدر السابق: (٥١/٤١).

وفي الوقت الذي يذهب فيه بعض المفسرين إلى أن المقصود بالذين لا يؤمنون بالآخرة هنا: اليهود ـ لأنهم لم يؤمنوا بالآخرة حقيقة الإيمان بها على الوجه المطلوب ـ: يذهب العلامة الطاهر بن عاشور إلى أن المقصود كفار قريش، وهذا واضح في قوله: «﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ عطف على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ لأنه من جملة البشارة؛ إذ المراد بالذين لا يؤمنون بالآخرة: مشركو قريش وهم أعداء المؤمنين، فلا جرم أن عذاب العدو بشارة لمن عاداه)[1].

ومهما يكن من أمر: فإن هذا من بلاغة القرآن في الجمع بين البشارة والنذارة، وعداً ووعيداً وهو كثير فيه؛ فالله تعالى يبشر أهل الرسوخ في الإيمان والعمل الصالح بالأجر الكبير يوم القيامة جزاءً بما عملوا، وينذر الضالين بالعذاب الأليم، وإطلاقُ البشارة على النذارة بالعذاب إنما هو من قبيل التهكم كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. أو من إطلاق اسم الشيء على ضده ـ كما يقول البلاغيون ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي عود إلى التذكير بما هو محور الرحلة ـ كما أسلفنا ـ مع الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة الإسراء المكية أعني به تلك الحقيقة التي هي عين اليقين، كما هو معلوم من الدين بالضرورة، وهي أن القرآن يرشد إلى ما هو الأصوب والأقوم من الطرق والأعدل من السبل: تحسن الإشارة إلى ما علَّل به العلامة البقاعي ذلك فقال: (أما في الصورة: فباعتبار ما علا به من البيان، وأما في الوعود: فباعتبار العموم لجميع الخلق في الدارين. وأما في الأصول: فبتصريف الأمثال وتقريب الوسائل، وحسم مواد الشُّبه وإيضاح وجوه الدلائل. وأما في الفروع: فباعتبار الأحسنية؛ تارة في السهولة والخفة، وتارة في غير ذلك، كما هو واضح عند من تأمل ما بين الأمرين)[2].

---

(١) المصدر السابق: (٥١/٤١).

(٢) انظر «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي: (١١/ ٢٨١).

ونتجاوز إلى صورة من صور هذه الهداية نقع عليها في «التحرير والتنوير» فبعد أن أشار المؤلف ـ كما أثبتنا ذلك فيما سبق ـ إلى أن هذا القرآن قد جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون ولوجه إلى العقول حائل، وأوضح بعضاً من معالم هذا الأسلوب العظيم المتميز قال: (وهذا وصف إجمالي لمعنى هدايته التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفاراً)...

بعد هذا اكتفى بمثال واحد نبَّه عليه بقوله: (وحسبك مثالاً لذلك أساليب القرآن في سد مسالك الشرك، بحيث سلمت هذه الآية في جميع أطوارها من التخليط بين التقديس البشري وبين التمجيد الإلهي؛ فلم تنزل إلى حضيض الشرك بحال؛ فمحلُّ التفضيل هو وسائل الوصول إلى الغاية من الحق لصدق. وليس محل التفضيل تلك الغاية، حتى يقال: إن الحق لا يتفاوت)(١).

وفي خاتمة المطاف: لعل من الخير ـ والأمر يتعلق بحقيقة أن القرآن الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، يهدي الناس إلى ما هو الأصوب والأسد والأعدل في جميع شؤونهم ديناً ودنيا وآخرة ـ اصطحابَ ما نجده عند شهيد من جهابذة الأعلام حيث قال ـ يرحمه الله ـ عند الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الآيتين في أعقاب الحديث عما حملت فواتح السورة من الحديث عن ضلال بني إسرائيل وما عوقبوا به:

«ومن هذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل، وكتابهم الذي آتاه الله لموسى ليهتدوا به فلم يهتدوا؛ بل ضلوا فهلكوا... ينتقل السياق إلى القرآن. القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم:

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾[النحل: ٩-١٠] .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾..

(١) انظر «التحرير والتنوير»: (١٥/ ٤١).

هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان؛ ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء. ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار. ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى؛ ولا تميل مع المودة والشنآن؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض. الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ .. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ فهذه هي قاعدته الأصيلة في العمل والجزاء. فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه. فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان. الأول مبتور لم يبلغ تمامه، والثاني مقطوع لا ركيزة له. وبهما معاً تسير الحياة على التي هي أقوم.. وبهما معاً تتحقق الهداية بهذا القرآن.

فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن، فهم متروكون لهوى الإنسان. الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها شر له:

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾﴾ ..

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها. ولقد يفعل وهو شر، ويعجل به على نفسه وهو لا يدري. أو يدري ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه.. فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادئ الهادي؟ ألا إنهما طريقان مختلفان: «شتان شتان. هدى القرآن وهوى الإنسان!»[1].



(١) «في ظلال القرآن» للشهيد سيد قطب: (٤/ ٢٢١٥).

من ألوان التحديد الفكري.. على طريق البناء

«١»

كان من هداية القرآن في معالمه الخيِّرة: أنه عُني ببناء الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى ـ ووجّهه الوجهة التي تميزه بطريقة استقلالية في التفكير، تضبط ـ فيما تضبط ـ منطلقاته في السلوك وهو يزاول شؤون دينه ودنياه، وعاجل أمره وآجله.

ومن الأصول المنظورة لطريقة التفكير هذه؛ أن على الإنسان أن يعمل في طاعة الله واجتناب مخالفته، آخذاً بالأسباب على صعيد الحركة والبناء، متوكلاً على الله تعالى، وأن يرضى بما يكون من قدر الله بعد استنفاد الطاقة، وبذل ما يمكن بذله على ساحة العمل والإعداد كما أمر الله.

ومن ثمرات ذلك: أن المؤمن إذا أصابته مصيبة نتيجة مساءته وتقصيره، أو تهاونه في الأخذ بأسباب الخير: مطلوب منه أن لا ينسى آثار ما كسبت يداه؛ فلا يحيل الأمر على القدر، هروباً من حمل التبعة والشعور بعدم الالتزام في نطاق المسؤولية والسير مع سنن الله، وتسويغاً للتقصير والتهاون في المخالفة عن أمر الله، بل يراجع نفسَه ويصلح من أمره ما فسد، ويجتهد في الانتفاع بما حصل!.

فالتعلُّل بالقدر، والاستسلام لدواعي الغفلة: أمر مرفوض يجب أن يتنزه عنه سلوك المسلم.

وبذلك يكون هذا المسلم على مستوى التناسق بين العقيدة والتسليم، وبين الأخذ بالأسباب ـ وفق سنن الله في الكون وعلاقة الإنسان به ـ الأمر الذي يصلح معه أمر دينه ودنياه وآخرته؛ في حرص على إتيان ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، ووضعٍ للأمور مواضعها على صعيد النتائج التي ترتبط بالمقدمات.

كل أولئك على نور من الإيمان الكامل، ومن أركانه الإيمان بالقدر: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

وهذا يعني أن البون شاسع بين التوكل والتواكل!!.

وتلك قضية كبرى نجدها في واحدٍ من المعالم القرآنية نُثرت خيوطُه المضيئة، في مواطن عِدَّةٍ من آي الكتاب العزيز.

من ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾[الشورى: ٣٠] .

فبصرف النظر عن الابتلاء الأُنف: مهما أصاب الناس من مصيبة؛ فإنما هي عن سيئات تقدمت لهم مما اجترحت أيديهم، وعفو الله أكبر وأعظم؛ فما يحصل من تلك المصائب يرافقه عفو الله عن كثير من السيئات وعدم المجازاة عليها.

ذلكم هو المحور الذي يستقيم معه البناء وتنمو في ظله طاقات الخير دون تعلُّلات وتأويلات.

وهكذا يبدو واضحاً أن الآية ترمي إلى أن يشعر المؤمن بمسؤوليته شعوراً يدفع بِهِ إلى النهج القويم، وأن التصرفات مهما كان شأنها تترك ما تترك من آثار، وأن لكل شيء وزنَه عند الله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وما يكون من مصيبة مهما عظمت: فبما كسبت الأيدي والصبر عليها صبر الرضا عن الله، وعلى تحمُّل مسؤولية التغيير إلى الأفضل.

والمسلمون ـ في واقعهم اليوم ـ كم تبدو حاجتهم ملحةً، وهم يواجهون التحديات في مختلف الميادين.. كم تبدو حاجتهم ملحةً إلى أن يتخذوا من هذه الآية ـ وكم لها في كتاب الله من نظائر ـ نبراساً ينمي الشعور بالمسؤولية «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»، ويباعد بينهم وبين أن يتخذوا من الإحالة على القدر طريقاً إلى التفلُّت من تبعة ما يحصل وتسويغ ما يكون من تهاونٍ أو تقصير؛ فكل شيء عند الله بحسبان، وحركةُ الحياة لا تنتظر متواكلاً يتعلّل لتقصيره بالأقدار.

ولقد يثير الاهتمام، ويدعو إلى التدبر أكثر وأكثر: أن الآية من سورة مكية، تنزلت حيث المقدماتُ الأوليةُ الأساسيةُ لبناء الحياة الإسلامية بناءً يتميز فيه الإنسان بسلامة التفكير المرتبط بعقيدة التوحيد، ويتميز فيه المجتمع بحوافز العمل المستمر عند أفراده الذين يؤمنون بالقدر: وكلهم لا يتخذون من الإحالة على القدر مسوغاً للتقصير، بل حافزاً إلى التفاؤل والصبر على شاقِّ التغيير.



من ألوان التحديد الفكري.. على طريق البناء

«٢»

نحن اليوم على موعد مع لون آخر من ألوان التحديد لما يجب أن يكون عليه المرشحون للريادة البانية، على صعيد الاقتناع الفكري، وعلى صعيد التطبيق: من عدم التذرع بالقدر، وإحالةِ الأمور بعد الاستهانة والتقصير عليه.

فالإيمان بالقدرِ: شيءٌ، واتخاذ الإحالة عليه مسوِّغاً للقعود عن الجهاد والعمل والأخذ بالأسباب: شيء آخر.

وليس ذلك شأن الأمة التي يُناط بها متابعة البناء الأقوم لحضارة الإنسان، على هدي الرسالة الخاتمة التي جاء بها من عند ربه محمدٌ عليه الصلاة والسلام.

وما ينبغي للمسلم أن يكون كذلك، ولكنه يمتثل أمر الله في الأخذ بالأسباب، وتلمُّس سُبُل الطاعة والعمل والجهاد، ويقابل ما يجيء به القدر بعد ذلك بغاية الطمأنينة والرضى، ولا يعفي نفسه من المسؤولية بحال.

ولقد سُعدنا فيما سبق، بقوله تعالى في سورة الشورى ـ وهي سورة مكية ـ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ حيث الارتباط بين ما يصيب اللهُ من مصيبة، وبين ما كسبت أيدي الناس، والكشفُ أنَّ ما يفعو الله عنه من السيئات فلا يجازي عليه: قَدْرٌ كبير.

فأين هذا من الهروب من التبعة والتعلّل بالقدر؟! إنه وضعٌ للأمور في غير مسارها الطبيعي إذ إن الإيمان بالقدر أيضاً ـ وهو ركن من أركان الإيمان ـ شيء، والانحراف بذلك ليكون مسوِّغاً للقعود عن الجهاد والعمل والأخذ بأسباب التغيير إلى ما هو أفضل، وكل ما فيه بناء القوة الذاتية في ظل حمل المسؤولية على الوجه الذي ينبغي؛ والصبر على مقتضيات ذلك: شيء آخر.

يقول الله تعالى في سورة القصص ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ: ﴿وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[القصص: ٤٧] .

تشير الآية إلى أن الله تعالى أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق يخاطب في الإنسان فطرته وعقله وقلبه، كيما يقيم الحجة على الكافرين، ولينقطع عذرهم إذا حلَّت بهم مصيبة من الله بكفرهم وعنادهم، فلا يكون لهم أن يحتجوا بأنه لم يأتهم رسولٌ ولا نذيرٌ.

فالواقع أن حجتهم داحضة، لأن الله تعالى لم يصبهم بالعذاب ابتداءً دونما إنذارٍ وبيانٍ، والرسولُ الذي بُعث فيهم هو من أنفسهم وخاطبهم بلسانهم. ولقد تكرر ذلك في القرآن الكريم تحديداً للمنطلقات الإيمانية الفاعلة على طريق الإنسانية، وقطعاً لدابر التعلّلات التي تعوق عملية البناء التي تهدف إليها رسالة السماء.

وذلك كما يقول الله تعالى في سورة الأنعام بدءاً من الآية الخامسة والخمسين بعد المائة: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [المائدة: ١٥٥-١٥٧].

دعاهم إلى الإيمان والعمل، وقطعَ الطريق دون الهروب ممن الواجب والصبر على ما يقتضيه القيام به.

أجل دعاهم إلى عدم الوقوع في ذلك تذرعاً بالتعلُّلات التي يمليها الخنوع، والأباطيل التي يزيِّنها الهوى وشياطين الإنس والجن؛ فلا أحد أظلم ممّن كذَّب بآيات الله ومال منحرفاً عنها. وسيلقى هؤلاء المتسربلون هذا الثوب المناهض للحق، أشد العذاب بما كانوا يصدفون.

ومثل ذلك قوله جل ثناؤه في الآية الخامسة والستين بعد المائة من سورة النساء: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴿١٦٥﴾﴾[النساء: ١٦٥].

وفي خطاب لأهل الكتاب جاء قوله تعالى في الآية التاسعة عشرة من سورة المائدة، السورة المدنية التي هي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾[المائدة: ١٩] .

والرسول المقصود في الآية هو محمد عليه الصلاة والسلام، وقد جاء يبين لهم على فترة من الرسل كما يعلمون ذلك حق العلم، ولكنهم يفترون على الله الكذب، والذي يعرفونه من ذلك في كتبهم هم له منكرون.

وبعد: فإن من أسوأ ما يصيب الأمة الإسلامية وهي تتحفز ـ ممثلة في أهل الصلاح والإصلاح من أبنائها ـ لاستئناف مسيرتها الخيرة التي صنعت الحضارة الربانية وأملت كلمة الحق على التاريخ، وتواجهُ بسبب هذه الرغبة ما تواجه من المصاعب والمشكلات.. إن من أسوأ ما يصيبها أو أصابها في بعض الحالات: هو انصرافها عن استجماع قدرتها الذاتية ذات المنابع الأصيلة في عقيدتها وشريعتها، ووقوعها في محاولة بلهاء لقطع النكبات والمصائب عن زمرة من أسبابها المتعلقة بها مباشرة، متذرعة بما ينفي التهاون أو الوقوع فيما كان من الأسباب الجوهرية للمصاب الجلل، وهو إحالة الأمر على الأقدار وكفى.

علماً بأن الإيمان بالقدر ـ كما جرت الإشارة غير مرة ـ لا يعني التهاون بخطاب التكليف، ومحاولة التفلّت من المسؤولية، والانصراف عن النظر في مقدار التواؤم مع سنن الله في الكون وعدمه.

لذا كانت المحاولة الجدية في استئناف المسيرة: لا بد أن تحظى ـ مع العلم بالواقع وما بيّته الأعداء، وما يدبرون من مكائد، وما يوقدون من حروب ـ بكثيرٍ من وضع الأمور مواضعها، وإبدال النواح، والتذرع بالقدر: بالشجاعة في النقد الذاتي والعودة الصادقة إلى منابع القوة والحياة كما هي في شرعة هذا الدين.

والمعلم القرآني واضح في ذلك كل الوضوح: يوحي بأن مسؤولية استئناف البناء الخيِّر لا بد أن يصحبها ـ مع مراقبة اللّه ـ الشعور الصادق بالمسؤولية بين يديه سبحانه أولاً ثم أمام التاريخ وأجيال الأمة جيلاً بعد جيل.



النقد الذاتي.. والبناء

«١»

رأينا فيما سبق من القول، خطاب القرآن لأهل الكتاب في سورة المائدة بما قطع عليهم العذر، وأبان لهم أن لا حجة لهم في أن يتنكبوا طريق الإيمان بعد أن جاء محمد ﷺ برسالته العامة لكل الناس من عند ربه ودعاهم إلى الإسلام.

فلا عذر لهم بأن يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءهم محمد ﷺ بشيراً ونذيراً بيَّن لهم على فترة من الرسل ـ بين يدي الساعة ـ إذ كان بينه وبين عيسى عليه السلام قرابةُ ستة قرون.

وإذا حلَّت بهم مصيبة العذاب: فلا حجة لهم في استنكارها والله على كل شيء قدير.

ومن قدرته تعذيبهم إذا لم يتبعوا محمداً عليه الصلاة والسلام المبشَّر به في كتبهم والذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وقد أقام عليهم الحجة، وأوضح المحجة بكتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٩﴾ [المائدة: ١٩].

ومن حِكَمِ الله البالغة أنه أخذ المؤمنين ـ وهم يتحركون على أرض البناء في ميادين الحياة جميعاً ـ بلغةِ الجزم في هذه القضية، قضية أن يستذكر المؤمن خطأه إذا أخطأ، ليعود عنه، ويتجه وجهة الصواب، بعيداً عن أي لون من ألوان التفلُّت من مسؤولية ما قد يكون وقع على طريق الحركة والعمل؛ أخذهم بهذه اللغة، وهم لا يَفْتُرون عن أخذ أنفسهم بعزائم الاستقامة والجهاد وصدق ما عاهدوا الله عليه.

ولكن التسديد إلى الصواب إن وقع الخطأ: هو من رحمة الله بهذه الأمة وتربيتها على إيلاف النقد الذاتي البناء والشجاعة في الانصياع للحق.

وبمقدار المسؤولية الملقاة على العواتق: تكون المؤاخذة، كيما يسلم للبناء إحكامه واستمراره قوياً معافى، وكي تسلم له قدرتُه على النماء.

وكيما تظل الأمة كفاء رسالة تبني حضارة الإنسان المثلى، وتأخذ بيد هذا الإنسان ـ في كل زمان ومكان ـ إلى ما فيه تحقيق إنسانيته وكرامته وسعادته في الدنيا والآخرة.

فبعد معركة أحد وقد حصل ما حصل من مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ، واستشهاد سبعين رجلاً من الصحابة الكرام، فيهم حمزة رضي الله عنه، جاء الرد على من استغرب ما وقع من المصيبة في عدد القتلى، فقال تعالى في الآية الخامسة والستين بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾[آل عمران: ١٦٥].

نعم: المصيبة كل المصيبة في نظرهم: هي هذا العدد الهائل من القتلى، وقد أصابوا مثليها في بدر حيث قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون. وقوله تعالى: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾: إشارة إلى استغرابهم وتساؤلهم من أين جرى عليهم هذا؟ فكان الجواب: قل يا محمدُ هو من عند أنفسكم أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حيث أمركم أن لا تبرحوا مكانكم، فعصيتم، يعني بذلك من خالف من الرماة.

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقِّب لحكمه.

وفي ذلك إشارة إلى سنته الماضية في المؤاخذة، ورد المؤمنين إلى الطريق التي تتفق مع الإيمان والعمل والجهاد.

هكذا ربطت الآية الكريمة بين المصاب الفادح في أُحُدٍ، وبين ما وقع من المخالفة: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، وبذلك أفاد الصحابة دراً عظيماً في رحلتهم مع الإسلام أداءً لرسالته في أنفسهم وفي مجتمعهم، وعلى الصعيد الإنساني.

فالمؤمن صاحب رسالة هي الحق من عند الله، وهو ـ سبحانه ـ قادرٌ على نصرهم ولو خالفوا، ولكنها سُنته في الأخذ بالأسباب.

والنقد الذاتي تسديداً وتصويباً، وبعداً عن التماس المعاذير والمسوّغات: عامل أساسي من عوامل القدرة على مواصلة المسيرة.

وبذلك تنمو الطاقات الفاعلة ولا يتكرر الخطأ الذي يؤذن بالضعف والانهزام والذي يترتب عليه ما يترتب من سيء الآثار.



النقد الذاتي... والبناء

«٢»

جرت الإشارة فيما سلف من قريبٍ إلى ما أُخذ به الصحابة رضي الله عنهم ردأ على استغرابهم مّما جرى في غزوة أُحدٍ من قتل الكفار سبعين من المسلمين في مقدمتهم حمزة رضي الله عنهم أجمعين، حيث ردتهم الآية الكريمة إلى ساحة اليقظة الإيمانية، وأن يكونوا على إلفٍ للنقد الذاتي، والاتجاه السليم إلى تصويب ما يكون قد وقع من خطأ في التخطيط أو التنفيذ على ساحة الطاعة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام.

فالذي أصابهم من غلبة المشركين في المرحلة الثانية من المعركة بعد أن كانت المرحلة الأولى ـ أو الجولة الأولى منها ـ لهم لا عليهم.. إنما كان بسبب مغادرة الرماة الجبل الذي أمروا بأن يظلوا عليه ولو تخطفتهم الطير، حيث خالفوا عن أمر رسول الله ﷺ أولاً، وعن أمر قادتهم المباشر ثانياً: فما أصابهم هو من عند أنفسهم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾[آل عمران: ١٦٥].

والمؤاخذة ـ وإن كانت في الأصل للرماة ـ ولكن الجماعة كلها خوطبت بذلك: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ إيذاناً بأن الجماعة مسؤولة عن التماس الصواب من القول والعمل دائماً، وملاحظة ما يكون من ثغرات ليقضى عليها، وفائدة الأمة من دروس الحركة عند الجيل الفريد ـ عليهم الرضوان ـ باقية إلى قيام الساعة.

والذي ما بدّ من الإشارة إليه: أن في هذه المؤاخذة الربانية، تكريماً لأولئك الذين وجّه إليهم الخطاب؛ لأن قضية من هذا النوع قد تتكرر على طريق المسلمين الصاعدة المثقلة بالواجبات والتحديات والمفاجآت أحياناً، وهم يؤدون أمانة التمكين لخاتمةِ الرسالات.

وتسديدهم ـ رضي الله عنهم ـ وهم حملة الدين الأمناء إلى الأمة ـ دليل على أنهم أهل لمتابعة المسيرة في إنشاء المجتمع المسلم والدولة المسلمة، ودرء الأخطار عنهما، وتعبيد الطريق لدعوة الله بالجهاد بالأموال والأنفس، ناهيك عن طاعة الله في امتثال الأوامر واجتناب المناهي وكلٌ ما يمت إلى ذلك بصلة.

وليس من نافلة القول التنبيهُ على أن المعلم القرآني يأخذ بيد المسلمين إلى تبيُّن أن ما أوضحته الآية من الكشف عن العلاقة العضوية بين مصاب المسلمين في أحد، وبين الخطى: يسير على قاعدة نورانية تتصل اتصالاً وثيقاً بطبيعة الرسالة الخاتمة.

فقد سبقت الآية التي جرى ذكرها في صدر هذه الكلمات، بقوله تعالى في الآية الرابعة والستين بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران: ١٦٤].

إن ما بُعث به رسول الله ﷺ، فأخرجَ بهداه الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال المبين، إلى الهداية الشاملة للفرد والجماعة: يتنافى كل التنافي، مع التهاون في الأخذ بالأسباب المشروعة كافةً قدر المستطاع، وملاحظة سنن الله التي لا تتبدّل في هذا الكون، ناهيك عن تجاهل ذلك إن وقع، ثم محاولة التعلل لما حصل من آثاره بالمعاذير التي لا تقوم عليها حجة، والإحالة على القدر عند الكارثة والمصاب.

ألا وإن واقع الصحابة عليهم الرحمة والرضوان في أُحد ـ وهم يركضون خيلهم على أرض المعركة ـ مؤشر على طريق الأمة، يتجاوز حدود الزمان والمكان. وظاهرة الوعي عند أمتنا اليوم، أن تتفاعل مع هذه القضية وأمثالها بما كان لها من أسباب ونتائج، وما جرى في شأنها من تصويب وتسديد.. أن تتفاعل مع هذه القضية وأمثالها، تفاعلاً يبعث على سلامة التهيج، والقدرة على البذل والعطاء، كيما تكون قادرة على توظيف ذلك في منهج الثقافة والتفكير، ومسالك العمل.

وإنها لضرورة تُلزِم بها طبيعةُ المواجهة والنظرةُ الواعية إلى حقيقة المعركة مع النفس، ومع العدو الخارجي.

كما تُلزم بها ضرورة الحرص على سلامة المنطلقات عند البناء، وإعدادِ الطاقات البشرية الفاعلة، لتأخذ حيزها الطبيعي في توظيف الطاقات الأخرى جميعاً بمنهجية وعناية ومعرفة بالواقع الإقليمي والعالمي.

وتنميةُ الإحساس بالمسؤولية في ضوء هذا الذي يقرره المعلم القرآني، والإفساحُ للنقد الذاتي والشجاعة في القيام به وقبوله دون حرج، كيما يعمل عمله في تقويم المسيرة ووضع الأمور مواضعها دون مواربة أو مداهنة، أو دفاع عن النفس تحت ستار ادعاء الصواب دائماً فيما حصل ويحصل!!

كل أولئك من الروافد الأساسية التي تبشر بالخير، وتؤذن بصلاحية الحركة المنتجة والاستمرار المكين!

أما العدول عن ذلك ـ لا سمح اللّه ـ كما هو واقع في بعض المجالات والساحات التي لا تخفى، والتي ذاقت الأمة منها الصاب والعلقم: فهو عنوان على الغفلة أو التغافل عن طبيعة الرسالة التي يتحرك تحت رايتها المسلم، والجهل بطبيعة المرحلة أو تجاهلها غباءً وسوء تقدير.

وكل أولئك نذير الجفوة لما دل عليه المعلم القرآني الذي حوله ندندن ونظائره كثيرة في كتاب اللّه الكريم.

والخير كلُّ الخير في أن يُنعم الرواد النظرَ المتدبر مرات ومرات في تلكم القضية وأمثالها، ابتغاء أن تأخذ حجمها الطبيعي في ثقافة المسلم التي تنعكس على التصرفات والسلوك، وفي منهج التفكير والتخطيط، بَلْهَ التنفيذ.

وكيما تعطي عطاءها الشامل المتنوع، فتغني، رحلة البناء المنشود، بكثيرٍ طيب يجعلها تفيد من الوقائع، والطاقات جميعاً، والتخصصات كافة، بل ومن تجارب الآخرين، واللّه ولي التوفيق.

سنة الله... والبناء

كان مما أشرنا إليه في كلام سبق أن قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ قد سُبق بقوله جل شأنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

الأمر الذي يدل على وثاقة الصلة بين ما هدت إليه الآية الأولى من وجوب أن يراجع المؤمنون رصيدهم من العمل، ويتفحصوا الثغرات التي دخلت منها تلك المصيبة يوم أُحد، وبين طبيعة الرسالة التي شرفوا بأخذها عن النبي عليه الصلاة والسلام، حيث كانت المنة العظيمة على المؤمنين إذ بعث الله فيهم رسولاً من أنفسهم يعلم ما هم فيه، وما ينبغي أن يكونوا عليه، وينطق بلغتهم التي ينطقون وهو من ذؤابة الشرف فيهم: يتلو عليهم الآيات البينات وهي القرآن الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدنه سبحانه، ويزكيهم فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، بعد أن يتخلوا عن عبادة الأوثان، وأوضار الجاهلية، لتسموَ أنفسهم، وتطهر من الدنس والخبث والخضوع للخرافة والكهانة مما كانوا متلبسين به ـ أو ببعضه ـ في حال شركهم وجاهليتهم.

وكذلك يعلمهم ـ مع التلاوة ـ الكتاب والحكمة وهما القرآن والسنة. وإن كانوا من قبلِ هذا لفي ضلال مبين.

والضلال المبين عن نفسه؛ هو ما كانوا عليه من شرك وجاهلية، وتقليد أعمى للآباء والأجداد ـ على ما كانوا عليه ـ وخضوع لسلطان الكهانة والخرافة، وتعطيل لعمل العقل، وما يجب من حسن استخدامه فيما ينفع ويُجدي؛ وذلك

ماجنى على المجتمعات يومها وجعلها تئن من تناقضات عجيبة، وتقطيع لأوصال الوحدة بين القلوب والنفوس، وجعل أتفه الأسباب يعمل عمله في إذكاء الحرب والفرقة والشتات!!

ولم يعد خافياً على ذي لب منصف: أن الهداية كلَّ الهداية هي ما جاء به رسول الله ﷺ من الحق الأبلج الذي لا شية فيه، وهي الهداية القمينة بأن تنقذ الفرد من الوهدة، فتخرجه من الكفر والعماية والجهالة، وتزيل الغشاوة عن طاقاته المعطَّلة أو المسيَّرة في غير القنوات الطبيعية المنتجة، وتعيده إلى ساحة الفطرة التي هي الوضع الطبيعي الملائم الملاءمة كلها لإنسانية الإنسان.

كما تسلك بالمجتمع سبيل الإحكام في ضوء البناء الحق، والبعد عن أسباب الضعف والانحلال، فتقيمه على أساس راسخ من عقيدة التوحيد، وترتفع به إلى مستوى الحركة الخيِّرة الدائبة المنتظمة، التي تعود بالنفع المؤكد ـ بمشيئة الله ـ على الفرد والجماعة والأمة.

وهذا كله يقتضي وزن الأمور دائماً بميزان الهدى الرباني في الكتاب والسنة، ومن المخالفة عن سنن الله في الكون، وفيما أراد ـ جل شأنه ـ من علاقة الإنسان بالكون والحياة، والحرص على العمل الصالح ـ على سعة هذا الوصف الذي يشمل التصرفات المشروعة كافة ـ والجهاد بألوانه المتعددة، من جهاد النفس، وجهاد العدو الخارجي المبني على إعداد القوة المأمور بها على الوجه الذي ينبغي، والمراعى فيه مراحل التطور العلمي، والأعراف المسيطرة على السلم والحرب.

ومما يقتضيه ذلك أيضاً: التماسُ الأمور من مواردها الطبيعية، والحرص على سلامة الذاكرة من أجل الانتفاع بالأحداث والوقائع الماضي منها والحاضر، والاهتمامُ العلمي المنهجي بربط النتائج بالمقدمات، وعدم التهاون أو اللجوء إلى التعللات والتأويلات!

غير أن تكامل البنية عند المؤمن في طريقة التفكير: ضرورة ملحة دائماً، لما أن ذلك ينعكس على العمل.

من هنا كان انسجام العمل مع الفكر: ذا أهمية تقتضينا أن نكون على يقظة وتنبُّه دائمين إلى أن فعل القدر ليس في غيبة عما يجري، ولكن هذا لا يعني المخالفة عن طاعة الله بالأخذ بالأسباب، في تساوق مع سنن الله تعالى في خلقه، ومحاولة تسويغ ما يخلّفه ذلك من المتاعب بالتعلل بالأقدار!!

وفي عود إلى ما كنا بسبيله فيما العهد به قريب من القول، وذلك بالكشف عن ارتباط الآيتين المشار إليهما في صدر هذا الحديث، بما حصل يوم أُحد: نرى أن قول الله جلَّ شأنه: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ قد وليَه ما يذكّر بقضاء الله وقدره، مع ضرورة الأخذ بأسباب القوة والمنعة، والبعد عن كل مسلك يشعر بمخالفة العمل العقيدة، صنيعَ المنهج الذي يسلكه المنافقون!! وأن من حكمة الله فيما جرى يوم أُحد: الكشف عن صَنيع أولئك المنافقين مرضى القلوب المذبذبين، وعن صنيع المؤمنين الصادقين الذين تقاطروا بعد الجولة الثانية في أُحد ـ وما كان من الشدة الشادة فيها ـ على رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكانت الجولة الأخيرة لهم ـ والحمد لله ـ بعد أن اشتهد سبعة من إخوانه صلى الله عليه وسلم وبارك بين يديه.

ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾[آل عمران: ١٦٥-١٦٦-١٦٧].

هكذا تشير الآية إلى خيانة رأس المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول عندما انحاز بثلث الناس وهم في الشروط بين المدينة وأُحد، وقال عن رسول الله ﷺ: أطاعهم ـ يعني من حرص على الخروج إلى ظاهر المدينة ـ وعصاني، والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس، فرجع بمن تبعه من الناس من قومه أهل النفاق والريب.

وأين هذا من ثبات المؤمنين المجاهدين الذين يصدقون ما عاهدوا الله عليه؟!

وكأني بهذه الواقعة - بشعبها ومتعلقاتها - غضة طرية اليوم تعلن عن المؤشرات على الطريق التي يجب أن تسلكها الأمة؛ إحكامَ بناء على العقيدة، وتميزاً في طريقة التفكير، وتنقية للصفِّ من ألاعيب المثبطين المخذلين.



اللغة المناسبة.. والبناء

حين ندع الوقائع تكلم وتفصح عن نفسها ـ علماً بأن الوقائع لا تعرف اللحن ـ، ونعي تذكرتها بإذن واعية: تكون المسافة بيننا وبين الحقيقة المبتغاة، أن نريد أو لا نريد.

وبين الأمة اليوم وهي تفتح أعينها على ما مرَّ ويمرُّ بها من كوارث، وتستيقظ على مطارق الأذى بعد غفوة طالت عنها الأحاديث، وتنوعت في تعليلها الاجتهادات، وتفجؤها كل ساعة من ساعات الليل والنهار، ألوان من التحديات... أقول: بينها وبين أن تخالط الحقيقةُ الإسلاميةُ فيما يجب أن تسلكه مرحلياً ليوم غد من طرائق البناء المكافيء، وإنماءِ قدرتها الذاتية على المواجهة.. أن تريد أو لا تريد!!

أن تريد، فتعزم أمرها، وتستكمل العدة بكل شعبها وميادينها ومالها من مقومات، وتخاطب الدنيا باللغة المناسبة كما فعل سلفها الصالح المجاهد، أو لا تريد ــ لا سمح الله ـ فتستبدلَ الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتتخبَّط في ظلمات الحيرة، والترقيع الأبله المستهتر، فتنهيَ تجربة هالكة من هنا، لتبدأ تجربة أهلك وأعتى من هناك، كالذي هو جار في بعض أقطارها ومجتمعاتها، وهكذا دواليك!!

وإذن: لا بد من مراجعة الرصيد في القلب والعقل بشجاعة، واستنطاق الوقائع كي تعمل عملها مع النصوص على صعيدي التصور والتطبيق، وكيما تتجاوز الأيدي التي تمسك فكرياً وبأمانة ويقين، مقود الدعوة إلى الخير: واقعاً مشحوناً في كثير من جوانبه بالغفلة عن حقيقة الوجود الذاتي للأمة، إلى واقع تنشئه على قاعدة من اليقين بوعيد الله وموعوده، والنظرات الشاملة التي لا تغادر المنطلقات الأساسية والثوابت التي لا تعود ولا تعوزها الذاكرة التي تعي،

ولا تفتقد اصطحاب سنن الله في التنهيج والتنفيذ، عسى أن توفق لقيادة هذا الواقع بكلمة الله كيما تضع حداً للاغترار بالزخرف الوافد، وتحرر الخوالف من سجن التبعية البغيضة التي مُنيت بها الأمة في كثير من بقاعها، ومناحي وجودها الثقافي والتشريعي والسلوكي.

ولنقرأ في ذلك هذه التوجيهات الربانية التي تشرق بها سورة الأنفال، تلك السورة التي تنزلت في خضم الحركة الدائبة في السنوات الأولى من العهد المدني؛ حيث نور الجهاد، وسلطان الكلمة الهادية، وقوة البيان النبوي؛ فتراها تثبّت، وتسدّد!! أجل تثبت على الحق، وتسدّد ما كان غير صواب، وتنمّي في النفوس ارتباط الجهاد والعمل ـ على اختلاف الصنوف والميادين ـ بعقيدة التوحيد؛ نعم تنمي هذا الارتباط، وتجعل منه محوراً يصحب تلك الخلايا التي تضج بتلك الحركة التي لا تتوقف في مزاولة البناء شوطاً بعد شوط، سعياً إلى تحقيق الهدف الذي لم يعد قصيّاً على أنقاض الجاهلية، وإنه للبناء الذي استكمل شرائطه في ظل منطلقاته الخيِّرة التي لا تفتأ عنايةً بالفرد والمجتمع دونما تضييق أو انحسار!

ذلكم قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية السادسة والعشرين: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٦-٢٩].

هكذا تذكّر الآيات المسلمين بما كانوا عليه قبل أن يكرمهم الله بالإسلام والنُّقلة إليه من الجاهلية، حيث الضعف والفرقة والأوضاع المتردية، نتيجة أعراف لا تسمن ولا تغني من جوع تطوّف حول الوثنية والأوثان؛ كيف خطت بهم العقيدة خطواتها الفسيحة على صعيد البناء الذاتي، وعلى صعيد علاقتهم بالآخرين.

ثم ما الذي يجب أن يتنبهوا إليه كيلا تتحوَّل عوامل الحركة والنمو الطبيعي، إلى مظاهر تعني الإخلاد إلى الراحة والخنوع، وما الذي يجب أن يصنعوه كيما يستمر العطاء، ويتابعوا ـ وهم يحملون الرسالة الخاتمة بكل ما لها من عظمة وثقل ـ رحلة البناء والنماء على طريق الإنسانية الطويل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

ألا إن هذا المعلم القرآن جدير بأن يثير في الأمة كوامن الحركة الفاعلة، وقابلية الامتداد الطبيعي ـ ضمن الظروف والمتغيرات ـ لوجود من شهدوا متنزَّل هذه الآيات وكثيراً من نظائرها، وخاضوا على نورها معارك التغيير إلى ما هو أفضل، لا لجزيرة العرب فحسب، ولكن للإنسانية جمعاء، وكانوا الفئة الوحيدة في العالم التي نافحت عن عقيدة التوحيد وعملت على نشرها في العالمين، وكم وفر ذلك للإنسانية من خير!!

ولعل هذا بعضٌ مما يستوحيه المرء من قول النبي ﷺ في أولئك الأبطال الذين شهدوا بدراً باذلين مضحِّين كما روى البخاري وغيره من حديث علي رضي الله عنه: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».



الحقائق الإسلامية.. والبناء والجيل الفريد

«١»

في حديث موصول بما جرت الإشارة إليه من قبل في شأن المسافة بين الأمة وبين مخالطة الحقائق الإسلامية كما هي في منابعها الأصيلة، على الوجه الذي يتحقق معه الوجود الذاتي لها، حيث تخطو الخطوات الثابتة المكينة على طريق التكامل في استئناف الحياة الإسلامية طاعةً للّه عز وجل.

وعلى هدي ما أشرق به المعلم القرآني من خلال آيات مباركات من سورة «الأنفال» ختمت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

في حديث موصول بذلك: أود التذكير بحقيقة أن الوقائع عبر تاريخنا الطويل بدءاً من عصر البعثة وحتى يوم الناس هذا: تفصح بأجلى بيان وتؤكد أعظم توكيد صدق أنه لا يصلح آخر أمتنا إلا بما صلح به أولُها.

واللّه تبارك وتعالى يقول في سورة محمد ﷺ بصيغة جازمة لا تحتمل اللَّبسَ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾[محمد: ٣٨].

والقضية الجذرية في الموضوع: أن الوقائع المشار إليها كانت ـ وهي تترجم الموالاة للّه، ورسوله والمؤمنين ـ في قوامها وبنيتها وجوداً عملياً لما هدت إليه معالم الكتاب العزيز، وبَيَّنهُ رسول اللّه ﷺ بسنته القولية والفعلية خير بيان!!

وإنه لوجود حيٌّ تبصره في القيم التي تحكم المجتمع، كما تبصره في ميدان الثقافة والتكوين لخلاياه، وفي كل ميدان من الميادين التي تتكامل فيها بنية هذا المجتمع؛ ما كان من ذلك على صعيد العقيدة، أو التشريع، أو القدرة على سلامة

التوجيه للحركات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكل ما من شأنه حدوث التفاعل الحقيقي بين الإنسان المكلَّف ذكراً كان أو أنثى، وبين الإسلام في منابعه الأصيلة الخيِّرة.

وكان من دلالة ذلك: صلاحية شريعة القرآن لأن تنشىء الواقع الإسلامي في أعقاب الواقع الجاهلي، وتقوده نحو القوة والتمكين الحضاري في شؤونه المادية والمعنوية كافة، وترقى به إلى تحقيق الإفادة من تسخير الكون للإنسان كما ينبغي، وذلك على يد هذا الإنسان الذي خالطت قلبَه بشاشةُ عقيدة التوحيد، وحوَّل عطاءها في دنيا البناء ـ بكل ميادينه ومضامينه ـ إلى وجود حيٍّ متحرِّك، يغذيه بعمله المخلص، وجهاده الذي يستعلي على الأهداف الشخصية الذاتية، وفكره المستنير الذي ينأى أن يُعوزه التناقض والفوضى، ولا ينأى عن اصطحاب الخلق الكريم.

وهذا ما جعل الطاقات تروح وتغدو مع الحياة في كل بُعد من الأبعاد الحضارية المتألقة بالإيمان، والحرص على كرامة الإنسان وحرية الإنسان، وتخالط كل واحدة من صور علاقة هذا المخلوق المكرم عند الله بالكون والحياة! ولا تسل عما يصحب هذا المدُّ العظيم من فاعلية ونماء على الأصعدة كافة!!

وذلك ما يشير إليه واحد من المعالم القرآنية، حيث تكشف الكلمات الهاديات في سورة «الفتح» عن الخير المتنامي الذي يشغله على ساحة الفكر والعمل المخلص، أولئك الذين أسلموا وجوههم لله مع النبي عليه الصلاة والسلام؛ فقد آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وأحبوه أكثر مما يحبون أنفسهم، وانصاعوا لما ربّاهم عليه من الانصباغ بالدعوة اعتقاداً وسلوكاً وبذلاً تحت رايتها الغلاّبة؛ فكانوا عنوان صدق هذه الدعوة وصلاحيتها المطلقة لبناء حضارة الإنسان التي تكرم الإنسان المعتز بالعبودية لله، لا الحضارة التي تسير بالإنسان إلى حيث يكاد يعبد سيطرتها وسلطانها على ظهر هذا الكوكب باسم تقدير العلم واحترام قيم العلم!!

وليس من نافلة القول التذكير بما صنعت تلك الدعوة في نفوس أولئك البررة العظام من تنمية فاعلية العطاء في نفوسهم المؤمنة، أياً كان جنس المؤمن أو لونه، أو لسانه وموطنه.

أرأيت إلى ما جاء في سورة «الفتح» نفسها في شأن ذلك الجيل الفريد الذي كان هؤلاء الصحابة عليهم الرحمة والرضوان لبناته المباركة.. الجيل الذي حمل دين الإسلام وإرث النبوة إلى أمة الإسلام قاصيها ودانيها بأمانة ومعرفة وإخلاص؟

إنه قول الله تبارك في ختامها: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ [الفتح: ٢٠].

تلكم هي بعض الخطوط العامة والسمات الأصيلة لهذا المنهج الذي على هديه خاض هؤلاء الأعلام النبلاء ـ على صورة فريدة في عالم الإنسان ـ معارك الحق في مواجهة الباطل وأهله، والذي ما تزال الوقائع تلو الوقائع تعلن إعلانها، مؤكدةً أنه لا يصلح للبشرية جمعاء غيره، وقد أفصح عما يجب أن تكون عليه علاقة المؤمنين بعضهم ببعض، وعلاقتهم بالآخرين ـ وكانوا بحمد الله وقّافين عند هذا الواجب، أذلةً على المؤمنين أعزَّة على الكافرين، وفي سلوكهم من سلامة العلاقة بمولاهم عز وجل واستنارتها بالدأب على الطاعة المبتغى بها رضوانه: ما يضمن قدرتهم فرداً وجماعةً على متابعة عملية البناء الفريدة في ظل المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية.

والحق أنه ـ كما أثبتت الأحداث والوقائع عبر التاريخ وتثبت ـ ما بدٌّ من أن يقوم بناء المسلم على تنمية علاقته الإيمانية الخاشعة بمولاه عزوجل، كيما يكون قادراً على أخذ نفسه بالنهج الأقوم في علاقته بإخوانه، وغير إخوانه ممن يقضون ـ أبداً ـ على خط المواجهة ـ ولكن بكثيرٍ من الحصافة وحسن التأني ومعرفة الواقع!

ألم تر كيف بدأ الكلام بتقرير أن محمداً ﷺ رسول اللّه، ثم ثُني على ذلك بالكلام على الصحب الكرام وما هم عليه في العلاقة المومى إليها، ثم ما كانت تشرق به حياتهم ليلها ونهارها من طاعة اللّه والتذلل بين يديه: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح: ٢٩].



الحقائق الإسلامية.. والبناء والجيل الفريد

«٢»

مـرة أخـرى نعـود ـ بعـون اللّه ـ إلى اصطحـاب خـاتمة سـورة «الفـتح» الآية التاسعة والعشرين منها وهي قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ [الفتح ٢٩].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه الآية التي ختمت بها سورة الفتح: قد سبقت في أعقاب البيان لحقيقة أن اللّه تعالى قد صدق رسوله ﷺ رؤيا دخوله مع المسلمين المسجد الحرام إن شاء اللّه بقوله جلَّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)﴾ [الفتح ٢٨].

والعهد قريب بذكر بعضٍ مما تعطيه الآية المبدوء بها صدر هذا الحديث التي أسعدتنا بإيراد بعض من صفات ذلك الجيل الفريد الذي عُبِّر عنه بقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الآية، حيث كان من الحكمة البالغة تقرير الرسالة لمحمد ﷺ ثم الإتيان على بعض من مـآثرهم العظيمة التي هي من عطاء اللّه وفضله، ودليل أهليتهم الإيمانية بحمد اللّه لهذا الإكرام، وهم معه ﷺ بالإيمان والنصرة والمحبة والولاء واتباع النور الذي أنزل معه.

هكذا تكشف الكلمات الهاديات عمَّا لهم ـ رضي اللّه عنهم ـ من منزلة رفيعة عند اللّه الكريم المنان، بما كانوا عليه من الإيمان والمحبة، والعمل المقترن بالإخلاص، والصدق في المواطن جهاداً وبذلاً في سبيل اللّه.

ولا عليَّ أن أقول مع أولي الألباب أهل التحقيق، بأن هذا الذي اتسم به هؤلاء البررة الأخيار الأطهار ـ ومثله كثير من مآثرهم ـ: برهان القدرة الحقيقية للإسلام على أن يبني الإنسان الذي يصدر في تصرفاته كافة ـ ما كان من ذلك تعاملاً مع الله تبارك وتعالى، أو تعاملاً مع إخوانه والآخرين ـ يصدر عن عقيدته التي قوامها الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» مؤمناً بأن ذلك كله بعض من حقها.

وترى هذا الإنسان الذي صفا قلبه واستنار عقله وزكت نفسه: يتعامل مع حركة الحياة بذاتية وأصالة. وأعدى أعداء نهجه في التفكير: أن يكون طُعمة لتقليد من ران على قلوبهم ضلال الكفر، وغشيت سمعهم وأبصارهم غشاوة الباطل والمبطلين.

وما أعظمها أهليةً لرفع قواعد البناء التي لا بد أن تتوافر للمجتمع المسلم، المجتمعِ الذي يفترض أن لا يعوز بنيةً من بناه: ما يدل على صدق الانتماء الواعي إلى الحنيفية السمحة في هذا الوجود، والأخذ بأسباب التطبيق العملي لهذا المفهوم، في إطار صيغة متوائمة متناسقة الأبعاد، لا تهمل جانباً لحساب جانب آخر في نور المنهج الرباني القويم، الأمر الذي يجعل تلك الحركة البانية ـ بكل شعبها ـ عملاً أخروياً إذا توافر الإخلاص بصدق النيات!!

وإذن: فمن خلال الإدراك لطبيعة الرسالة الإسلامية، وأنها منهج حياة لا يُغفل ولا يُهمل: يمكن تصوُّر العبث العابث الذي يراد للإنسان ـ من قبل جِهات خالية الوفاض من الاستسلام لمراد الله، ولا ترجو له سبحانه وقاراً ـ: أن يسقط في حمأته، ليخرج باسم العقل والتعقل والتنوُّر من حيز الوحي المتلوِّ وهو النص القرآني والوحي غير المتلو وهو ما ثبت في السنة النبوية.. إلى توجه يحمل الرغبة العارمة في تغطية حركة الحياة في شؤون الفرد والمجتمع والأمة، على صورة يقدَّم فيها العقل الذي توضع إمكاناته في غير موضعها: على النص، في الوقت الذي لا يُدرى فيه إذا ما كان العقل المراد تقديمه على النص، عقل فلان أو علاّن، إلا أن يكون فعل صاحب تلك الدعوة وكفى!!

وبذلك تتحول هذه النعمة العظيمة، نعمةُ الطاقة العقلية عن مجالاتها الطبيعية في أصل الخلق؛ من رؤية آيات الله في الآفاق وفي الأنفس والتفكرِ في ملكوت السماوات والأرض، ومخلوقات الله في هذا الكون العريض ـ وما إلى ذلك، ثم الاجتهادِ في الوصول إلى حكم الله في الطارىء من الحوادث والقضايا التي لا تتناهى، وذلك في ضوء المناهج المنضبطة عند العلماء ـ لأن النصوص تتناهى والوقائع والأحداث لا تتناهى ـ وما هو من ذلك كله بسبيل، من تدبير وتنهيج في هذه الحياة الدنيا ابتغاء مرضاة الله تعالى..

أجل؛ تتحول تلك النعمة العظيمة إلى أن يكون العقل على صراع مع نصوص الوحي المتنزِّل من السماء، أو مقدماً عليها، أو قاضياً مصطنعاً يحاكم تلك النصوص من خلال الواقع الذي لا يُدرى له ضبط أو تحديد، فهل هو الواقع الزماني أو المكاني، وهل هو واقع بلد أو إقليم، أم هو واقع الحاضر دون الماضي أو المستقبل، ما هي حدود ذلك، ما هي طبيعة المنطلقات فيه؟! وإلى أي اعتبار يخضع، للاقتصاد أم للسياسة والاجتماع، أم للثقافة والتنوُّر المدّعى؟! علماً بأن من المطلوب الفهم الحقيقي للنصوص وأبعادها بذهن متفتح وبصيرة ذاتِ نفاذ.

ولعلّي لا أغالي إذا قلت: لا تثريب عليّ تعقيباً على ما ألمحت إليه بإيجاز لا يتسع لأكثر منه المقام: مسكينٌ هذا العقل الذي مما قال الله الخالق الحكيم في بعض شؤونه ومهماته: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١] ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وكم لذلك من نظائر لا يعقلها وأخواتها إلا العالمون.

مسكين هذا المخلوق المتميز الذي يراد له أن يهبط إلى مستوى أن يكون ذيلاً للغرور القاتل، والهوى، والتنكر لذاتية الأمة بالتقليد الأعمى؛ وكم لهذا الثلاثي المؤذي من ضحايا غير مأسوف عليها، وهذا لا يعني المسارعة في الحكم على الآخرين قبل البيان والحوار وفق منهجية البيان وأدب الحوار؛ لأن الملاحظ أن

البعض لا يستحيي أن يتصدَّر معلِّماً كبيراً للمفكرين قبل أن يجتمع له قدر كاف من العلم بالإسلام وعلوم الإسلام؛ وكأن هؤلاء: يريدون أن يكونوا مجتهدين لا يعجبهم إلا أنفسهم وبعد ذلك يتعلمون إن شاء الله، فهم مجتهدون بلا علم، ويمكن أن يصبحوا إذا قويت الإرادة في زمرة المتعلمين الذين يتطلعون لمعرفة قدر كاف عن الإسلام وعلومه ممّا لا بد أن يعرفه المسلم ـ بوصفه مسلماً ـ قبل أن يتصف بأي نوع من أنواع التخصص.

وإذا أضيف إلى ذلك ثمالة حياء: يغادرون التصدُّر للاجتهاد والتنظير الفكري ريثما يتوافر لهم القدر الكافي المشار إليه من المعرفة.

وكم نتمنى لو يُعنا هؤلاء بجلاء قلوبهم، وأن لا يقتصر الأمر على ما هم فيه من الجفوة لعدد غير قليل من مقتضيات الإيمان والإسلام بأركانهما جميعاً، والله المستعان.

وفي عود على بدء: إذا كان الأمر كذلك ـ بعد هذه الاستطرادة ـ: فصياغة الإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ صياغة تتواءم مع الواجبات المنوطة به في نفسه، وفيمن حوله، وما حوله ومحيط به: هي حجر الزاوية في هذا الموضوع الجلل الخطير.

وذلك ما كان لأصحاب رسول الله ﷺ ـ كما يدل المعلم القرآني الذي تشرق به سورة الفتح، وخاتمتها بخاصة ـ وهو ما يجب أن يكون نبراس الأمة الهادي في تطلعاتها المستقبلية، وما يرمي إليه المصلحون من استئناف واعٍ يجدد شبابها، ويضع ما أعطاها الله ـ بجانب الرسالة الخاتمة ـ من طاقات بشرية، وإمكانات اقتصادية واستراتيجية وثروة حضارية ينطق بها التاريخ بعزة وشموخ:

..أن يكون نبراسها على الطريق التي تبدأ بالعزيمة الصادقة، وتُسلم بعدها إلى إحكام البناء الذاتي، حيث النمو الشامل، والتغلُّب على بواعث الكسل، والاسترخاء، وحب العافية من المسؤولية عند كثيرين، أو الإخلالِ بما يجب من الأمانة في حملها.

الأمـر الذي يمكِّن ـ والحـال هي الحـال ـ من تجـاوز المرحلة التي خلفـتهـا الجفوة للإسلام في كثير من مواقع التخطيط والتنفيذ، وما هو واقع صباح مساء من تآمر الأعداء والذي يمكن من تدمير كل ما من شأنه تعويق مسيرة الخير، والقضاء على المد الإسلامي أن يعود، وتسمية القضايا الكبرى، والواجبات العظيمة، والمصطلحات الإسلامية العريقة بغير أسمائها اختراعاً من عند أنفس أولئك الأعداء في الداخل والخارج!!

وأكْرِمْ بهذا الذي كان لأصحاب رسول الله ﷺ الذين جاء ذكرهم في الكتب السماوية دليل اصطفائهم لتلك المهام الكبرى ـ بعد الإيمان ـ والذين كانوا نعم الترجمان العملي للإسلام إيماناً وعملاً وجهاداً وسلوكاً، ونعم النقلة بالكلمة والرواية والحركة نقلاً يشرق بالأمانة ودقة المعرفة إلى من بعدهم من أجيال الأمة ـ أكرم بما كان لهؤلاء البررة الأطهار، والمجاهدين الصابرين الأخيار، مما يجب أن يكون النبراس ـ دون تجاهل للواقع الإقليمي والدولي ـ وهو ما تشرق به الآية التي سبق ذكرها وهي: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح : ٢٩].

فبعد التذكير بمحور القضية الكبرى وهي «الرسالة والرسول» تكشف الكلمات النورانية عن بعض من خلال أولئك الصفوة الذين حوّلوا قيم الرسالة ـ بإذن الله ـ إلى وجود ذاتي لما به يؤمنون، وحركة منتجة على أرض الواقع؛ فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم. وهذه قاعدة عريضة لها شعب وفروع تعطيها ثوبها الثقافي والعملي المناسب على صعيد التعامل في حالات السلم والحرب، الثوب الذي يضع الأمور مواضعها، ويربي أتباع القرآن الكريم على استخدام اللغة المناسبة في ظل أحكامه وأخلاقه الكريمة وآدابه، بحيث يكون التنفيذ الدقيق الذي لا وكس فيه ولا سقط.

ولا تسل عما أعلنته تلكم الكلمات الهاديات عن عميق صلة أولئك الرجال بربهم عز وجل الأمر الذي يعني أنهم يأوون في كل قول وفعل وحركة إلى ركن شديد .

الحقائق الإسلامية.. والبناء والجيل الفريد

«٣»

هذه وصلة بما وقفنا عليه المعلم القرآني في كلمات سلفت: من أن من صفات أولئك الرجال الذين حملوا العبء مع رسول اللّه ﷺ في جو من المحبة والإخلاص لا يعرف شيئاً من التخلف عن منهجه وهديه: أنهم أشداء على الكفار؛ ولكن فضيلة أخرى ملازمة لتلك، تشكل قاعدة مصاحبة أخرى في التعامل على الصعيد الداخلي بين المؤمنين: أنهم رحماء بينهم، كلٌّ يرحم أخاه في القول والفعل، وكل ما هو سبيل التعاون المرضيٌّ للّه ولرسوله عليه الصلاة والسلام؛ ذلكم قوله جل ذكره: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

وإذا كنا على ذُكر من طبيعة الحركة والتحرك عند المؤمنين الذين عاشوا متنزل الوحي يومذاك. وهم يرفعون بسواعدهم الفتية قواعد البناء في المجتمع الجديد بعد الهجرة مع قائدهم وحبيبهم رسول اللّه ﷺ، وأن هذا التحرك بلغ من الشمول والتوازن مبلغ أن يطرق الميادين كافة، وأن يتيح تكافؤ الفرص لكل المواهب والطاقات والتخصصات النافعة، أن يعمل كلٌّ عمله في ركائز البناء التي رسم منهجها القرآن الكريم، ولم يدع رسول اللّه عليه الصلاة والسلام أن يعني ببيان كل ما يجب بيانه من النصوص الواردة في هذه الركيزة الكبرى في حياة الدولة المسلمة والأمة المسلمة.

أقول: إذا كنا على ذُكر من ذلك كله: أدركنا أي ساحة متسعة الأرجاء يشيع فيها التراحم بين أولئك البناة الأبطال؛ الأمر الذي ينمي في الفرد روح العمل الجماعي الذي تتضافر فيه الجهود، وتتعاقد الخناصر على الوفاء بعهد اللّه في ذلك البناء الحضاري الرباني الذي شرفوا برفع قواعده بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام.

ولا تسل عما يصحب ذلك ـ وهم في هذا الصف ووحدته ـ من انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، والعطاء المتجدد، لما يتوافر لهم من تلك المصادر التي تفيض بحوافز العمل الدائب المثمر، وتبعث على تزويد المجتمع بما يدفع عنه غوائل التمزق والفساد، ويجعل من مجتمع الأخوة الإيمانية الصادقة، والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، عملاً بقوله تعالى في الآية الثانية من سورة المائدة المدنية التي هي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

وبعد: فهكذا وصف الكتاب المعجزة من يناط بهم أمانة إنشاء المجتمع الوليد، وتنمية الطاقات الخيرة في أرجائه كيما يكون الترجمان العملي الأمين لما دعا إليه الإسلام: وصفهم بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم؛ وبذلك تتوافر أعظم الضمانات لسلامة المجتمع من الداخل ـ خصوصاً إذا لاحظنا أن من التراحم الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وأن رفع الظلم عن الأخ يكون بردعه عن ظلمه ـ ولصيانته من الخارج باللغة المناسبة والسلوك المجدي دون وكس أو شطط كما جرت الإشارة من قبل.

إن مجتمعات الكراهية والحقد، وتلمُّس المعايب، والنزوعِ إلى ما فيه التفرقة والبعد عن تأليفِ القلوب: مجتمعات محكومٌ عليها بالدمار، والأمة التي ترضى بالهوان، وتفتح أبوابها ذليلة للأعداء، محكوم عليها بالانهيارِ المادي، أو المعنوي الذي من بعض آثاره السيئة ما ينالها من المذلة والخضوع، بحيث يحال بينها وبين أن تكون صانعة القرار المتعلق بها: بنفسها، الأمر الذي يذكر بقول علي رضي الله عنه: «وما ترك قوم الجهاد وإلا ذلُّوا».

وليس من نافلة القول أن الاستطرد المشوب بالغرابة: ما آذن به القرآن الكريم أن في إقامة شرعة الجهاد، خيراً لا للمسلمين فحسب، بل لغيرهم وغيرهم.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠] .

والواقع أن الآيات التي تأتي على القاعدة الأولى أو القاعدتين كلتيهما في شأن التعامل المومى إليه قد تعددت مواطنها في الكتاب العزيز؛ ففي سورة المائدة بدءاً من الآية الرابعة والخمسين يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦] .

تلكم هي عناصر الحياة الحقيقة التي تحمل قابلية النماء وحرية التصرف، مع القوة والقدرة على العطاء المتميز في المجتمع المسلم، أن لو أُخذت النفوس بشرعة الله وتقواه في الشؤون الفردية والجماعية كافة!

ولا تسل عما دلت عليه الكلمات الهاديات في الآية الكريمة من أن الله يجعل الذين لهم تلك المنزلة الرفيعة من حبهم له ـ سبحانه ـ وحبه ـ جل شأنه ـ لهم: أذلةً على المؤمنين أعـزَّةً على الكافرين. وهذا التلازم ينبغي أن لا يغيب عن الذهن، ولا يهمل عند التثقيف، سيما وأن الأمة تستشرف إلى النهوض من الكبوة، وتتطلَّع ـ متمثلة في أهل الصلاح والإصلاح الذين تؤرقهم بصدقٍ همومها ـ إلى تجاوز العقبات في سبيل استئناف رحلة البناء المنشود وإحكامه، وتنمية طاقات القوة بأنواعها، ومجابهة التحديات...

أجل؛ ينبغي أن لا يغيب ذلك عن الذهن ولا يهمل عند التربية والتثقيف؛ لأن مجتمع العقيدة مرتبط أيما ارتباط بهذا النوع من التعامل الذي يصحبه وضع الأمور مواضعها، ولا تغيب عنه الحصافة والحكمة، هذا التعامل الذي يجعل المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وفي ضوء ذلك: ما أشدَّها وأبلغها مصاباً أن يكون في الأمة أناس تحصَر صدورهم أن يكونوا مع الحق وأهله، خشية أن تصيبهم دائرة فينحدروا إلى مستوى أن يكونوا أعزةً على المؤمنين، أذلةً على الكافرين؛ إن ذلك عندما يحصل، يكون عنوان أن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض، لا يحبهم الله ولا يحبونه.

ألم تر إلى قوله تعالى في مرضى القلوب الموالين لأعداء الله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥٢] .

ألا إن صدق الأمة مع كتاب ربها، والوقوف عند معالمه الخيرة: يقتضيانها الثبات على هذه الثوابت والمسلَّمات وأمثالها وهي تواجه الأحداث الجسام، وتعمل على تلافي المشكلات في علاقاتها الداخلية والخارجية، علماً بأنه لا تطلع شمس يوم من أيام التاريخ إلا وتتعاظم الأدلة على ضرورة ذلك، ولو رحت تعدد الأمثلة لهالك الأمر وضاق به الزمان عن التعداد.



الحقائق الإسلامية... والبناء والجيل الفريد

«٤»

ما زلنا مع الهداية التي هي من عطاء المعلم القرآني في خواتيم سورة «الفتح» حيث وصف اللّه أولئك الذين حملوا العبء بأمانة مع رسول اللّه ﷺ بأنهم أشداء على الكفار رحماءُ بينهم، وعرّجنا على آيات من سورة المائدة ظاهرة النسب إلى ذلك المعلم العظيم الذي أضاء بهذه الحقيقة: كان منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

ومما يستوقف الناظر المتأمل: أن هؤلاء الذين يحبهم اللّه ويحبونه لم يوصَفوا بأنهم أذلةٌ على المؤمنين أعزةٌ على الكافرين فحسب، بل يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لومة لائم.

معنى ذلك أن هنالك تكاملاً في هذه الصفات.

فالذين يسمو بهم إيمانهم، وتذوقهم لحلاوة ذلك الإيمان، فيكون من فضل اللّه عليهم أن يجعلهم ممن يحبهم ويحبونه: هؤلاء يسلكون مع إخوانهم المؤمنين سبيل التراحم والتعاون الصادق والتذلل الكريم، أما مع الكافرين: فهم مع العزة الإيمانية، لا يخنَعون ولا يذلون.

والحفاظ على كيان المجتمع النظيف الذي يسوده هذا الخلق النابع من أخوة العقيدة في التعامل، إنما يكون بالجهاد الذي لا يخافُ أصحابه وهم يخوضون معارك الموت تحت رايته ـ ناهيك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ لومة

لائم؛ فما عند الله خير وأبقى، والشهادة في سبيل الله من أعز أمنيات المؤمن والحمد لله!! والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هما الوجه الآخر للحفاظ على ذلك الكيان ولكن من الداخل!!

هكذا تقرر الآية ذلك بكل وضوح: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

وأقول «بكل وضوح» لأن عبارة «أذلة على المؤمنين» قد تُلَبِّسُ الأمر على بعض الضعفاء، فيجيءُ قوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ ليقطع الطريق دون ذلك، وليعلن في الأمة أن ذلة المؤمن على أخيه المؤمن هي العنوان المشرق للعزة الإيمانية في ميزان الحق عند الله؛ لأن ذلك يجري على هدي العقيدة التي جمع الله عليها القلوب وألّف بينها: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] فهم أذلة على المؤمنين بأخوة العقيدة والعزة الإيمانية، وكلهم أعزة على الكافرين، أقوياء بدينهم وما يرمون إليه من تحقيق كلمة الله في الأرض، فتراهم يجاهدون في سبيل الله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون لومة لائم.

وهذا كله ـ بما يحمل من القوة ـ من أوتيه فقد أوتي الفضل العظيم من الله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

لقد تشعبت بالأمة السبل ـ إلا من رحم ربك ـ وضاع بعض في بحران من المتاهات.. مع أن الخير ـ لو صدقت النوايا وتحركت العزائم الإيمانية ـ قريب جد قريب!! هل رأيت إلى هذه الحوافز التي تنشئها العقيدة وتنميها ـ ضمن كل الظروف المحيطة ـ ساعة فساعة، حيث إحكام العلاقة بين أبناء المجتمع لا على أساس من النفع الدنيوي القريب، والمصالح الهابطة، ولكن على أساس من أخوة الإيمان، وهي ـ بعون الله ـ ضمانة الاستمرار على التعاون في حمل العبء واستدامة البذل محافظة على إحكام البناء؛ حيث الإيمان والعلم والعمل، وإعداد

القـوة وفق سنن الله، وتطور الدواعي والعوامل؛ وحيث المرابطة السـاهرة الواعيـة على كل ثغر يمكن أن ينفذ منه العدو ـ مهما كان شأنه ولونه ـ ناهيك عن الجهاد المستمر الدائب في كل ميدان يطلب فيه الجهاد، على ما للجهاد من أنواع.

وتلكم عوامل صون كيان الأمة وعلو شوكتها وهي على منهج الحق في العالمين.

والمؤمن الذي يبتغي فضل الله: يحرص على أن يكون مع أخيه المؤمن كما أراد القرآن، ومع العدو كما أراد القرآن ـ وذلك من الثوابت التي يجب أن تلتزم ـ ويقف من الجهاد ـ بألوانه وشعبه ـ الموقف الذي يمليه القرآن ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وأترك للقارىء الكريم أن يطيل التأمل وهو يتدبر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.



الحقائق الإسلامية... والبناء والجيل الفريد

«٥»

متابعة الرحلة مع تلكم الآيات من سورة المائدة التي أسعدنا اصطحابها من قريب، تهدينا ـ بحق ـ إلى نقلة مباركة من قاعدة التعامل بين المؤمنين بعضهم مع بعض وبينهم وبين الكافرين، وأن المؤمنين الذين يسلكون هذا النوع من التعامل: يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، جهاداً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر..

نعم تهدينا إلى أن نقلة مباركة، قوامها ربطٌ كل ما ذكر بالمبدأ العام وهو وليٌّ هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفات: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦]. وأعظم بذلك من بشارة.

وأكرم به من حافز يدفع بالمؤمن ـ وهو يذود عن حياض دينه بالجهاد في سبيل الله، ويسهم في حراسة الجماعة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ ... يدفع به إلى خفض جناحه لإخوانه المؤمنين عن عقيدة ورغبةٍ في مرضاة الله عز وجل، وإلى أن يكون شديداً على أعداء الله في حربهم لدينه وأمته، عزيزاً في تعامله معهم... كما يدفع به إلى مضاعفة البذل في سبيل الله مهما كان الثمن.

... ذلكم ما جاء بعد الآية الرابعة والخمسين من سورة «المائدة» التي ختمت بقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. من قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

ثم تأتي المقولة التي لا يتخلف مضمونها ـ ولم يتخلف مرة واحدة عبر التاريخ ـ تلكم وعد الله جل شأنه والله لا يخلف الميعاد؛ أعني قوله تباركت أسماؤه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦].

وفي ذلك ما ينمّي عند المؤمن سلامة الوجهة وصدق الولاء لله ولرسوله.

إن كل ما نشكوه من الضياع في بعض مجتمعات الأمة، والانهزام أمام الفكر الوافد، والاستخذاءِ الموهن الموقعِ في حب التقليد مهما كان الشأن... إن كل ذلك محكومٌ عليه بالاندثار إذا ما قدّم المربّون والرواد البديلَ الإسلاميَّ بأمانة على صعيد التربية والتعليم والإعداد المتكامل بكل وسائله وأساليبه التي يغدقها العلم على المجتمع يوماً بعد يوم.

والمشكلة تكمُن في الفراغ؛ لأن الفراغ من الحقيقة يوسع للباطل أن يبيض ويفرّخ بعد أن يدخل بلا استئذان.

والذي أعنيه بالفراغ هنا: هو خلو الثقافة والفكر من إشراقة الحق؛ فيأتي الباطل فيجد الطريق مذلّلة أمامه؛ فلا حقَّ يتعلق بالقضية المطروحة، وهي التطلع إلى مُثُلٍ يقتدى بها في خضم حركة الحياة؛ كالذي نرى من إكرام الله للأمة بأولئك الذين يتحدث القرآن عن خلائقهم وما كانوا عليه في التعامل معه سبحانه، والتعامل مع عباده، مؤمنين كانوا أو كافرين، ولا حراسة لما يكون موجوداً من الحق في جانب آخر.

لذا كانت العناية ـ تربوياً ـ ضرورية لملء الفكر بالحق وحراسة هذا الحق.

أما الفراغ: بمعنى كون الوقت ليس مملوءاً بما ينفع: فهذا ما نبَّه عليه الرسول ﷺ حين بيَّن أن هنالك نعمتين، يحظى بهما كثير من الناس فلا يفيدون منهما، وذلكم هو الغبن الذي لا يعوّض صاحبه عنه إلا إذا سلك الأسباب، فوضع صحته في طاعة الله: يستخدمها فيما يرضيه في شتى الميادين، وشغل وقته بالنافع من القول والعمل، وما أكثر ما دلنا عليه الإسلام من مصادر الخير.

يقول الرسول ﷺ ـ كما روى البخاري وغيره ـ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» وقديماً قالوا: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وعلى هذا فليس في أمر الوقت حياد: إن لم يشغله المرء بما ينفع قطع صاحبَه بما يضرُّ، لأن مجرد الإهمال بعدم شغل الوقت بما ينفع مضرَّة للفرد في ذات نفسه، ومضرَّة للمجتمع فيما يخسر من طاقات هذا الفرد، حيث باتت معطَّلة بإهمالها وعدم شغل الوقت بحركتها.

وفي عود على بدء: إذا أضفت إلى خطر الفراغ الأول المومى إليه: ما يعطيه المعلم القرآني من تلازم بين إحكام بنية المجتمع في الداخل من طريق التماسك الأخلاقي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون المثمر على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ناهيك عن التراحم والودّ في كل ميدان من ميادين الحركة والعمل، والحفاظ على الوقت، والجدية في تحمل التبعات والمسؤوليات.. إذا أضفت إلى ذلك ما يعطيه المعلم المبارك من هذا التلازم بين إحكام بنية المجتمع من الداخل على الصورة التي نرى، وبين صيانة الكيان من الخارج بالجهاد في سبيل الله ـ على تعدد ألوانه ومضامينه ـ وطبع الشباب ـ وهم يتسابقون في مضمار الإنشاء والبناء ـ بطابع الرجولة والأخلاق، وتفتيح بصائرهم على الاهتمام بالنافع من القول والعمل والحركة، بجانب التثقيف الموثّق بحقيقة العدو والثوابت التي تكشف عن طبيعة عدائه عبر التاريخ وحتى اليوم.. رأيت العجب العجاب، فيما يضمن سلامة قواعد البناء، وضمان قوته وتماسكه المثمر المتنامي على كل صعيد بإذن الله، سيما وأن إعداد القوة للجهاد وبخاصة جهاد النفس أولاً ـ لا بد له ـ مع العقيدة ـ من العلم ومواكبة التطور مع منجزاته، وما تلده الأيام أبداً من الجديد في وسائل إعداد قوة المواجهة، والحفاظ على الوقت والجدية في الحركة.

أرأيت إلى سورة التوبة التي فضحت مكنونات المنافقين، وهتكت أستار المشركين بما حاربوا جميعاً كلمة الحق، وعصوا الله ورسوله؛ كيف جاء الأمر فيها بمناجزة أعداء الله دون لبس أو غموض؟!.

ففي الآية الثالثة والسبعين من تلك السورة المدنية يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة:٧٣]. ومعلوم أن جهاد المنافقين كائن في الإقناع على صعيد البيان ما يكون من إظهار الإيمان وإبطال غيره!

وفي خواتيم السورة نقرأ في الآية الثالثة والعشرين بعد المائة قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[التوبة:١٢٣].

أرأيت أيضاً كيف جعل الله العمل بهذا الأمر من التقوى؟ وليس ذلك فحسب، بل بَشَّرَ من يطيعونه بهذا القتال أنهم مع المتقين وهو معهم بالعون والتأييد والرضى عما يفعلون!!

ألا إن الذي يلجأ إليه أعداء الأمة من عدوان على الأرض هنا وهناك، وانتهاك للمقدسات والحرمات وتصفية جسدية بلا هوادة ـ على صعيد الفرد والجماعة والدولة ـ: يفترض أن يهزّ المشاعر من الأعماق، وأن يحرك الكوامن الإيمانية، والغيرة الإسلامية، ليعمل ذلك عمله على صعيد الصبر على التغيير، وتحمل تبعاته بشجاعة وإيمان.

ولن يكون ذلك إلا بأن تتحوَّل الأمة ـ ممثَّلة في أهل الريادة على مواقع التنفيذ ـ شطر الحقيقة في كتاب ربها وسنة نبيها وسيرته وهو يقود حركة الحياة مع أولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، لما أنهم صدقوا الله ورسوله وفاءً بالعهد واضطلاعاً بمسؤولية العقيدة، وكانوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

ولله الأمر من قبل ومن بعد؛ ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم.



من آثار الإعداد.. في البناء

هذا الذي رأيناه فيما سلف من قريب، من توجيه المعلم القرآني في سور الفتح والمائدة والتوبة إلى الموقف المناهض الحازم، والمنهج الذي ينبغي سلوكه مع أعداء الله، وهو منهج يعني وضع الأمور مواضعها انسجاماً مع الحقيقة التي عليها هؤلاء الأعداء، لا الاعتداء ولا التجاوز، أو مغادرة العدل والإنصاف..

هذا الذي رأيناه هناك، يقابله ما نطقت به كثير من الآيات ـ كما أسلفنا ـ من وجوب التراحم، وحسن التعامل الودود بين المؤمنين الذين جمع الله قلوبهم على الهدى، فباتوا ينتمون إلى أرومة واحدة هي أرومة العقيدة المباركة ـ عقيدة التوحيد ـ وأكرم بالكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» من نسب!! وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وثبت عنه ﷺ أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» رواه مسلم وفي رواية «وشبَّك ﷺ بين أصابعه».

وقد يكون هذا البيان النبوي خبراً يراد به الإنشاء، أو كما يقولون: إنشاء على صورة الخبر، فكأنه عليه الصلاة والسلام يوجب أن يكون المسلمون كذلك!

ويظل هذا البيان المتألق والذي تعاون فيه الأمر الماديُّ الظاهر ـ كالبنيان ـ وشبك ﷺ بين أصابعه ـ مع الأمر المعنوي الباطن: ذا نسب واضح إلى قول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ [آل عمران: ١٠٣]. من هنا تبدو ضرورة التنهيج للبناء التربوي للفرد، والبناء العملي في المجتمع: تنهيجاً لا يفتقد الارتباط بالعقيدة، واستشعار حقها ومستلزماتها، ولا يعوزه تذليل النفس للانتفاع

بهاتيك الصور الناطقة بالحياة، المترجمة للقيم ترجمة عملية في حياة الفرد والجماعة، وهي الصور التي رأيناها من خلال أخذ الصحابة رضوان الله عليهم بما رسم لهم الكتاب العزيز وبينه الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام.

كل أولئك من أجل أن تتولد في المجتمع الذي تمتد إلى رفع قواعده يد النبوة والأصحاب: تلكم المثلات المطلوبة ـ بل التي لا بد منها ـ من تماسك في البنية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية تماسكاً غير متكلّف، ورغبة في تشابك الطاقات وتوجيهها ـ على سُنن التعاون المجدي ـ وجهة العطاء والنماء، وتوحيد للجهود المبذولة على طريق ما ينبغي أن يتّسم به المجتمع القدوة من صفات القوة والتكامل على طريق العطاء لأبنائه وتوفير ما يجب توفيره لإصلاح الدين والدنيا والآخرة، وأن يظلَّ هذا المجتمع على حال من مواكبة التطور الاقتصادي والاجتماعي والعلمي، على خير ما يكون احتضان الثوابت في مصادر معرفته وثقافته، والحفاظ على الهوية التي سداها ولحمتها حق «الكلمة الطيبة» «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وما تشرق به من الخير في ميادين الحياة كافة.

ولا يرتاب منصف في أن الطريق المسلوكة على هذه الشاكلة ـ كما أثبتت وقائع التاريخ ـ تضمن ـ بعون الله ـ أن يؤدي المجتمع أكرم الأغراض. ويحقق أسمى الأهداف في ظل رسالة الإسلام التي من مستلزماتها الإفادة من معطيات العلم في شتى المواقع، والإحاطة بالواقع العام منه والخاص وطبيعة النوازع عند الأقربين والأبعدين، والبواعث التي تصدر عنها الحركة المظاهرة للحق وأهله. والبواعث التي تصدر عنها الحركة المظاهرة للباطل وأهله.

وكم هي ضرورية متابعة ما يحدث وما يجدُّ من تطورات ومتغيِّرات في كل ساحة من ساحة العلم والعطاء!!

وهذا الذي نقول، يقتضينا العودة إلى مزيد من عطاء المعلم القرآني الذي أضاء لنا بحمد الله ما نحن بصدد من بيانه بدءاً من خاتمة سورة الفتح، لما أنها كانت فاتحة هذا الذي قلناه، أعني قول الله جلَّ ذكره: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ

مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

هؤلاء البررة الأطهار الذين مع رسول الله ﷺ: تساموا على نزعات القبلية والقرابة النسبية إلى أن يُحكِّموا في علاقاتهم بالآخرين، ضوابط العقيدة الصحيحة؛ فهم أشداء على الكفار ـ ولو كانوا من أقرب الأقرباء نسباً أو مصاهرة ـ ورحماء بينهم مهما طال حبل الفرق في تلكم القرابة؛ فالعبرة لما ألف بين القلوب من الإيمان كما أراد المولى سبحانه.

وهم ـ أبداً ـ على دوام الصلة بربهم عز وجل، الصلة التي تهبهم قوة الشكيمة والانتصار على النفس والصوارف رغباً ورهباً؛ فتراهم ركعاً سجداً ـ بصيغة المبالغة دليل كثرة الكم وصلاح الكيف ـ، وهمُّهم أن يرضى الله عنهم، ويكونوا ممن يحبهم ويحبونه، وهكذا تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعونه خوفاً وطمعاً، في استدامة على هذه الحال، حتى أُكرموا بأن أصبحت لهم سيما من النور في وجوههم من أثر السجود. ومن البلاغة القرآنية الفاذَّة جعلُ القرآن هذه السيما تأخذ صورة الاستدامة من طريق نسبتها إليهم، حتى كأنها جزء من الخلقة في الأصل، ذلكم قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

وبعد: فما كان لنا أن نقف عند هذا القدر من عطاء المعلم القرآني، ولكن نتجاوزه إلى الإشارة التي لا بد منها إلى قدر آخر من وافر هذا العطاء، وهو أن ما سبق من تلك الخِلال الكريمة هو صفتهم ـ رضي الله عنهم ـ في التوراة: «ذلك مثهلم في التوراة».

أما مثلهم ـ صفتهم ـ في الإنجيل: فهم كزرع أخرج شطأه ـ فراخه وفسائله ـ فآزره فاستغظ فاستوى على سوقه.

إن هذه الفراخ تعاون الأصل ـ بما هي عليه من صلاح النمو وأهلية العطاء ـ في غزارة الإنتاج وترى كل واحد منها، وكأنه الأصل في عطائه المجوَّد الدائم الكثير: لذا فهو يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار.

تلكم هي سمة البناء الذي أنتجه رسول الله ﷺ؛ مع رجاله الذين امتدت يده الصناع إليهم بالتزكية والتعليم والتربية، فراحوا يعطون بلا حساب عطاءً يتوافر له العلم والإخلاص والحب جميعاً، حتى إنك لتراهم وقد بلغوا ذلك المبلغ من الحركة على أساس نوراني سليم، كأن الواحد منهم ـ فيما يقدم بإيمانه وبذله وإخلاصه ـ للبناء المنشود: إمامُه وحبيبه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وتلكم هي الصفة العظيمة المشرقة بنور التقوى وحسن التأسي، التي جعلت من هؤلاء الصحابة عليهم الرحمة والرضوان ـ رجالهم ونسائهم ـ أمثلة تحتذى في الكفاية على طريق حمل التبعات الجسام، وهم يتجهون صوب إنجاز البناء المبتغى تحقيقاً لما تمليه شرعة الإسلام، ويستهدفون تنمية فاعلية الأمة بعد أن أنهكت الجاهلية ما أنهكتْ من القوى، وبعثرت ما بعثرت من الطاقات تحت وطأة التقليد الأعمى والكهانة والخرافة التي كانت في خدمة الوثنية الرعناء. والفرقة القاتلة التي تنميها أعراف تلك الجاهلية يوماً بعد يوم.

وشهادة التاريخ، ومن شهدوا مصارع ما كانت عليه الحال قبل الإسلام: تعلن إعلانها في أنه عندما تنزَّل وحي السماء على السراج المنير عليه الصلاة والسلام، وزالت الغشاوة: انكشفت الغمة، واستيقظت الطاقات المعطلة، ونشطت العقول التي كانت مكبَّلة بأعراف وتقاليد هي على ضد من الحصافة والتعقل، وتجمعت كل الإمكانات ـ تحت مظلة الهداية الحقة التي عقلُ الإنسان، وإنسانيته، وحريته، وطاقاته منها بمكان ـ لتكون مصدر خير ونماء لا في جزيرة العرب وحدها، ولكن في دنيا الإنسان على اختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، تبعاً لكون الإسلام كما أنزله الله ـ هو المنهج الرباني لبني الإنسان، والسبيل المجدية التي لا مجدي غيرها لبناء الحضارة التي لا تشكو تفاوتاً في القيم، ولا تعارضاً بين المفاهيم، كما لا يشينها عرج ولا عور ولا صمم.

ثم: ألم تر كيف ختمت الآية التي نسعد باصطحابها بالقدر الذي يتسع له المقام بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ تذكيراً بما يجب من التكامل بين الإيمان والعمل الصالح ـ على عموم صالح العمل ـ وتبشيراً لهم بحسن العاقبة يوم الدين.

وتجدر الإشارة أن «من» في قوله تعالى: «منهم» هي للبيان وليست للتبعيض، فهم هم المتصفون بتلك الصفات التي تنالهم مثوبتها أجراً عظيماً.

وبعد: فإذا كانت أمتنا صاحبةَ الرسالة الخاتمة، والشهادة على الناس، وخيرَ أمة أخرجت للناس؛ وتمر بمراحل قَلَبَ الزمان لها فيها ظهر المجن، علماً بأنها هي التي أقامت في دنيا البشرية الميزان بالحق في شؤون الإنسان كافة: فمن الواجب الذي تفرضه العقيدة، وتدعو إليه الغيرة على الحق والرجولة في طلبه من جديد، أن تستأنف المسيرة لتحقيق ذلك طاعةً لله وذوداً عن الحق والدين، ومحاولة لاسترجاع ما اغتصب ورد العدوان عما اعتدي عليه.

وإذا لم يكن المسلمون ـ وهم على حال لا يغبطون عليها ـ هم البادئين بسلوك هذه الطريق اليوم، فلا أقل من أن تكون المواقف صورة عن اليقظة في الرد على شراسة الأعداء التي لا تتناهى، اعتداءً على أرضنا ومقدساتنا وحرماتنا، وافتراءً على ديننا وقيمنا، واستخدام الأقوياء أكثر من مكيال في النظر إلى ما بيننا وبين أعدائنا المعلنين.

لقد حقق أصحاب رسول الله ﷺ ومن سلك سبيلهم عبر التاريخ بالتزام القواعد التي أشرق بها المعلم القرآني في التعامل سياجاً حفظ للأمة كيانها، وفتح للدعوة آفاق الامتداد، وحمى المجتمع المسلم من الأذى في حِقب عصيبة من الزمن.

وكل الدلائل والوقائع تدل على أنه ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا، وأن عدم الالتزام بتلكم القواعد التي جرت الإشارة إليها وكانت ديدن الأولين في التفاعل على الصعيدين الداخلي والخارجي، يؤدي إلى أسوأ النتائج على مختلف الأصعدة؛ وإذن فلا بد من العودة إلى ما أذن به المعلم القرآني من الهداية والخير والله الموفق.

البناء.. والارتقاء بالإنسان في رسالة الإسلام

الارتقاء بالإنسان إلى المستوى اللائق بإنسانيته، وأنه مخلوق مكرم صاحب رسالة.. هذا الارتقاء جاءت بوادره مبكرة في القرآن الكريم؛ ففي سورة الذاريات ـ وهي سورة مكية ـ نقرأ في تقرير وحدانية الله، وتسلية رسول الله ﷺ ببعض ما وقع للرسل من قبله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥١-٥٣].

أي هل أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة: ساحرٌ أو مجنون؟!

الحقيقة أنهم قوم طغاةٌ تشابهت قلوبُهم فقال متأخرهم كما قال متقدمهم.

بعد هذا نقرأ توجيه الرسول ﷺ إلى الموقف الحازم في متابعة طريق الدعوة لإنقاذ الإنسان مهما كانت المعوقات: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الذاريات: ٥٤].

ذلك أن الاستجابة ليست مقصورة على أناس دون آخرين؛ إنه لا لوم على رسول الله ﷺ في أن يُعرض عن هؤلاء المعاندين المكابرين بعد أن استنفد كل ما يملك من وسائل في دعوتهم، وأن يتوجه إلى غيرهم. والمهم في الموضوع: أن تتابع الدعوةُ طريقَها. طريقَ البناء القويم الذي يُخرج الإنسانَ من الوهدة، ويكشف عن طاقاته المخبوءة، ويوجه تلك الإمكانات المهدرة وجهتها الصحيحة، كيما يُقضى على ذلك السفه المُردي، الذي يحول دون الانتفاع بطاقات الإنسان والوقت جميعاً، وأن ينموَ ويتعاظمَ الشعور بأن الاستجابة لدعوة الله هي وحدها الموئل الذي يجد الإنسان نفسه من خلاله، ويحسُّ بوجوده الذاتي على وجه الحقيقة.

ذلكم قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

فجحود الحق والعتوُّ عن أمر الله والعناد، والامتراء بمقالة السحر والجنون، كل ذلك لا يعني التوقف عن رحلة البناء التي تبدأ من الإنسان بعقله وقلبه، وما أودع الله فيه من إمكانات العطاء، وأهلية التوحيد.

من أجل هذا كان من الحكمة أن يكون بديلَ الإعراض عن أولئك العتاة المستكبرين: الصبرُ على ما يقولون، واستمرار الدعوة والتذكير، فالناس معادن والكلمة الطيبة لا بد أن تأخذ طريقها إلى القلوب، ولو بعد حين ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم جاءت الآيات المكية في هذه السورة على تقرير الحقيقة التي من أجلها كانت دعوة المرسلين عليهم الصلاة والسلام، تلك الحقيقة: هي عبادة الله تبارك وتعالى التي خلقَ الجنَّ والإنسَ للقيام بها. ذلكم قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

إنه الارتقاء بالإنسان إلى المستوى اللائق الذي خُلق من أجله، فالعبادة هنا مقصودة بأوسع معانيها فهي تشمل مع التوجه إلى الله بالقلب وانقياد الجوارح لهذا التوجه، أن توجه كل حركة في الحياة لتكون موضوعة في مرضاة الله عز وجل.

المطلوب ــ مع الإيمان ــ أن يُعبَد الله بالشعائر والشرائع التي تحقق وجود الإنسان على الوجه الذي فطر عليه وتنظم شؤونه كافة.

ومن ثم ترتفع به عن حمأة العبودية لغير الله اعتقاداً وتشريعاً وتنظيماً للتعامل، وإدارة حركة الحياة في نطاق علاقة هذا الإنسان بالكون والحياة.



من أبعاد العبادة.. في البناء والتنمية

الآيات التي كانت لنا شرف الرحلة العجلى معها من عهد قريب: وقفنا المعلم القرآني من خلالها على البوادر المبكرة في العهد المكي، التي تؤذن بالأهمية الكبرى المعطاة لخلق الإنسان في أحسن تقويم، والتوجيه إلى الارتقاء به إلى مستوى الشعور المدرك بأنه لم يخلق عبثاً، وأنه مؤهل لحمل ما أراد الله له من أعباء في ظل رسالة تشرق بحقيقة يقينية كبرى، وهي أن الله هو الخالق القادر الحكيم، وأنه ـ أعني الإنسان ـ عبد له عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].فما كرمه الله به وفضله على كثير من خلقه بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]. يقابله مسؤولية العبودية لله تعالى بأوسع معانيها وأبعادها وحقوقها.

وقد جاء ذلك صريحاً في الكتاب الكريم حيث قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فهو لم يخلق عبثاً، ولكنه خُلق لغاية كبرى، لعل من بعض حكمها ـ أن لو تحقق بها كما ينبغي ـ الحيلولة دونه ودون أن يستعبد لغير الله عز وجل، وتحريره من هذا الاستبعاد إن وقع؛ فعندما يكون ـ بحق ـ عبداً لله تعالى، لا يذلّ إلا له، ولا يتضرع إلا إليه، ولا يدين بالطاعة إلا لما شرع: فهو المخلوق الحرّ على وجه الحقيقة، والعكس بالعكس.

وإذا كان لم يخلق عبثاً ـ وإن كان يتحرك على الأرض في عداد تلك المخلوقات التي لم تُعط ما أعطي، ولم تكرَّم بما كرم به ـ: فإن مردَّه في النهاية إلى الله عز وجل، ذلكم قول الله تباركت أسماؤه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

أجل؛ لم يخلق هذا الإنسان عبثاً، وإنما خلق لتحقيق عبودية الله في الأرض، ومرجعه ومآبه في النهاية إلى مولاه، حيث المسألة عما حصل منه في الدنيا، والمثوبة على صالح العمل، والعقاب على ما اقترفَ من سيئات.

ومن حكمة الله البالغة: أنه ـ وقد خلقه لهذه الغاية ـ أهَّلَهُ بعدد من المؤهلات التي منها الفطرة والعقل والقلب وأهلية التكليف ـ وهو أمر في غاية الأهمية ـ وقابلية أن يكون هذا كلُّه الباب العريض الذي يُنفذ منه إلى التعرف على أسرار الخلق، والتفكر في آلاء الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأحسن كل شيء خلقه، ورؤية آياته في الآفاق وفي تلك النفس الإنسانية، في استشعار لعظمته سبحانه وتعالى وحكمته فيما خلق وفيما أمر وقدَّر، وقدرةٍ على الانتفاع بما سخَّر له جل شأنه في هذا الكون العريض الذي خلق بحكمة بالغة وقدرة باهرة، ونُظم شأنه على أفضل ما يكون الانتظام: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٤] وسبحان من له الخلق والأمر وهو الحكيم الخبير.

وفوق هذا ألم تر إلى أن الله جل وعلا ـ وهو أعلم بما خلق ومن خلق ـ أودع في بعض أفراد من هذا الإنسان أهلية الاتصال بالملأ الأعلى من طريق الوحي، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وخاتمهم وسيدهم رسولنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وهكذا نجد أن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ يطرح على طريق الفكر والسلوك أن هنالك غاية كبرى معينة شاء المولى عز وجل أن تكون وراء خلق عالمي الجن والإنس، وإنها لغايةٌ تتمثل في وظيفة لها أبعادها ومقوماتها وحقوقها، من قام بها وأداها على الوجه المطلوب: فقد حقق الغاية التي من أجلها كان وجوده بخلق بارئه جل وعلا وتصريفه للأمور، ومن قصَّر فيها، وحاد عن سبيلها متبعاً هواه، مطيعاً شيطانه ونفسه الأمارة بالسوء: فنكل عنها ورضي بالدنية التي هي عبودية لغيره سبحانه: فقد زاغ عن الحق، وانحرف عن الغاية، وأصبحت حياته فارغة من الهدف الأسمى الذي تستمد منه قيمتها

الأولى، والذي هو الصورة العملية الناطقة بتكريم اللّه له وفضله؛ فالمخلوقات الأخرى غير مكلفة ولا تحمل تلك الخصائص التي أودعها اللّه في الإنسان؛ فهي عجماوات لا تعقل ولا تدري؛ إلا إن شاء اللّه أن تخرق العادة التي جرى عليها النظام ـ كما برأه وأبدعه اللّه ـ في حالة من الحالات.

ولا يخفى أن الوظيفة التي نشير إليها ـ توكيداً لما سبق ـ هي العبادة الخالصة للّه عز وجل، لأنه هو وحده المستحق للإفراد بهذه العبادة، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى.

والعبودية له ـ سبحانه ـ تتجاوز في معناها وأبعادها، ومقتضياتها: أن تكون دعوى بلا تطبيق؛ فهنالك رب يعبد جل شأنه، وعباد يعبدون، وذلكم هو المحور الذي تتحرك عليه الحياة، كيما يستقيم أمرها، وتعطي عطاءها، وتكون العلاقة بالكون والحياة ـ والكل مخلوق للّه تعالى ـ على السنن المجدي القويم.

وما دام الأمر منضبطاً بأصل الخلق: فالعبادة ـ كما سلفت الإشارة ـ تتجاوز في معناها وأبعادها إقامة الشعائر والقيام بالتكاليف الخاصة من قبل المكلف ـ ذكراً كان أو أنثى ـ فضلاً عن أن تكون دعوى بلا دليل.. تتجاوز ذلك إلى عمارة الأرض، وتحقيق الوجود الذاتي الحقيقي للإنسان ـ بوصفه عبداً للّه ـ وكل نشاط حيوي ـ كائناً ما كان الميدان الذي ينتمي إليه ـ يتحقق من ورائه أن يكون حكم اللّه هو السلطان المهيمن، كما يتحقق من ورائه التسخير الذي أراده اللّه تبارك وتعالى ـ وما أكثر الآيات البينات التي تؤذن بهذا التسخير في القرآن ـ.

فكل نشاط حيوي يتعلق بعمارة الأرض وبناء الحضارة المثلى على أساس مكين متين، يتصل بالتعرف إلى ذخائر هذه الأرض وثرواتها، وما أودع اللّه فيها من طاقات ومكنونات في البر والبحر والجو، وكل ما يتعلق بذلك على صعيد العلم والعمل، والحركة والتدبير: هو من ألوان العبادة التي يجب أن تتحقق على يد الإنسان، وتسير وفق منهج اللّه الذي يتسق مع سننه ـ جل وعلا ـ الكونية وما رسم لعلاقة الإنسان بالكون والحياة.

علماً بأنه ليكون العمل ـ على صعيد هذا التعبد المتسع الميادين، المتنوع الآفاق ـ مقبولاً عند الله، لا بد من خلوص النية وصدق التوجه إليه سبحانه بعيداً عن الشركاء والأنداد؛ لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وحده، وهو ـ جل ثناؤه ـ أغنى الأغنياء عن الشريك.

وأنت واجد أن ما قلناه في شأن العبودية الخالصة لله عز وجل: يرتبط أيما ارتباط بالخلافة في الأرض، حيث تتحقق إرادة الله في الإفادة من التسخير، وانتظام السنن ونواميس الكون، بناءً للحياة على السنن الإلهي، وتنمية للطاقات الفاعلة بشرية كانت أو مادية أو علمية.. وما إلى ذلك، وترقية لتلك الحياة ترقية تتحقق معها ـ وقد أشرقت عليها شمس العبودية لله ـ حرية الإنسان وكرامته، وأن يتجه وجهة السعادة في عاجله وآجله على وجه هذه البسيطة.

وما أحسب منصفاً عزيزاً عليه عقله، ينكر أن الأمة على صعيد الواقع بأمس الحاجة إلى تبصير الأجيال بهذه الحقيقة التي تتولد منها حقائق، وأن على المسلم المكلف ـ ذكراً كان أو أنثى ـ أن يدرك هدف وجوده، وأنه مخلوق لعبادة الله، كيما ينطلق في طاعة الله عمارة للأرض، وبناءً للقوة الذاتية التي تثمر حرية التصرف وصنع القرار المصيري وإنماءً لكل الذخائر والطاقات المكنونة والتعامل معها بعلم وأمانة حينما كانت وأينما كانت.

وذلكم كله قبس من نور قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ ولله الأمر من قبل ومن بعد، وسبحان من له الخلق والأمر، وهو بكل شيء عليم.



الشمول.. بين العبادة والبناء

القضية الكبرى ـ وهي الحقيقة اليقينية في حياة بني الإنسان ووجودهم على هذا الكوكب، والتي آذن بها المعلم القرآن ـ كما سلفت الإشارة من خلال قول اللّه تبارك وتعالى في سورة «الذاريات»: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.. هذه القضية أخذت بأيدينا إلى أن حقيقة العبادة والعبودية في مجال الاعتقاد والتصديق الجازم في القلب: أن في الوجود إلهاً يعبد هو رب العالمين، لا ندَّ له، ولا شبه له، ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]. وعباداً لا بد أن يفردوه، بالعبادة بعيداً عن أي لون من ألوان الشرك أصغر كان أو أكبر﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

أما في مجال الانقياد والعمل وتحقيق ذلك بالعبادة من خلال حركة الإنسان: فهي صدق التوجه إلى اللّه وحده من أعماق النفس وكل ذرة في القلب والعقل، وتطويع كل حركة من حركات الجوارح على ساحة الحياة، وميادين الوجود، كيما تكون على اتساق مع صدق الوجهة إليه سبحانه من الجن والإنس جميعاً الذين ما خلقهم إلا لتحقيق العبودية له جل ثناؤه، ومع تحقق هذه العبودية بالاعتقاد والتصديق الجازم بالقلب، لا بد من تحقيقها بالحركة على صعيد الجوارح؛ فهو الذي أوجد المخلوقات من العدم، وله الكمال المطلق في أسمائه وصفاته، وتبارك اللّه رب العالمين.

كيف لا وقد جاء النصُّ الصريح الواضح في الكتاب العزيز على أنه حتى الحيوان والجماد يسبِّح بحمده جل وعلا، ولكن البشر لا يفقهون تسبيحهم: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وبذلك يأخذ معنى العبودية وجوده الحقيقي الذي نصت عليه الآية الكريمة؛ وهكذا ترى المسلم يعبد اللّه بالشعائر والشرائع؛ إنه يعبد اللّه بالقيام بالتكاليف ائتماراً بالأوامر واجتناباً للنواهي بإخلاص وصدق نية، ويعبد اللّه بالعلم والعمل والجهاد.. كما يعبده بكل نشاط حيوي يسهم معه في عمارة الأرض، وبناء الحياة على صعيد الفرد والجماعة وفق ما يمليه المنهج الرباني.

وهو في ذلك كله حين يصبر على مقتضيات الواجب الذي يحمله خطاب التكليف، ويتحمل الشدائد ابتغاء الوصول إلى الهدف الكبير: هو في ذلك كله عابدٌ للّه تعالى إذا صدقت الوجهة وخلصت النية عن أي شائبة من الشوائب!!

ورسول اللّه صلى الله عليه وسلم وبارك عليه ـ وقد عمل على أن تأخذ هذه الحقيقة أبعادها في أغوار النفس المسلمة ـ استطاع مستعيناً باللّه تبارك وتعالى: أن يحقق بحقبة وجيزة من الزمن، كثيراً كثيراً على كل صعيد يطلب أن تتحقق فيه العبودية بأجلى مظاهرها لمالك يوم الدين رب الخلائق أجمعين.

فما كادت الدعوة تقف وقفتها الراسخة، حتى تبدلت الحال في الفرد والأسرة وبناء المجتمع، وباتت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية وما إليها، خيراً مما كانت عليه بالأمس.

وقد كان ظهور ذلك في مجتمع المدينة أكثر وضوحاً، لما أن قيادة البناء أصبحت بيد صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، دون ما كان عليه الأمر في العهد المكي.

وهكذا استطاعت تلك اليد الهادية الأمينة الصناع ـ مع تحرير الإنسان في اعتقاده وطريقة تفكيره، ومحاكمته للوقائع والأحداث وتحليلها ـ أن تحرر ـ متعاونة مع جند الحق والإيمان ـ الأوضاع الاقتصادية من سلطان اليهود، الذي كان ضارباً بكلكله على المدينة وما حولها.

ويهود اليوم هم يهود الأمس ـ كما علَّمنا القرآن الكريم يوم كان يخاطب اليهود في عصر النبوة وكأنهم هم الذين اجترحوا ما اجترحوا في عهد موسى عليه السلام ـ ولكنهم أشد عتواً بما يستخدمون من العلم، وبما هم عليه من الدأب والحرص على ما يريدون، وبما يتقوون به من إمكانات القوى التي ترى مصالحها في معاونتهم والانحياز لهم، ناهيك عما هم عليه من قدرةٍ في تسيير الاقتصاد والإعلام لصالحهم.

من هنا يمكن القول ـ وحال أمتنا هي الحال تفرقاً وبعداً عن منابع قوتها في كثير من الأحوال ـ بأن التبصر الواعي بحقيقة العبودية لله تعالى على طريق استئناف البناء الخيِّر والتنمية المطلوبة للطاقات والإمكانات، كيما تأخذ مكانها الطبيعي على طريق الوجود الذاتي والتمكين: جدير أن يشدَّ التائهين الذين كثيراً ما يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، إلى حظيرة العمل بطمأنينة تولد القناعة، وبقابلية للمتابعة وفق منهج مرحلي لا يجفو الذاتية ولا يجهل الواقع، وأن يجمع شتات الجهود المبعثرة هنا وهناك، كيما توظف على الساحة التي ينشدها الأمناء الأقوياء في بناء القدرة الذاتية المستقلة للأمة، حيث تفكر بأبنائها المخلصين الواعين، ولا يفكر أحد عنها ممن يعتبرونها معوقة لا تبصر ولا تعي.

ناهيك عن التحرك الواثق الذي يباعد بين شبابنا وفتياتنا وبين الضياع الفكري، والقلق، وبعثرة الجهود.

وإنها لساحة متسعة الأرجاء للعمل البناء الذي يستوعب الطاقات والتخصصات كافة، تساوقاً مع المنهج الرباني المستوعب للجهد المثمر المنتج على كل صعيد، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.



تحقيق العبودية.. والبناء

ما أحسب أن منصفاً يعرف للحق حرمته، ويعاف عقلُه الباطلَ وزينته: يماري في أن من ثمرات المخالطة الجادَّة قلوباً وعقولاً، لتلك الحقيقة الكبرى في الوجود.. حقيقة العبودية للّه تبارك وتعالى خالق الوجود- تنميةَ حوافز العمل على صورة لا يمكن أن يصنعها منهج آخر، إذا كنا على ذكر من أن سلامة المنهج تكمن في تكامل النظرة إلى الدنيا والآخرة جميعاً، ووضع إنسانية الإنسان وكرامته وحريته وما به سعادته في العاجلة والآجلة في الحسبان!

ذلك بأن الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى وقد استقر في أعماقه الشعور الصادق بعبوديته للّه تعالى في كل شأن من الشؤون ـ يندفع إلى تحقيق هذه العبودية في العالم الخارجي وراء نفسه وقلبه، في كل حركة من حركات الجوارح، وفي كل طور من أطوار حركة الحياة، مهما تشعبت الميادين، وتنوعت أساليب العمل تنهيجاً وتنفيذاً فيما هو كائن، وفيما يجدُّ على الساحة هنا وهناك، وهل يَسلم للبناء الحضاري نقاؤه وصفاؤه إلا بهذا؟

ولنذكر أن الاندفاع المومى إليه يكون ـ بحق ـ اندفاعاً ذاتياً مشرباً بالطمأنينة وانشراح الصدر، تظهر آثاره المنيرة في كل صورة من صور البناء المبرء من العوج والتناقض وعدم نمو جانب على حساب جانب آخر، وهو البناء الذي ترمي إلى تحقيقه رسالة الإسلام، وتحضُّ من أجل ذلك على تنمية الطاقات البشرية والعلمية والمادية كافة، ولا تبخل عليه بأي مقوم من مقومات الوجود الذاتي للإنسان، وأي عنصر من عناصر الانصياع للحق في كل صغيرة وكبيرة على ساحات الإنجاز المطلوب. الأمر الذي يعقب للأمة التمكين في الدنيا، والنجاة يوم يقف الناس لرب العالمين!!

والحق أن الذي يدعو إلى النشاط في العمل على الصعيد الحضاري عموماً، وإلى إتقان ذلك العمل مهما صادف المسلم من عقبات: أن استشعار المسلم الصادقَ لعبوديته للّه تعالى في هذا الكون الذي هو من مخلوقات اللّه، استشعاراً يصحب القول والفعل والحركة والسلوك: يجعل قيمة الأعمال في النفس مستمدةً من بواعثها الخيِّرة المتحققة خيريَّتها، لا من النتائج التي يطول أو يقصر أمد تحقيقها.

وإذا كان الأمر كذلك: فضمانة المسيرة المنتجة الواعية ـ مع الحرص على قابلية الاستمرار ـ كائنة بإذن اللّه، وإذا حصل غير ذلك: فَلْيُعَد النظرُ في القائم على التنفيذ، لأن التي حولها ندندن، مبرأة من عوامل الضعف والحمد للّه.

واليوم ـ والهجمات الشرسة على هذه الأمة التي يراد لها أن ترتد عن دينها بمنهجه المتكامل المتوازن للدين والدنيا والآخرة ـ تتفاقم، وتزداد نارها اتقاداً بلا هوادة: تبدو مراجعة الرصيد على صعيد الفكر الموجِّه، والعمل المستوفي شرائطه ضمن الثوابت والمتغيرات: ضرورة ملحة لا ينكر ضرورتها إلا مغفَّل أو مكابر!!

ولا بد أن يجهَّز الجيل الذي تعدُّه الأمة بمالَها من خيريّة وأهلية للشهادة على الناس: بما يجعله يقدم على القيام بالواجبات المنوطة به، والتكاليف التي هو مسؤول عن تحقيقها، في تثبيت المواقف وسلامة الخُطا في مواجهة التحديات، وهو ينظر إلى معنى العبادة الكامنة فيها، دونما تعليق الأمر على النتائج القريبة أو البعيدة؛ فحسبه أن يعمل وفق منهج قويم بنية خالصة وعزيمة قوية ثابتة، وخلقُ النتائج بيد اللّه عز وجل.

ذلك بأن المهم أن يُعبدَ اللّه بالعمل المجدي طاعةً له سبحانه بالامتثال، وأن يعبد بالاندفاع الذاتي الصادق على ساحة من العبودية الخالصة، وتوظيف التخصصات والإمكانات على طريق البناء الذي عُمدته حسنُ التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام، وذلك قمين بالظفر بمرضاة الكريم المنان الذي لا يُضيع ـ سبحانه ـ أجر من أحسن عملاً.

وفي هذا الإطار النوراني الكريم: ليس هنالك من جهد ضائع؛ فكل فرد من أفراد الأمة، رجالها ونسائها المكلفين والمكلفات ـ على مختلف الإمكانات والمواقع ـ مسؤول عن تحقيق العبودية لله تعالى في قلبه وعقله وجوارحه، وفي كل حركة من حركات الحياة التي يتولى إدارتها، والله جلَّ شأنه يتولى النتائج والمصير، وحاشا لله أن يضيع عنده عمل عامل، ونصره مؤكد لمن ينصره.

والمقولة التي لا تحتمل أثارة من لبس أو اشتباه: تكمن في قول الله جل ثناؤه في سورة النجم: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤٠-٤١].

وهي مقولة مباركة، حكمة كلُّها، وصدقٌ كلُّها تذكر ـ فيما تذكر ـ بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. وقوله جل ثناؤه في سورة النساء: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤].

وما أروع ما يذكِّر به قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية: ١٥]. بوجوب الحرص على العمل سليماً معافًى من الشوائب، والتذكير بأن صاحبه خليق بأن يتحمَّل نتائج ما تكسب يداه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وليس من نافلة القول التذكير مرة بعد مرة بما روى البخاري ومسلم وغيرهما من قول ـ النبي ـ عليه الصلاة والسلام: **«كلكم راع وكلُّكم مسؤول عن رعيته...»** الحديث.

وبعد: فإن هذا الذي يشير إليه المعلم القرآني ـ بدءاً من مستهل هذه الكلمات ـ قيمةٌ كبرى في إعداد البنية القادرة على الصمود في وجه الزعازع والأعاصير؛ ما كان من داخل النفس أو من خارجها؛ لأنها تحوِّل البواعث إلى طاقة تحرك وتدفع، بدل أن تكون لوناً من التعقيد والمعوقات بله المساومات.

لقد تعبَّد الله أمة الإسلام بتحقيق الرسالة الخاتمة، بناءً قويماً للإنسان المؤمن ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وللأسرة والمجتمع والدولة.

وكلٌّ حركة على هذه الساحة طاعةً لله تعالى: هي إسهام نيِّر خيِّر في تحقيق العبودية لله.

وما أعظمه ذخراً يجدد العزائم ويبعث الهمم، ويزري بالعوائق والصوارف، وتنمو معه دواعي الاستقامة والاستمرار.



عظم الغاية.. والبناء

إن عظم الهدف في تحقيق العبودية لله تعالى ـ بإخلاص نية، وطمأنينة قلب ـ يجعل من المسلم ـ كما سلفت الإشارة ـ إنساناً يعي الغاية من وجوده، ويحسّ بحقٍ أنه صاحب رسالة في البناء، عليه تحقيقها في كل ميدان مستطاع، طاعة لله عز وجل.

ومن ثمرات ذلك: أن موقفه من الواجبات التي تلقى على عاتقه، يكون موقفاً يتسم بالنظرة الواعية إلى معنى العبادة الكامن في العمل أو الواجب، لا إلى النتائج التي قد يطول أو يقصر أمد تحقيقها ـ على ما لها من قيمة ـ بذل كثيراً من أجل تحقيقها.

والحق أن النظر إلى معنى العبادة في كل جزئية من جزئيات البناء الذي يريده الإسلام للفرد والمجتمع، يباعد عن العبث، ويحول دون الإهمال وتحكُّم الجهل والفوضى.

فعبادة الله ليست عبثاً من العبث، ولا ملهاة تتقطع من خلالها أوقات الفراغ، ولكنها سَير واعٍ يحكمه الإيمان وسلامة الهدف، ويَستخدم لتحقيق هذا الهدف كل وسيلة نقية على صعيد العلم والتخطيط والتنفيذ ـ ناهيك عما يكون من استشعارها الصادق ـ أي العبادة ـ من تسامٍ على أوضار المادة والشهوات، في العبادات التوقيفية وما هو منها بسبب.

وهكذا تذوب ـ مع عظم الغاية ـ نفثات المعوِّقين، وخبال المنافقين، ويبدو طرق باب المشقة فرصةً مُتاحة للمسلم يحقق من خلال معاناتها والصبر عليها، مرضاةَ الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

وكم يسعف ذلك في تجويد العمل من جهة، والقدرة على تجاوز العقبات من جهة أخرى وذلك كسب عظيم.

وهذا الذي نشير إليه قد يفسِّر من بعض الوجوه ـ ولا ندعي اليقين ـ مجيء قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨] بعد قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولا يخفى أن من الإعجاز القرآني هذا الترتيب بين الآيات الذي ينفي أن يكون للعبودية التي أرادها الله من الخلق مقابلٌ مادي يقدمه البشر لمولاهم عز وجل على سبيل المعاوضة؛ فهو سبحانه غني عنهم وهم الفقراء إليه سبحانه، بل هو ـ جلَّ شأنه الرزاق ذو القوة المتين، وقد أُكِّد ذلك بقوله تعالى في السورة نفسها ـ سورة الذاريات ـ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

والإنسان مأمور بالسعي في طلب الرزق الذي هو بيد الله ـ إذ الأرزاق والآجال بيده سبحانه ـ وهو عندما يسعى إنما يسعى: امتثالاً لأمر الله، وبهذا السعي يصل بقَدَرِ الله إلى ما هو مقسوم له؛ فالمال مال الله.

وإذن: فالحافز على العمل، والانسياح في إعمار الأرض: هو طاعة لله تحقيقاً للعبودية، وليس لتحصيل مقابل يتراجع مع تلك العبودية، ولا للوصول الحتمي إلى الرزق نتيجة الأخذ بالأسباب، ها نحن أولاء نقرأ في سورة تبارك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [تبارك: ١٥].أرأيت ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً﴾. فهو الذي ذلّل الأرض للاسترزاق: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ عليكم المشي في طلبه ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾. أضاف الرزق إلى نفسه تقريراً لهذه الحقيقة.

من هنا قال أهل العلم بأن معنى الآية. أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له؛ فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم؛ فهو خالقهم ورازقهم، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: **«يا بن آدم تفرغ لعبادتي املأ صدرك غنىً، وأسدَّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسدَّ فقرك»** وعند الحاكم بإسناد صحيح: **«تلا رسول الله ﷺ ثم قال: «يقول الله تعالى: «يا بن آدم...» الحديث.**

وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله تعالى: «ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتَني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء».

وهكذا تكمن الغاية الكبرى في تحقيق العبودية لله تعالى، لما أن ذلك ينعكس على الشؤون والتصرفات والسلوك كافة؛ وإنه لأمر جلل، يبدأ من القلب مروراً بكل حركة في الحياة تتحقق معها رسالة الإسلام في بناء الإنسان، وحضارة الإنسان، والأخذ بيد الإنسانية إلى ما يهبها التساوق مع الفطرة وسنن الله، ويمنحها الطمأنينة في الدنيا في جو من العدالة محورها الإنسان من حيث هو إنسان خلقه الله في أحسن تقويم، كما يمنحها سعادة الآخرة. فأين غاية من غاية؟ وأين وسيلة من وسيلة؟

إن الغايات الهابطة التي تقوم بتحقيقها المبادىء المنحرفة اليوم: تُسلك لها السبل الهابطة، وتتخذ لها الوسائل المنحرفة، وذلك ما أوقع في التناقض والظلم وأشقى إنسان الحضارة المادية اليوم، ونحن أبناءَ العالم الإسلامي، نُرمى كل يوم بشرر تلك القيم الهابطة، وينالنا ما لا يوصف من أذاها وعدوانها على كل صعيد.

والنجاةُ من ذلك استمساك صادق بمعالم الكتاب وهدي السنة؛ يكون من ثمراته جيلٌ قرآني مجاهد في سبيل الله ـ بما للجهاد من أنواع وصور ـ يدرك الغاية الكبرى، ويتخذ لها الوسائل المناسبة.

بين الأمس واليوم

.. أثر الإيمان بوعد الله

«١»

هداية القرآن الكريم في معالمه الخيِّرة، قدر مشترك بين أجيال المسلمين بدءاً من عصر التنزيل وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد صاغت هذه المعالم الإنسان المسلم صياغة ارتفعت به في بحران الأوضاع المتردية في جزيرة العرب وفي العالم من حولها، إلى مرتبة أن يكون باني مجتمع متكامل لا يشكو فقدان عنصر من عناصر الوجود الذاتي في الفكر أو الاجتماع أو التشريع والاقتصاد، بله السلوك الخيِّر المستقيم، بل ارتفعت به إلى مرتبة أن يُسهم إسهاماً واضحاً قوياً في بناء حضارة سعد بها الإنسان...

ولن يعيد إليه الطمأنينة بعد القلق الذي يشكو منه في هذا العصر، إلا عودة واعية إلى منابعها الخيِّرة كما هي في رسالة الإسلام.

هذا وقد أذكرني ما رأينا من قريب مما حكت الآيات الكريمات في سورة آل عمران وسورة المائدة عن ثنتين من سيء الكلم افتراءً على الله وتفريطاً في جنب الأدب معه سبحانه، فقد سوّلت لهم أنفسهم زعم أن الله فقير وهم أغنياء في مقابل دعوة القرآن إلى القرض الحسن لله، وساءهم نقص مواردهم الاقتصادية الظالمة فزعموا أن الله لا يرزقهم لأن يده مغلولة!!! اذكرني هذا الهراء اليهودي الظالم ما فعل قول الله تعالى في سورة الحديد: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١]. في نفوس المسلمين وهم يخوضون معركة البناء الذاتي، وإنماء طاقات المجتمع في مواجهة المشركين والمنافقين واليهود، ناهيك عن الرواسب المعوّقة هنا وهناك. فقد روى ابن أبي

حاتم بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (لما نزلت هذه الآية ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله رسول الله يده، قال: فإني أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل ـ وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح ـ ونقلت منه متاعها وصبيانها، وأن رسول الله ﷺ قال: «كم من عَذقٍ رداح في الجنة لأبي الدحداح» وفي رواية أخرى: «رب نخلة مدلاةٍ، عروقُها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة» العَذق بالفتح: النخلة بحملها.

هذا نموذج من نماذج الأيدي البانية التي جنّدها رسول الله عليه الصلاة والسلام لمعركة التحويل، وتعبيد الطريق إلى مجتمع متماسك يسوده التعاون والود، وتحرسه أخوة الإسلام، فعندما تعمل العقيدة عملها في النفوس، تنمو حوافز الخير والعطاء. وتضّاعف القدرة على الإسهام الخيِّر والإنجاز، وتتعاظم الرغبة في مرضاة الله عزوجل على كل صعيد بحيث يتكامل عمل الخلايا المتناثرة في أرجاء المجتمع المسلم، وتتحقق الغايات الكبار بإذن الله.

هكذا بكل بساطة ويُسر، تجاوز الصحابي أبو الدحداح غريزة حب المال، وأقرض ربه بستاناً قوامه ستمائة نخلة، ووضع البستان في خدمة عملية البناء الكبرى، ونمت به القدرة المالية الموجهة لصالح المجتمع المسلم الوليد يومذاك.

هذا؛ والأمر الذي يجب الوقوف عنده: هذا الوعي الإيماني عند المرأة المسلمة يومذاك؛ فموقف زوجة أبي الدحداح، لا يقل أهمية وسمواً عن موقفه رضي الله عنهما، وإن كان هو البادئ بالخير... فعظيم جداً أن تقول له بوعي وسرعة استجابة لدعوة الخير: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ولا تلبثَ أن تتحول بمتاعها وصبيانها إلى البستان الآخر كما في بعض الروايات ـ وإذن: فالرجل والمرأة

جميعاً كانا على خط التأثر والانفعال الصادق بما تدعو إليه الرسالة التي آمن بها كل منهما، وأعطى الله ورسوله موثقاً من نفسه أن لا يبخل عليها بالطاعة، والجهد المستطاع.

مرة أخرى: نذكر هذه الواقعة المباركة لتتميز بضدها الذي رأيناه عند أعداء الله اليهود، وإنها لأمانة ثقيلة على طريق البناء والنماء.

وهذا الأنموذج الذي نراه في البيت المسلم عند أبي الدحداح وزوجه رضي الله عنهما واحد من نماذج كثيرة في كل ميدان، تتكرر بوجود الإيمان والتربية الحقة السليمة.. ولولا هذا التفاعل مع مقتضيات الدعوة ـ في كل ثغر ـ والانصياع لها: لَمَا تعاظم البناء ولما أشرقت على الدنيا حضارة الإسلام.



بين الأمس واليوم

.. أثر الإيمان بوعد الله

«٢»

القلوب العامرة بالإيمان. العقول المتفتحة بإشراقة الوعي والتبصُّر الحكيم. السواعد الفتية الأمينة التي تزوال ـ على ساحات البناء ـ تطبيق المنهج وإخراج التصور إلى حيز الوجود الناطق المتحرك.. كل أولئك بأمسّ الحاجة إلى مصاحبة الكلمة الهادية في معالم الفرقان الحكيم، وبيانها المتألق من هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وكلما نمت ملكة الوعي لهذه الحقيقة، وقاد الصدقُ معها خطواتِ الحركة والعمل، كان ذلك أدعى للتفاؤل بسلامة النتائج ـ بعون الله ـ والخروجِ بالجهود المبذولة إلى مستوى النفع الشامل، ورفدِ المجتمع بكل ما يمنح القوة والتماسك، ويقي العثرات بإذن الله. ذلك لأن بناء الإنسان في منهج الكلمة الهادية وبيانها: ملحوظٌ فيه الترابط الواضح بين الإيمان والعمل، الأمر الذي ينشىء البواعث الذاتية المتصلة بالعقيدة، وينمي الحوافز التي تكون أقوى من الصوارف والمعوقات.

ولا يعوز العاقلَ المنصف أن يستدل بذلك على أن ما يمليه المنهج الرباني ليس نظريات منحسرة عن قابلية التطبيق، كالذي اتسمت به بعض النظريات لنفر من الفلاسفة، ولكنه منهج تنطق بسلامته واتساقه مع واقع الإنسان وقابليته للتطبيق: حركته الواقعية الناعلة في دنيا الإنسان.

وليس عجباً أن نعيد إلى الذاكرة ما رأينا من قريب مما نقلت المصادر الموثقة عن موقف أبي الدحداح وزوجه رضي الله عنهما من التوجيه القرآني إلى الإنفاق في سبيل الله، وكان ذلك عندما نزل قول الله تعالى في سورة الحديد: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

وهو موقف يكشف عوار صنيع اليهود المستهتر الذي اتسم بسوء الأدب مع الله ومجاهرته سبحانه بالافتراء والدعوى الكاذبة الهابطة. صورةً عن الجشع البالغ، والحرص على وثنية المال، وأن تدوم لهم الكلمة الآمرة الناهية في ميدان الاقتصاد على المسلمين في المدينة وما حولها.

ومما يزيد الأمر وضوحاً للعاملين على ساحة البناء والتكوين، وتنمية ما لدى الفرد والجماعة من طاقات، ويؤكد فاعلية صياغة الإنسان على الارتباط الوثيق بين الإيمان والعمل في أبعاده جميعاً... أن هذا كلَّه قد عمل عملَه في أول الطريق، فكانت تلك النماذجُ الحيّة التي أعطت المثل العملي لتحوُّل المعرفة والتصوّر إلى حركة فاعلة في دنيا الواقع، ذلكم هو الجيل المبارك جيل الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان، ولسوف يشهد التاريخ على هذا الصعيد حلقات آخذاً بعضها برقاب بعض، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، إن نحن أحسنّا البناء، ولم نحدْ عن المنهج السويِّ الذي ينشىء ــ بعون الله الحوافز الذاتية عند الفرد والجماعة.

وليس من مكرور القول أن نشير إلى ما رأينا قريباً في معرض الكلام على شح اليهود وسوء أدبهم مع الله من ذلك الانفعال الصادق بين آية القرض الحسن في سورة الحديد وبين قلب وعقل الصحابي الجليل أبي الدحداح وزوجه رضي الله عنهما؛ فما إن سمع أبو الدحداح قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ حتى كان حسن الاستجابة إلى الإنفاق السخي في سبيل الله ومبايعة رسول الله ﷺ على توثيق ذلك، ثم كان حسن الاستجابة إلى ما يجب من الطاعة والتعاون على الخير من زوجه رضي الله عنهما وعن الصحابة أجمعين..

ولعل مما يمليه الحرص على تلمُّس الموقع الذي تأخذه الآية الكريمة المشار إليها في سورة الحديد ــ وهي سورة مدنية ــ التنبُّه إلى أنها جاءت بعد مجموعة من الآيات تتحرك الهداية فيها صوب عملية البناء الكبرى، وهي عمليةٌ حجر

الزاوية فيها الاهتمام بصياغة الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى، صياغة متكاملة تتسق مع تكامل المهمة التي تلقيها الرسالة على عاتقه، فيكون ذلك الإنسان الذي تفيض حركته بالعطاء والبذل بأوسع معانيهما، وينبثق عن ذلك ما يكون من صياغة مجتمع العقيدة الذي تعلن بنيته المتكاملة في الفكر والتشريع والاجتماع والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك: عن سمو المنهج وسلامة التطبيق.

أما الآيات المومى إليها: فهي قوله تعالى بدءاً من الآية السابعة: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ٧-١٠].

ولنا ـ إن شاء اللّه ـ وقفة قريبة، نتبيّن من خلالها أن هذه الآيات كما كانت هي وأخواتها منارات تهدي إلى بناء المجتمع الجديد على أسس سليمة متينة، يراعى فيها وضع كل من الإيمان والفكر والعمل موضعه الملائم... تبدو اليوم كأنها تتنزّل على الواقع في عالم الإسلام الذي يشهد ما يشهد من المخاض والحركة والتحديات من الداخل والخارج.. كأنها تتنزّل من أجل التحويل ـ بعون اللّه ـ إلى ما هو أفضل وأسلم وهذا من إعجاز القرآن الكريم..

وإنها لأمانة ثقيلة في أعناق القادرين على التنهيج بفهم وتبصّر للنصوص وإدراك لطبيعة الواقع، وأمانةٌ أثقلُ في أعناق من هم في موقع المسؤولية عن التنفيذ وللّه عاقبة الأمور.



بين الأمس واليوم

.. أثر الإيمان بوعد الله

«٣»

هذا حديث موصول بما أسعدتنا به دلالة الخطوط العامة لآيات من سورة الحديد، بدءاً من الآية السابعة فيها. إنها آيات تهدي للتي هي أقوم في بناء الفرد والجماعة في المجتمع المسلم الذي لم تقتصر أهمية وجوده على الجزيرة العربية وحدها، بل تعدت ذلك إلى الصعيد العالمي لأنه المجتمع الوحيد الذي قام على منهج رباني قاعدتُه سَداها ولحُمتُها الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، لقد هدت تلكم الآيات إلى إقامة ذلك المجتمع على وفق ذلك المنهج، فكانت الأسس وثيقة الارتباط بالعقيدة، كفيلةً بتكامل البنية من شتى وجوهها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وكما قدرت مع أخواتها في كتاب الله على البناء وتنمية الحوافز الذاتية التابعةِ من أعماق النفوس المؤمنة، فهي قادرة بعون الله على أن تكون لدينا الواقع اليوم، منطلقَ التحول المنشود، والتغييرِ الجذري إلى ما هو أفضل، مما يجعل الأمة على كفاية رفيعة في مواجهة التحديات التي لا تقتصر على ميدان دون ميدان!! ووفاءً بما تقتضيه الخطوة الأخرى، نعود إلى إيراد تلكم الآيات الكريمات وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ

أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ٧-١٠]. وبعد ذلك جاء قوله تعالى:﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ وقد ألمحنا في مناسبة خلت إلى أهمية الموقع الذي تأخذه هذه الآية الأخيرة في أعقاب سابقاتها، ويؤكد ذلك مجيئُها وهي تحمل تلك الصورة النديَّة السخيَّة التي تجعل الإنفاق في سبيل اللّه ومن مال اللّه الذي جعل المولى سبحانه عبادَه مستخلفين فيه، قرضاً حسناً له عز وجل. ومهما يكن من أمر: فالناظر المتأمل في الآيات، يجد نفسه أمام مشهد من مشاهد العملية التي حولها ندندن، عمليةِ البناء العظيمة المتشعبة الوجوه والمسالك، إنه مشهد، حافل بالحركة الموضوعية المتسقة مع فطرة الإنسان وأهليته وإمكاناته وطبيعة علاقاته بالكون والحياة، والرسالة المطلوبِ منه أداؤها والهدف الكبير الذي من أجله خُلق. وترى أن هذه الحركة تقيم بناء الفرد الذي هو نواة الجماعة على العقيدة التي جاءت وحياً من السماء، وتحكم الترابط بينها وبين العمل والسلوك، وتجعل من المجتمع صورة ناطقة لتعاليم رسالة اللّه التي تنزلت على سيد العالمين محمد عليه الصلاة والسلام، لما أن بُناة ذلك المجتمع هم أولئك المؤمنون الذين باعوا أنفسهم للّه ولم يبخلوا ببذل في أي ميدان من ميادين مجتمعهم الذي أنيط بهم بناؤه؛ فمن الأمر بالثبات على الإيمان، في مطلع الآية إلى الأمر بالإنفاق من المال الذي جعل اللّه عباده مستخلفين فيه إلى الترغيب بذلك الثبات المستنير والتذكير بالموثق الذي أخذه اللّه على المؤمنين، إلى بيان أن الآيات والحجج البينات تتنزل على رسول اللّه ﷺ لتؤدي غرضها في الإخراج من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والعلم والقوة والتأليف بين القلوب كل ذلك مع بيان أفضلية من أنفق من قبل فتح مكة وقاتل على الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ولكن الجميع موعودون بالحسنى من اللّه عز وجل لأنهم على مورد الإيمان، الأمر الذي نلمح من خلاله نموذجاً تطبيقياً للعلاقة الحميمة بين الإيمان والجهاد. من هنا اكتسب موقع الآية المتعلقة بالقرض الحسن للّه تلك الأهمية الخاصة التي ألمحنا إليها من قبل. فهي تأتي بعد تلك المجموعة من الآيات التي

تحمل أهم عناصر البناء، وتنمية قدرة الفرد وفاعلية المجتمع في ظل الرسالة الخاتمة التي جندت أبناءها كيما يكونوا بُناة مؤمنين صادقين في خضم أوضاع عالمية تلفّها ظلمات بعضها فوق بعض، وقد استقام البناء بحمد الله لما أن البُناة لم يحجموا عن بذل ممكن ولم يبخلوا بعطاء مستطاع، واستئنافُ المسيرة وفق هذا المنهج اليوم أمانة عالية وضرورة ملحة والله الموفق.



بين الأمس واليوم
.. أثر الإيمان بوعد الله
«٤»

ما من ريب في أن الإنسان ـ كما خلقه الله وكوّنه ـ هو المحور في عملية البناء المرادة للمجتمع والأمة، من أجل هذا، يرى الناقد البصير ذلك التساوق المشرق بين خلق الإنسان كما هو في فطرته وغرائزه وميوله وأشواقه، وبين ما كلف به وخلق من أجله، ولكن تبدو المفارقات عندما يحال دون الفطرة السوية ودون أن تأخذ مكانها الطبيعي على صعيد التكوين، ودون الغرائز والميول والأشواق ودون أن تأخذ مجراها الطبيعي في حياة الإنسان وهنالك تقع المخالفات وتضطرب الأمور. وعلى هذه الساحة يأتي دور الحافز المرتبط بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويعمل هذا الحافز عمله في إخراج القِيَم إلى حيز التطبيق العملي والتنفيذ السليم من خلال حركة الحياة الفاعلة بناءً في داخل النفس والمجتمع وقدرةً على مواجهة التحديات التي تستهدف بها القيم ويسعى الفرد والجماعة لتحقيقها. أرأيتم إلى دلالة المعلم القرآني وعطائه المشرق ـ كما أسلفنا من قريب ـ على الأهمية البالغة لموقع قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ في النفوس وأثره العميق في التفاعل الصادق مع التوجيه الهادي في الكتاب العزيز: أن يأتي الترغيب في الإنفاق في سبيل الله على هذه الصورة الندية السخية المثقلة بما يشعر المؤمن بفضل الله وقربه من عباده المؤمنين، فيكون الإنفاق الخالص المرضي لله تعالى قرضاً حسناً له سبحانه وهو الغني الحميد الذي له مقاليد السماوات والأرض... أن يأتي الترغيب في البذل الطيب على هذه الصورة وبعد آيات حملت ما حملت من مقومات البناء والإنماء.. أمر يشعر الأمة بما لهذا البذل من مكانة في

سلامة البناء واستدامة قوته كما رسمت معالم ذلك رسالة الإسلام، وقاد حركة إخراجها إلى الحيز العملي في بنية الفرد والمجتمع عقيدةً وسلوكاً محمد صلوات الله وسلامه عليه.

على أن الدرس العظيم الذي يجب أن يعيه الدعاة والعاملون على أن تستأنف الأمة طريقها إلى العمل بالإسلام، هذا الشمول في الترغيب الذي تناول بعد تقرير أن الإنفاق في سبيل الله قرض حسن لله... الوعد بالمضاعفة في الدنيا والأجر الكريم في الآخرة. الأمر الذي يشعر بما يجب من إعطاء هذا التكامل بين حب الخير في الدنيا وبين التصديق بموعود الله في الآخرة!!

وإذا تصورنا حجم التغيير الذي أحدثته الرسالة الخاتمة على الصعيدين المحلي والعالمي على يد جند الله الصادقين إيماناً ورغبة في كل ما نُدبَ المسلم إلى بذله في المال أو النفس أو أية طاقة أخرى.. إذا تصورنا ذلك بوعي ورغبة في استئناف السير على منوالهم، وكنا على ذكر من أبعاد هذا التغيير مع ما اكتنف ذلك من صعوبات في موروثات الجاهلية عند الفرد والجماعة، والعقبات التي لا يني اليهود والمنافقون والمشركون أن يضعوها على طريق العاملين كل ذلك ضمن ظروف الجزيرة العربية وموقعها الاقتصادي وبنيتها الاجتماعية قبليّة كانت أو غير قبلية بما يحكمها من قيم وموروثات، وغير بعيد عن ظروف العالم من حولها يومذاك.. إذا تصورنا ذلك على وجه الدقة ومراعاةِ الكليات وما ينبثق عنها من جزئيات هنا وهناك.. كنا أكثر إدراكاً لأهمية الاستجابة التي أثارها الحافز الإيماني مصحوباً بالقناعة المبصرة، ومن ذلك البذلُ الذي دعت إليه الآية الكريمة وأمثالها في كتاب الله عز وجل وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، سيما وأن الآية في سورة الحديد تأتي ـ كما سلفت الإشارة إلى ذلك ـ بعد مجموعة من الآيات التي أمرت بالثبات على الإيمان، كما دعت إلى الإنفاق، ورغبت في الجهاد في سبيل الله، وذكّرت بعمدة الرسالة الخاتمة في معالم الكتاب العزيز، وهي الإخراج من الظلمات إلى النور بأوسع ما يشمله مدلول ـ أو

مصطلح ـ كلٍ من الظلمات والنور من الناحيتين المادية والمعنوية في المجتمع. إذ إن الجاهلية بكل عقابيلها؛ بدءاً من الوثنية ومروراً بكل الأوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تئن منها المجتمعات... ظلماتٌ بعضها فوق بعض إلا ما كان من نزعات أخلاقية طيبةٍ في الجزيرة العربية تصارعها نزعات سيئة أُخر.

ونقيض تلك الجاهلية بدءاً من عقيدة التوحيد، ومروراً بكل ميادين الإصلاح والتغيير الجذري في كيان الفرد والجماعة، وعلاقة الأمة بعضها ببعض، وبالآخرين. واستبدال التبعية والخضوع لسلطان الآخرين والتقليد الأعمى، بالوجود الذاتي المستقل.. كل أولئك نور من نور الرسالة الخاتمة فيما أنزل الله على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام. وما بي من حاجة إلى تعداد نماذج الاستجابة التي أثارتها الحوافز الطيبة فهي كثيرة وفيرة والحمد لله، وقد ذكّرت من قبل بموقف أبي الدحداح وزوجه ويأخذ هذا الموقف أهمية بالنسبة للآية لارتباطه بها، وما صنيع أبي بكر وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم على ساحة البذل والإنفاق في سبيل الله مما يفيض به تاريخنا: ببعيد عن الأذهان، وكان له ما له من أثر في رفد القدرة على التحرك داخل المجتمع، وفي مواجهة الأحلاف الظالمة الخفية والظاهرة بين المشركين واليهود والمنافقين في الماضي، وإنه ليعمل عمله المثمر في الحاضر، لما أن معركة الحق مع الباطل طويلة شائكة متشعبة الميادين. وصلى الله على نبينا محمد إمام المتقين وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.



بين الأمس واليوم
.. أثر الإيمان بوعد الله
«٥»

هذا النداء العلوي بهذا الأسلوب الرفيع المعجز: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ الآية، ما كان لنا أن نغادره إلى غيره ـ والقرآن كله هداية ونور ـ قبل توكيد ما يشعر به موقع الآية ـ في سورة الحديد ـ من التكامل في منهج الإعداد والتكوين؛ فلقد جاءت الآية الكريمة بعد تلك المجموعة من الآيات التي ألمحنا من قبل إلى بعض من مراميها.. جاءت تطرق بالمؤمنين أبواب هدم الباطل وفسح المجال للحق أن يأخذ مكانه الطبيعي في بناء الفرد وتكوين الجماعة في ظل الرسالة الربانية التي نزل بها الوحي من السماء، وتُعِدُّهم لحمل الأمانة في شتى ميادينها، وتنمي فيهم بواعث العمل. وحوافز البذل والجهاد، واستشعار أن وجودهم الذاتي الحقيقي، يعني أول ما يعني، أن تكون كلمة اللّه هي العليا، وأن تكون قِيَم الرسالة هي المعيار لما هو حق وما هو باطل، في الشؤون جميعها، على طريق البناء للحضارة الإنسانية المنشودة، التي تُتيح ـ مع عمارة الأرض وبناء القوة الذاتية ـ سعادة الدنيا والفوز بالجنة يوم الدين.

أجل، ما كان لنا أن نغادر هذا المعلم إلى غيره قبل أن نلمح إلى بعض الأمور المهمة التي تبدو مرتبطة أيما ارتباط بإحكام البناء، وتنمية فاعلية المجتمع، بتوفير ضمانات العطاء والاستمرار، بجانب الأسس السليمة المتينة التي قام عليها البناء. فهذه الصورة المثقلة بندى حب اللّه لعباده الصالحين، وجميل فضله وإحسانه، والتي جعلت من الإنفاق الخيّر قرضاً حسناً له جل شأنه ليست وحدها في هذا الميدان، فليست قصْراً على هذه الآية في سورة الحديد، ولكنها بارزة في

عدد من المواطن الأُخر في معالم الكتاب العزيز، دليلَ الأهمية المعطاة للحافز الإيماني العميق، وللإنفاق في سبيل اللّه، بما يحمل من معانٍ وما يأخذ من أبعاد؛ لما لذلك من أثر في تماسك المجتمع وقدرته على النمو في الداخل، وعلى تبليغ الرسالة، ومواجهة التحديات في الخارج ففي الآية الثامنة عشرة من سورة الحديد نفسها يطالعنا قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد: ١٨].

ومما يدل على علاقة ذلك بالإيمان، وطبيعة النسب الصادق بين بذل المال وبذل النفس في سبيل اللّه عن طواعية واختيار: ما نجد من قوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: ١٩].

وفي الآية الخامسة والأربعين بعد المائتين من سورة البقرة نقرأ قول اللّه تباركت أسماؤه: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥] وفي توكيد لما أشرتُ إليه قُبيل هذه الآية من الارتباط الوثيق بين الإيمان والجهاد، وسمو الصلة النَسَبيَّة بين بذل المال وبذل النفس ـ واللّه أعلم ـ سُبقت هذه الآية بقول اللّه الحكيم الخبير: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤].

فليسمع ذلك سماع وعي وحسن تدبر لمعاني الآيات مجتمعة، وما تشرق به معالمها الخيِّرة: الصادقون في ارتياد القوة الذاتية للأمة، والإسهام في تغيير الواقع إلى ما به تحرُّر هذه الأمة في فكرها، وتشريعها وأرضها، وتمسك بعاتق الميزان في العالم من جديد!!

وغني عن البيان أن الدعوة إلى البذل الذي نلمح إليه كانت مبكرة في العهد المكي مع تقرير أن الإنسان لحب الخير لشديد. ها نحن نقرأ في سورة التغابن المكية قوله تعالى في خواتيمها: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [التغابن: ١٥-١٨].

ما لا أراه من مكرور القول: التذكير بوجوب إحكام الصلة بمعالم القرآن الهادية، ومنها هذا المعلم الكريم، سيما وأن ميادين البناء تحتاج ـ مع العلم والتجربة المتخصصة ـ إلى صدق الوجهة والحوافز الذاتية من الإيمان العميق بما أعد الله لمن آمن وأصلح العمل، ومراقبةِ الله عز وجل في كل ما يأتي المؤمن وما يذر. والله ولي التوفيق والحمد لله رب العالمين.



في التربية
خطوة على طريق البناء الثقافي

من الأمور التي تعمل عملها في التقاعس عن فهم آي الكتاب الكريم، وتدبرها، كيما يترجم الإيمان إلى عمل صالح يعود على صاحبه بالخير في قلبه وعقله وسلوكه، ويرفد المجتمع بمقومات الوجود الذاتي والنماء... من الأمور التي تعمل عملها في ذلك: القول بأن فهم القرآن إجمالاً وتفصيلاً منوط بأهل الاختصاص فحسب. وعلى هذا: فالمسلم الذي لا يملك قدرة فائقة متخصصة في مجال القرآن وعلومه، لا شأن له بأن يفهم أو يتدبر. وهذه قضية ألحقت وتلحق بالأمة أضراراً بالغة على صعيد الفرد والجماعة، خصوصاً فيما يتعلق بتكوين القدرة الذاتية في كل ميدان من ميادين الحياة التي أصبحت في غاية التشابك في ضوء كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم معطيات العلم من وراء ذلك... وعجلة الزمن لا تنتظر المتخاذلين ولا تعذر المتقاعسين.

ذلك لأن القرآن الكريم ـ وهو كتاب هداية ونور ـ جاء للناس جميعاً، ومن إعجازه أنه يستوعبهم جميعاً على اختلاف مواقعهم وأقدارهم في الفهم والإدراك. فالإنسان العادي ومن هو فوقه، ومن يكون في مرتبة التخصص أو يرقى إلى أعلى درجاته.. كل هؤلاء يجد الواحد منهم مقصوده الأساسي في كتاب الله مما به يكون المسلم مسلماً. وتظل آي الكتاب مجالاً رحباً لذوي التخصص في كل ما يحتاج إلى تعمق ومزيد من الدراسة والبحث، وذلك وجه من وجوه الإعجاز في كتاب الله العزيز؛ فالإنسان العادي يجد فيه طلبته بالقدر الذي هو محتاج إليه، وفي الوقت نفسه تجد فيه من المعاني ما يعوز الباحثَ

المدقق كثير من التبصر وحسن استخدام وسائل البيان، حتى يصل إلى المراد منها؛ فالقرآن الكريم كتاب هداية يُشرق برسالته الإنسانية قبل أن يكون مجال دراسة متخصصة فحسب، وهو في الحقيقة ذلك كله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨] وحسبك أنه هدىً للعالمين، ومن حقه علينا أن نفهم الهداية بأوسع معانيها وأبعادها في شتى الميادين والآفاق انطلاقاً من المعنى اللغوي الذي هو الدلالة إلى المعنى الاصطلاحي بعمقه وشموله.

ومن الواضح أن خطاب الرسالة أعطاه هذه السمة من الإعجاز بأنه يتسع لهؤلاء المخاطبين جميعاً لأن الهداية ليست قصراً على فئة دون أخرى، وكلٌ يأخذ على قدر استعداده وصدق طلبه، ويا حسرة على من ران على قلوبهم ظلامُ الضلالة، فهم لا يزدادون به إلا بعداً ومقتاً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولقد يسَّر اللّه القرآن للتذكُّر، ودعا العباد إلى هذا التذكُّر، فإذا لم يتذكّروا، فالعلة كامنة فيهم، وليس في الكتاب المجيد. ففي سورة القمر ـ وهي سورة مكية ـ جاء النص على هذه القضية الكبرى التي تعتبر في دنيا الإنسانية كلها إعلاناً يكشف عن تيسير القرآن للحفظ والتذكُّر وذلك من أجل الإيمان الصادق برسالة الكتاب الكريم والعمل بها، ذلكم قول اللّه جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر:١٧] لقد سهّلناه للحفظ وهيأناه فهل من مدّكر متذكر عامل به متعظ بهدايته وحافظ له؟ والاستفهام هنا من الناحية البلاغية بمعنى الأمر أي احفظوه واتعظوا به، فليس لكم عذر بعد أن هيأناه ويسَّرناه لذلك قالوا: وليس يحفظ عن ظهر القلب غيره. ومن الناحية المنهجية لا بد ـ على صعيد التربية والتعليم ـ من اتخاذ وسائل التذكر المطلوب، فكتاب اللّه ميسَّر لذلك.

ومما يؤكد هذا الأمر الذي نشير إليه أن الإعلان الرباني عن تيسير التذكير بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ الآية قد تكرر عدداً من المرات في السورة نفسها.

وإلى أن نلتقي على متابعة لهذه الخطوة وموقعها في البناء الفكري أود أن أشير إلى أن ذلك لا يعني الرضى بالعبث وأن يهرف كل امرىء بما لا يعرف ويعبث بكلام اللّه، أو أن تلوى أعناق النصوص فيساء تأويلها وتوضع غير موضعها.. معاذ اللّه أن أقصد إلى ذلك، ولكنها دعوة إلى عدم الاعتذار عن فهم الأمور الأساسية على الأقل بعدم التخصص طلباً للعافية، أو جفوة للكتاب الكريم وبعداً عن تلاوته وتدبره. أما التفسير بالمعنى الذي يقرره العلماء ـ على وجه العموم ـ: فلا بد له مع الإخلاص وصدق الوجهة من وسائل معروفة عند أهل العلم وليس هذا مكان سردها واللّه ولي التوفيق.



البناء
والمرتكز الأساسي.. للبنية الثقافية

«١»

القراءة المتدبرة لآيات الإنفاق في سبيل الله عموماً، وللآيات التي جعلت هذا الإنفاق قرضاً حسناً لله بخاصة.. تشدُّ إلى استجلاء ما يقتضيه هذا الأمر المهم، الذي رأينا إحكام الارتباط بينه وبين الإيمان ومقتضياته من جهة، وبينه وبين الجهاد في سبيل الله ـ في بعض الآيات ـ من جهة أخرى؛ وذلك كالذي رأينا في سورة الحديد من صلة القرض الحسن لله بخطوط عامة أساسية في منهج البناء والإنماء، وكالذي رأينا في سورة البقرة من صلة القربى بين قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥]. وبين قوله جل شأنه في الآية التي سبقت مباشرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤].

هكذا: أمرٌ بالقتال في سبيل الله، وتذكيرٌ للمؤمنين بأن يثبتوا على يقينهم بأن الله سميع عليم، ثم ترغيبٌ نديٌ سخيٌ ببذل المال في سبيل الله، من طريق جعل ذلك قرضاً حسناً لله عز وجل، والله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين سبحانه. ومعلومٌ أن المال عنصر جوهري في إعداد القوة المستطاعة التي أمر الله بها لجهاد الأعداء. وإذن فالعلاقة واضحة بين مدلولي الآيتين الكريمتين، وصلةُ القربى بينهما فيما ترميان إليه: لا ينكرها ذو بصيرة في كتاب الله.

على أن المرحلة المكية في حياة الدعوة، وما كانت توجبه المواجهة الصابرة، وإشعار الفئة المؤمنة القليلة بتكاليف رحلة البناء، وما يتطلبه التحويل من الظلمات إلى النور من عناصر ومقومات توظَّف في ظل العقيدة.. كل

أولئك ـ والله أعلم ـ يعين على مزيد من استجلاء الحكمة في الدعوة إلى القرض الحسن لله جل شأنه في العهد المكي، قبل أن يكون للقلَّة المسلمة سلطان على المجتمع يمكّن من إخضاعه للإسلام كما تبتغي، وتغنيه بالإيمان والعمل الصالح، وبالجهاد والمعرفة بما يقيم بُناه على أفضل الأسس، ويضمن له ـ بإذن الله ـ اضطراد النمو الخيّر والقدرة على الاستمرار. ففي سورة مكيّة هي سورة التغابن نقرأ في خواتمها قول الله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [التغابن: ١٥-١٨].

وبعد: فإن الذي يقتضيه الترغيب بالإنفاق ـ عموماً ـ وعلى هذه الصورة المشرقة بالغة الإشراق، صورةِ جعله قرضاً حسناً لله عز وجل، ضرورةُ وجود المال في حوزة المسلمين وأهميَّة تسيير الاقتصاد في قنواته السليمة النافعة، بما يتيح تثمير المال، وثروات الأمة عموماً، وأن يوظَّف ذلك على طريق الذاتية والنماء في مواجهة الضرورات والحاجات في الداخل، والتحديات في الخارج.

وعلى هذا: فمن لازم الترغيب الشديد بالإنفاق في سبيل الله، وبينه وبين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس ما بينهما من صلة القربى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[التوبة: ٤١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ١٠-١١]. وبينه وبين رفد المجتمع بما يضمن التعاون والتكامل والاستمرار: من وثيق الصلة ما بينهما.. من لازم هذا الترغيب في الإنفاق في سبيل الله والجهاد بالمال: أن يستشعر المسلم مسؤوليته على ساحة المال والاقتصاد، والإسلام قد رسم الحدود وأوضح المعالم، ودور الاقتصاد اليوم في البناء الذاتي ومواجهة التحديات ـ وما أكثرها ـ لا ينكره إلا مكابر. فإذا كنا مع معالم الهداية في كتاب الله! كنا على المورد العذب عملاً للدنيا والآخرة، وقدرة على استئناف أداء رسالتنا في العالمين.

البناء
والمرتكز الأساسي.. للبنية الثقافية
«٢»

كانت لنا من قريب وقفة عجلى مع واحد من المعالم القرآنية في سورة القمر، وهي سورة مكية، وذلك فيما دل عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر:١٧]: من أن الله تعالى سهّل كتابه الكريم للقراءة والحفظ، وهيّأه للتذكر والاتعاظ بهدايته، ولذلك جاء الأمر بالحفظ والتذكر على صورة الاستفهام في قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ و«من» هنا تعني مزيداً من الشمول للأفراد المكلفين، أي احفظوه أيها المسلمون وتدبروه واتعظوا به لأن الله يسَّر حفظه وتذكر معانيه. وروى ابن أبي حاتم بسنده عن مطر الوراق في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾«هل من طالب علم فيعانَ عليه»؟ وكذا عقله البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق ورواه ابن جرير وروى عن قتادة مثله. ودلالة تكرار الآية واضحة في توكيد المعنى المراد، وإغلاق الباب دون التعلّلات والمعاذير!! وأعني بالتعلّلات والمعاذير: تلك التي يراد منها طلب العافية من حمل مسؤولية العلم لأنها إيذان بوجوب العمل وتحمل مسئوليته في نفس القارىء المتدبِّر وفيمن ولاه الله أمرهم على صعيد الأسرة، وأي ثغر أقامه الله عليه في المجتمع.

وهكذا يكون اصطحاب هذا المعلم القرآني بوعي وحسن تدبُّر: ضرورة من موجباتها الحرص على سلامة البناء الثقافي، هذا البناء الذي لا بد له من صلة متينة بالقرآن الكريم تلاوةً وتدبراً بوصفه محتوى رسالة الله الخاتمة إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، ومصدرَ الهداية الأول، وكليَّ الشريعة، وأصلَ أصولها. وعلى هذا، فالمفروض أن تتصل الأجيال بالفرقان الحكيم، كيما تسلم

لها الركيزة الأولى في البنية الثقافية، معرفة وسلوكاً ومنهج تفكير، وتكون قادرة على العمل بمقتضيات الإيمان، وتبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين.

ولعل من حكم التيسير الذي نصت عليه الآية الكريمة، هذا الأمر المهم الذي نلمح إليه، وهو يُسر، اتصال الأجيال بمصدر الهداية الأول دونما توقف عند التخصص الدقيق في كل قضية من قضاياه، وتنميةُ الشعور بمسؤولية الرسالة في المنهج الرباني المستوعب لكل شؤون الحياة، مع التوجيه الجازم العميق إلى أن تكون الآخرة نصب أعين المكلفين، فيتطلعوا تطلعاً صادقاً إلى أن يفوزوا برحمة الله وفضله، فيزحزحوا عن النار ويدخلوا جنة النعيم. نقرأ في ذلك ما يزيد الأمر وضوحاً وهو قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

وهذا لا يعني ـ كما أشرت من قبل ـ أن يفتح الباب على مصراعيه، ليقول في القرآن الجاهلون، وأهل الأهواء، معاذ الله أن يراد ذلك، ولكن الذي أردت: ما هو في حدود معنى الآية من التذكّر والاتعاظ، حيث يكون الانفعال والتأثر، وإدراك الأمور الأساسية في الدين، من أجل الائتمار بما أمر الله والانتهاء عما نهى عنه، وترجمة الإيمان إلى عمل صالح في كل جانب من جوانب الحياة، وأن لا يتعذر متعذرٌ لتهاونه وبعده عن القرآن بأنه ليس من أهل الاختصاص، فالانتفاع بالهداية والعمل وفقها شيء، والتخصص شيء آخر. وعلى هذا: فما لم يدره المكلف يسأل عنه أهل الذكر ليصل إلى ما يريد.

ثم إن المفروض أن لا يؤخذ كتاب الله تفاريق من هنا وهناك؛ فكما يسَّر الله القرآن للذكر، دعا إلى العلم والاستنارة، وكانت فواتح سورة اقرأ، وهي أول ما أنزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام، إيذاناً بالأهمية البالغة لهذه القضية الكبرى وأنها هي المفتاح الأول للخير المنشودة في حياة الأمة. والفواتح المومى إليها: هي قوله جل وعلا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ

﴿ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥ ﴾ [العلق: ١-٥]. والدعوة إلى العلم والتعلُّم والتعليم في الكتاب والسنة من أبجديات هذا الدين والحمد لله. وإذن، فهما خطان متوازيان مشرقان: علم وتعلُّم وتعليم، وقراءة للقرآن الكريم وحفظ وتدبر وعمل واتعاظ.

ومما تجدر ملاحظته أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ قد تكرر في السورة نفسها ـ سورة القمر ـ عدداً من المرات، وهي سورة مكية لا تكاد تبلغ أربع صفحات عادية في خمس وخمسين آية من قصار الآيات. كما أن في سورة الدخان ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ ما يؤكد أمر التيسير لأجل التذكر، ذلكم قول الله تعالى:﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾ [الدخان: ٥٨] على أن الدعوة إلى التذكر ـ كما في هذه الآية من سورة الدخان وسابقاتها من سورة القمر قد تكررت في عديد من المواطن في القرآن الكريم في العهد المكي، ودلالة ذلك لا تخفى. ففي سورة ص ـ على سبيل المثال ـ نقرأ في الآية التاسعة والعشرين قول الله جل شأنه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩] وألو الألباب هم أولو العقول. وتطالعنا سورة القصص بقوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥١﴾ [القصص: ٥١] وغير ذلك كثير، ناهيك عما ورد من الأمر بالتدبر والتذكر في القرآن المدني، والنعي على المنافقين أن من خصالهم أنهم لا يتدبرون القرآن وهو ما نجده في قول الله سبحانه في سورة محمد ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

نعود إلى القول بأن النص على تيسير القرآن للتذكر، والأمر الجازم بهذا التذكر والدعوة إليه في عديد من آي الكتاب الكريم، ناهيك عن الدعوة الجازمة أيضاً إلى التدبر، كل أولئك يوجب أن يوسّع لذلك في إعداد الجيل المسلم ذكوره وإناثه، كيما يكونوا على النبع الأصيل في الصلة بهداية الكتاب، وكيما يسلم للبنية الثقافية مرتكزها الأصيل، ولذلك ما له من انعكاسات طيبة في استثارة

العقل وسلامة التفكير والسلوك، وفي القدرة على مواجهات التحديات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وردّ العاديات التي تَلْبَسُ أكثر من لبوس. والحاجةُ إلى ذلك في ساحات البناء حاجةٌ ملحة يؤكدها واقع تعيشه الأمة فيما ينوشها من سلاح الغزو الفكري والثقافي، ومن فراغٍ يشكوه كثير من الشباب لا تملؤه إلا الكلمة الهادية من كتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وتحقيق ذلك يتطلب الإخلاص، والقناعة، والمنهج الدقيق في التعليم والتربية والإعلام ولا تسل عن دور الأسوة الحسنة عند الحركة والتطبيق. والله الموفق.



البناء
والمرتكز الأساسي... للبنية الثقافية
«٣»

في كلمات موصولة بما كنا بصدده فيما سلف من القول، وما كان من عطاء المعلم القرآني في قول الله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧] وقوله تباركت أسماؤه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨] تجدر الإشارة إلى نقطة مهمة تتعلق بأمر التذكر في العهد المكي ـ أي في وقت مبكر من خطاب الرسالة ـ وما رأينا من قوله تعالى في سورة ص: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

تلك النقطة هي أن هذه الآية الكريمة، قد سبقت بآية يدور معناها ـ كما يبدو ـ على تقرير سنة من سنن الله تعالى هي: أن الجزاء مرتبط بالعمل، وأن قيمة الإنسان تتعلق تعلقاً وثيقاً بما قدَّم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وذلك من عدل الله تعالى وعظيم حكمته سبحانه؛ ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[ص: ٢٨] تنفي الآية الكريمة من طريق الاستفهام الإنكاري في (أم) ـ همزة الإنكار ـ أن يجعل الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؛ إذ أنّى يستوي أولئك وهؤلاء؟ وتنفي أن يجعل سبحانه المتقين كالفجار، فأين الفجار المخالفون عن أمر الله من أهل التقوى؟ لا يستوون عند الله في عدله وحكمته جل شأنه.

هكذا تطالعنا سورة ص المكية بآيتين متتاليتين، هما قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٨-٢٩]. ومن

التدبر والتذكر: أن يكون المسلم على وعي وإدراك لتلك السُّنّة الإلهية في علاقة الجزاء بالعمل وتحمّل المسؤولية، وارتباط القيم بما يقدم المرء بين يديه؛ فلا يستوي عند اللّه من آمن وعمل الصالحات ـ وما أوسع مدلول العمل الصالح ـ ومن كان ديدنه الفساد في الأرض وحب الإفساد، وكذلك لا يستوي الذين يقفون عند حدود اللّه ويحرصون على دوام الصلة بربهم وهم المتقون، وأولئك الضالون الوالغون في العَماية والإثم، وهم الفجّار. وأحسب ـ واللّه أعلم ـ أن التذكّر المطلوب هنا لا يحتاج إلى تعمق وسعة اختصاص في البحث. والاعتذارُ بعدم المؤهل هروب مما هو في حدود البساطة، ويُسرِ التذكر الذي أكرم اللّه به العباد، لكيلا يكون بينهم وبين فهم الأمور الأساسية في الهداية، معوقاتٌ ولا حواجز.

وتذكُّر السنة الإلهية التي نلمح إليها، ربما شدنا إلى بعض النماذج الأخرى في العقيدة وإدراك الخطاب بأركان الإسلام، ومعرفة الخطوط العامة في الحلال والحرام، وما به يكون الخير للفرد والجماعة في الدنيا والآخرة ـ على وجه الإجمال ـ وما به يكون ما هو غير ذلك. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الصمد: ١-٤] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣] ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧] ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ۝٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[البقرة: ١٨٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

وهذا كله على سبيل المثال لا الحصر، مما لا يعذر مسلم بعدم تذكره والعمل بمقتضاه. والحريصُ على دينه ونجاته في الآخرة يحتاط لذلك ويسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم. والذين قام البناء المبارك على أيديهم في الصدر الأول لم يكونوا

العبادلةَ الأربعة وغيرهم من علماء الصحابة فحسب ولكن كان معهم أولئك الذين يمثلون الاتجاه العام تذكراً وتدبراً، يعملون بالآيات ذوات العدد القليلة ثم ينتقلون إلى غيرها. والله الموفق.



البناء
والمرتكز الأساسي.. للبنية الثقافية
«٤»

البناء الثقافي ومكانه المتميز في عملية البناء ـ على عمومه ـ في المجتمع، وأثر ذلك في تكوين الفرد وسلامة الجماعة، كل أولئك مما حملنا على الذي أشرنا إليه في حلقات سابقات من عطاء المعلم القرآني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر: ١٧] وتكرار هذه الآية الكريمة مراتٍ أربعا في سورة القمر المكية على قصرها.

ولقد بات واضحاً أن ما يراد من التذكر الذي يسّره اللّه تبارك وتعالى، لا يعني القعود عن طرق أبواب المعرفةِ بكتاب اللّه العزيز، وأخذ النفس بسلوك السبيل القويمة للفهم السليم، وذلك بإعداد العُدة العلمية التي لا بد منها؛ فالدعوة إلى العلم والتعلُّم والتعليم قائمة ـ كما هو معلوم ـ بجانب هذا التيسير، ثم إن القرآن الكريم زاخر بالأمثلة التي لا يحتاج تذكرها من أجل العمل بهدي الكتاب، والتفاعل مع رسالته في البناء الصحيح المتكامل على صعيد الفرد والجماعة: إلى تخصص رفيع متميِّز، وقد أشرت إلى بعض منها فيما سبق. كل هذا من أجل أن لا يكون عدم توافر الاختصاص، مدعاةً للتفلت من واجب العمل بكتاب اللّه تعالى، طاعةً وسلوكاً وجهاداً، والمفروض بالمسلم أن يكون ـ وقد أعطى اللّه موثقاً على الإيمان من نفسه ـ حريصاً الحرص كلَّه على الوفاء بالعهد الكبير، فيكونَ على بينة من أمره فيما يأخذ وفيما يدع، وأن يتحرى لدينه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وعلى هذا: فالمطلوب على صعيد البناء الثقافي الذي لا يقتصر على المعرفة بل يتجاوزها إلى السلوك، وما ينبغي من توجيه الفرد وِجْهَةَ الحركة والعطاء والانفعال بالرسالة التي حملها الكتاب الكريم وبيَّنها بالقول والفعل، وحسن

الأسوة: رسولنا عليه الصلاة والسلام.. المطلوب: أن تتخذ الوسائل الناجعة على مستوى المناهج والتطبيق في إحكام الصلة بين هداية الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبي صلوات اللّه وسلامه عليه، وبين أجيال الأمة ذكورها وإناثها، بصرف النظر عن تهيئة المناخ المناسب لوجود الدارسين والعلماء الباحثين والمتخصصين. واللّه تبارك وتعالى قد أخبر ـ ومن أصدق من اللّه حديثاً ـ أنه معين على التذكر والاتعاظ، وميسِّر لمن يصدق في طلب ذلك...

وما أعظم أن تتخذ تلك الوسائل والأسباب على صعيد التربية والتعليم والإعلام، وغير ذلك مما يتصل بالتكوين والإعداد، في ظل الاقتناع بأن تيسير اللّه قائم لمن شاء التذكر والعمل بخطاب التكليف في كلام اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولسوف يكون من ثمرات ذلك ـ بعون اللّه ـ جيل قرآنيٌّ ليس عنوانه تخصصاً في دراسة القرآن وعلومه ـ وإن كان هؤلاء الدارسون ركناً ركيناً فيه ورواداً له، وبخاصة من يوفق منهم لصدق الوجهة والإخلاص في خدمة كتاب اللّه ـ ولكنه أشمل وأعم من ذلك، لأن هذا الجيل الذي ينطلق من الإيمان وصدق التوجه إلى الفهم والتذكر: ذو مفهوم وثيق الاتصال بشمول رسالة القرآن بهديها، وإشاعتِها الحياة في كل الميادين، بدءاً من العناية بالإنسان المسلم، وصياغته في فكره، وخوفه، ورجائه وتطلعاته: تلك الصياغة الفريدة المتميزة التي تتوافق مع الفطرة، وتنمي حسن التعامل مع الكون والحياة، وذلك في ضوء المنهج الرباني الذي لا يدع جانباً من جوانب البناء على صعيد الفرد والجماعة، بل والأمة، إلا ملأه بالمثمر النافع.

من أجل ذلك تدخل في إطار المقومات التي تسهم في إمكانات هذا الجيل المومى إليه، وقدرته على العطاء: كل التخصصات النافعة التي لا مندوحة عنها لإقامة المجتمع القوي في عقيدته الذي تخالط بشاشتُها قلبه، والشريعة

التي تحكمه، وفي علمه وبناه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وطرائق سلوكه، وفي حريته التي تعمل عملها البنّاء ضمن ضوابط الدين الحنيف.. ولا تسل عما به تحقيق الإعداد المأمور به في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفي خاتمة المطاف: يحسن التنبيه هنا على أن هذه القضية التي نحوّم حولها، تقف على الخط المقابل لما عند غيرنا من فكر (رجال الدين) بالمعنى الكهنوتي؛ فالأمة كلها ـ في المعيار الإسلامي ـ مطالبة بالتذكر المشار إليه، وهذا لا ينافي ما هو من أبجديات الحياة العلمية عندنا، وذلك ما ينبغي من وجود علماء أكفاء، يؤتمنون على تفسير كتاب اللّه وفق ما يجب أن يتوافر للمفسِّر من كفايات ووسائل. وهكذا يقطع القرآن العذر عن القعود المتماوت عن تدبر القرآن وتذكُّره، سيما والأمة تعزم عزمها على استئناف طريق العطاء الحضاري الأمثل، بعد تحررها من ركام المعوقات، فاللّه يسّر القرآن للذكر وأوجبه، وهو سبحانه معين لمن يطلبه ويسلك السبيل إليه. وعلى الذين حُملوا أمانة بناء الإنسان وتكوين أجيال الأمة، أن يتقوا اللّه في أنفسهم وفي أمتهم، ولا يألوا جهداً في تحقيق ما ندبهم الواجب الإسلامي إليه وهم يُعدُّون الأجيال للنصر في معركة تحقيق الذات، واللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.



الفرد والجماعة
على ساحة التذكر والبناء

الرحلة المباركة ــ على قِصَرها ــ مع عطاء المعلم القرآني في سورة مكية هي سورة القمر، أجدها وقد وقفت بي عند آية كريمة في سورة مكية أخرى ــ هي سورة مريم ــ ففي خواتم هذه السورة التي بلغت ثمانياً وتسعين آية، نقرأ بدءاً من الآية السادسة والتسعين قول الله جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٦-٩٨].

تأتي الآية الأولى على ما يثمر الإيمانُ والعملُ الصالح من إكرام الله جماعة المؤمنين الذين ترجموا إيمانهم إلى عمل خيِّر يصلح به أمر الفرد والجماعة: من أنه سبحانه سيجعل لهم وُدّاً فيما بينهم، فيتوادُّون ويتحابُّون في الله، ويحبُهم الله تعالى. وتلك هي صورة المجتمع الذي يبني على العقيدة الصحيحة، وتوجُّهه قِيَمٌ سلوكية نابعة من تلك العقيدة؛ فترى أخوّة الإيمان، وملء ميادينها العمل الصالح، والحوافز الخيرة لبناء متكامل، تتعاون عليه العقول والقلوب والأيدي. وتنمو من خلاله الطاقات التي تمكّن للجماعة، وتسير بها نحو الأفضل والأقوم.

وتجيء الآية الثانية التي تلي؛ لتعلن إعلانها في تيسير القرآن بلسان العرب لسان محمد عليه الصلاة والسلام، للتذكر، وذلك على صعيد البشارة والنذارة؛ فالبشارة للمتقين الفائزين بالإيمان والاستقامة على هداه، والنذارةُ وهي التخويف والتحذير، لأولئك اللُّدِّ وهم الذين يجادلون بالباطل ويظاهرونه على الحق، وكان ذلك صنيع كفار مكة. والبشارة والنذارة من أكرم صفات النبي عليه الصلاة والسلام وهو يحمل رسالة ربه إلى الناس، فبلغها بأمانة، ولا يني

يبصّرهم طريق السعادة والفوز يوم الدين، ويصبر على ذلك ويربيهم عليه؛ إنه ﷺ البشير النذير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]. ثم ختمت الآيات بمزيد من الوعيد للكافرين، وتذكيرهم بسنة الله الماضية في أخذ من لا يستجيبون لدعوة الحق الناصعة التي قام عليها الدليل، وأيدتها الحجج والبراهين ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٨].

وإذن فالارتباط قائم بين تيسير القرآن للذكر وبين الاستجابة وعدمها، والمطلوب من الناس أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم للقرآن، وأن يسلكوا السبيل التي تعينهم على التذكر كيما يعملوا، ولسوف يجدون أن القرآن ميسَّر لذلك ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

يسّره بلسانه وهو اللسان العربي ـ كما لا يخفى ـ وقد أشرتُ إلى ذلك من قبل. وعلى هذا: فالعناية بالعربية ضرورة يمليها الحرص على فهم الكتاب الكريم تذكُّراً وتدبراً. وهكذا: ما على الرسول ﷺ إلا البلاغ، وعلى المدعوين الاستجابة والتذكر. وما نحن بصدده يأخذ بأيدينا إلى ما افتتحت به سورة الكهف وهي من طوال السور المكية من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١-٢]. وإلى الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من سورة الزمر المكية، أيضاً، وذلكم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨].

ألا إن قمة الوعي عند الأمة أن تدرك ـ وهي تستأنف رحلة البناء جاهدة في أن يكون لها من الوسائل ما يكفل استمرار الرحلة وجدواها ـ أن تدرك الأهمية القصوى في المفهوم الحضاري الصحيح لوضع الهداية القرآنية موضعها من المنهج والتطبيق، وصياغة إنسان البناء والمواجهة في ضوئها، وتنمية قدرتها

الذاتية التي تضمن ـ بعون اللّه ـ الاستقلالية والتميز في القول والعمل، سيما وقد يسّر اللّه القرآن للذكر، وائتمن الأمة على التذكر وأوجبه عليها. وإنها لمهمة الجيل الذي يناط به ما يعيد للأمة جدارتها بقيادة ركب الإنسانية من جديد.

وصلاة اللّه وسلامه على من ائتمنه اللّه على بيان كتابه فأدى الأمانة على خير وجه وعلى آله وصحابته ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.



المسؤولية والجزاء
وأثر الإيمان باليوم الآخر في السلوك

الآيات التي وَقَفْنا عليها المعلم القرآني من قبل فيما مضى وهي قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزخرف: ٦٧-٧٠] هذه الآيات الكريمات كانت مؤشراً واضحاً على طريق التحويل الذي تجري الإلماحة إليه في العهد المكي، وعلى النقلة الواسعة على ساحة البناء الاجتماعي بين جاهلية لا تهتم بما يضمن سلامة الجماعة في علاقة الأفراد بعضهم ببعض، كما لا تقيم في كثير من الأحيان وزناً للأنثى.. وبين دعوة التوحيد التي عملت على تقويم الاعوجاج وتنقية المجتمع من شوائب الظلم وعوامل التخلخل، ومن تلك الأحكام التي لاسند لها من الفطرة ولا من الحق.

ولعل من الخير أن ننبه إلى أن هذه الآيات المشار إليها، تلاها تفصيل لصورة من إكرام الله لعباده المؤمنين وأزواجهم في الجنة؛ فبعد قوله سبحانه: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ نقرأ قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: ٧١] إن ما تركون لله في الدنيا، وما بذلوه في سبيل الله من الأنفس والأموال وغيرها. عُوِّضوا عنه في الآخرة بهذا النعيم في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وفي خاتمة هذه النفحات الشذية المباركة، يطالعنا قول الله جلت حكمته: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣].

وهذا الذي نرى دالٌّ بوضوح على ما أشرنا إليه غير مرة من ارتباط الجزاء في الآخرة بما يكون من المسؤولية في الدنيا. صحيحٌ أن الزحزحة عن النار ودخول الجنة إنما يكون برحمة الله عملاً بقوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما: **«لا يدخل أحدَكم الجنةَ عملهُ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»** ولكن المنازل في الجنة تتفاوت بتفاوت الأعمال.

أقول: صحيح هذا ـ كما يرى المحققون ـ ولكن يظل الارتباط بين المسؤولية والجزاء قائماً، فالعمل الصالح يستمطر رحمة الله تعالى، ويؤهل صاحبه لهذا الفضل العظيم. وكل ما جاء من النصوص التي تنطق بهذا الارتباط تُحمل على ما ذكرنا، فمن صدق في طلب النجاة من النار والفوز بجنة النعيم، فليسلك لذلك سبيل العمل الصالح وتقوى الله في السر والعلن، كيما يكون من الذين ينشر الله عليهم رحمته في الآخرة ويحظون بالفوز الكبير.

على أن الذي لا يجوز إغفاله ـ على هذه الساحة ـ ما يترتب على الارتباط المومى إليه، من إحداث اليقظة عند المسلم، والحرص على تجويد العمل المنوط به في الدنيا، بجانب ذلك التطلُّع المبارك إلى مرضاة الله في الآخرة، بل إذا حسنت النية وصدق العبد الوجهةَ، كان العمل كلُّه في حيز المثوب عليه إن شاء الله، لأن العمل الدنيوي نفسه إذا انضبط بضوابط الشريعة، وصحبَه الإخلاص وحسن النية كان من عمل الآخرة وذلك من فضل الله عز وجل على هذه الأمة، كما بين ذلك المصطفى عليه الصلاة والسلام.

هكذا تعمل الآيات عملها في تربية المسلم والمسلمة على وضع الطاقات والإمكانات والوقت فيما يرضي الخالق المقدِّر تبارك وتعالى، وعلى تنمية الشعور بواجب أن يكون كلٌّ منهما على مستوى التطلعات النافعة في الدنيا، والشوق إلى

النعيم المقيم في جنة الخلد يوم يقوم الناس لرب العالمين. وهذا يتسق مع كون الإسلام رسالة بناء لا تنحسر عن ميدان من ميادين الصلاح والإصلاح في العاجلة والآجلة، كما يتسق مع حقيقة أن مسؤولية التحويل إلى ما هو الأفضل والأقوم: واقعة في المجتمع المسلم على عاتق الإنسان الذي أعطى من نفسه موثق الإيمان للّه عز وجل، سواء في ذلك الرجل والمرأة، ما دامت أهلية التكليف متوافرة، كلٌّ في حدود طاقته وقدرته على الالتزام والعطاء.

وهذه الحقائق مجتمعةً جديرة أن تضع الرواد، ومن أولاهم اللّه بناء الأجيال وتوعيتها ـ في ظل الملابسات الطارئة والظروف ـ موضع الاهتمامِ البالغ، وتقديرِ الأمور قدرها بأسلوب لا تعوزه الأصالة ولا ينبو عن لغة العصر في الخطاب والأسلوب. وذلك من أهم العوامل التي تختصر ـ بعون اللّه ـ المسافة بين الواقع المشتكى منه. وبين ما يجب أن يكون. وللّه الأمر من قبل ومن بعد وهو جل وعلا يتولى عباده الصالحين.



الوسطية.. والشهادة على الناس
البناء... والانتماء

«١»

العناية بالروابط الجذرية بين الفرد وأمته، وبذلُ كل ما من شأنه تنمية هذه الروابط وتقويتها.. قضية كبرى لا بد أن تأخذ حجمها الطبيعي في بناء الفرد وإعداده، كيما يكون الطاقة الفاعلة في كيان الجماعة، والعنصر المؤثر في وضع قُدراتِ الأمة البشرية والاقتصادية وغيرها موضعها المُنْتجَ المثمر.

إذ كلما ازدادت هذه الروابط نماءً، وتعاظمت قوةً، اتسعت آفاق الفرد، واتسعت معها ساحة الثقة بنفسه، وبرسالة أمته، وأقبل يعمل ويبني ويوظف طاقاته كلَّها تحت راية تلك الرسالة، فتراه يبذل ويعطي بطمأنينة ورضىً لا يضعف من شأنهما في نفسه ما يعرض للعاملين من صوارف ومعوقات.

وهذا ما يجعلُ الإمكانات كلَّها، روافدَ على طريقِ البناء الذاتي في المجتمع، ويُسهمُ إسهاماً ملحوظاً في تصنيف الاهتمامات والأولويات، حيث يتحرك البُناة الأوفياء لأمتهم بحوافز من داخل النفس ضمن منهج مرسوم وخطة محددة المعالم.

ولعل مما ينمي تلك الروابط ويزيد من فاعليتها ـ بعد الإيمان ـ: أن يصحبَ الفردَ ويسودَ المجتمع شعورُ الانتماء إلى أمة لها خصائصها ومميزاتها؛ ومن ذلك ما أكرمها الله به، حين جعلها أمة وسطاً خياراً عدولاً، وارتفع بها إلى مستوى الشهادة على الناس يوم القيامة ـ من سبق منهم زمنياً ومن لحق ـ ذلكم ما يهدينا إليه المعلم القرآني في سورة البقرة حيث تطالعنا الآية الثالثة والأربعون

بعد المائة بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

فكما هداكم الله إلى الحق: جعلكم في مستوى الوسطية خياراً عدولاً، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، حيث تشهدون لرسلهم عليهم الصلاة والسلام بأنهم بلغوهم رسالات ربهم، وتشهدون عليهم إلى أي حدٍ كانت استجابتهم للتبليغ قَبولاً، أو رداً والعياذ بالله.

وما من ريب في أن إكرامَ الله لهذه الأمة باختيارها لهذه الوسطية والشهادة على الناس، كان من لازمه أن خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج، فالعقيدة ـ وهي الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ـ عقيدة الفطرة. والعلم أصل من أصول البناء وبشتى وجوهه. والشريعة ناسخة لما قبلها من الشرائع مؤهلةٌ لأن تكون شريعةَ الإنسان مهما اختلفت الأمكنة، وامتد الزمان وتكشفت طاقات العقل البشري في إفادته مما سخر الله له في هذا الكون العريض. والأخلاق مرتبطة بالإيمان ارتباطاً يباعدُ عن النسبية والخضوع للهوى ويضمنُ سلامةَ السلوك، وانضباطَ العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

وإلى أن نلتقي على مزيد من الاستنارة بهذا المعلم القرآني: أود أن أشير إلى ما يمكن أن يصنعه شعور المسلم بهذه الفضيلة لأمته من حوافز للعمل البناء المجدي، وما يمكن أن يباعد بينه وبين اليأس والقنوط ـ بله التشاؤم ـ في وقت تداعت فيه الأمم على تلك الأمة، وأصابها ما أصابها من التمزق والتخلُّف وإن كانت تباشير الصحوة تلوح في الأفق، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً!!



الوسطية.. والشهادة على الناس في حوافز البناء

«٢»

في ظل ما ينشىء الشعورُ بخصائص الأمة من تقوية ما بين الفرد وبينها من روابط، وما يصنع من الحوافز الذاتية التي تدفع بصاحبها إلى ساحة البناء كفاء متطلبات المجتمع والمتغيرات التي تلد مع الزمن.. في ظل ذلك هدانا المعلم القرآني ـ كما رأينا ـ إلى ما جاء في سورة البقرة من اختيار الله لهذه الأمة بأن جعلها أمة وسطاً، لتكون لها الشهادة على الناس يوم القيامة حيث تشهد للرسل عليهم الصلاة والسلام، بابلاغ كلٍ منهم رسالة ربه إلى قومه، وتشهد على من دعاهم الرسول: إلى أي حد كانت الاستجابة والإيمان أو كان الصدُّ والكفران. ذلكم قوله تعالى في الآية الثالثة والأربعين بعد المائة من السورة المشار إليها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

هكذا جعلهم الله خياراً عدولاً، وأكرمهم بأقوم المناهج على صعيد العقيدة والشريعة والعلم والأخلاق، ليكونوا مؤهلين لتلك الخاصية ـ وهي الشهادة على الناس يوم القيامة مع امتداد الفارق الزمني، ويكونَ الرسول محمد ﷺ شهيداً عليهم أن بلغهم، وإلى أي حد ظلوا أوفياء لرسالته علماً وعملاً وبذلاً وجهاداً في الله، عاملين على أن يذودوا عن حياض سنته، وعلى أن يبنوا الفرد والمجتمع على منهجه، جاعلين شريعة الله هي المحكَّمة في كل الشؤون والأحوال.

روى الإمام أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال: والوسط العدل، فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم».

إنها واحدة من الخصائص العظيمة لهذه الأمة، جديرة أن توقظ الغافل، وترد الجانحين إلى الصراط السوي، وتبعث التفاؤل والعزيمة فيمن يكاد اليأس يطبق على قلوبهم لما يرون من واقع الأمة الذي تتفتت له الأكباد.. أجل إنها جديرة أن تشد الفرد والجماعة إلى العمل المنهجي الذي يسير على هدى الإيمان بموضوعية وتخطيط، وبنظرات تتسم بالشمول والعمق في كل الميادين ـ وحركة لا تعرف السآمة ولا التهاون، لأن طريق التحويل تبدأ من هنا، من الخطوة الجادة المدروسة في ضوء الإيمان بتأمل ومنهجية بالغَيْن.

وقد روى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومُه فيقال: هل بَلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيُقال له: هل بلغتَ قومَك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومَه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاء نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله عزوجل وكذلك جعلناكم أمة وسطاً قال: عدولاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**».

قال السِّندي: (قوله: «يجيءُ النبيُّ ومعه الرجل» أي ما آمن من قومه إلارجل فيجيءُ معه يوم القيامة فيقول: أخبرنا نبينا ﷺ: المقصود بهذه الشهادة إظهار فضلهم بين الأمم، وإلا فكفى بالله شهيداً، كيف لا ولولا ذلك لورد أن علم الحاكم إن كفى فلا حاجة إلى هذه الشهادة، وإلا فكيف صحت شهادتهم مع انتهائها إلى علمه تعالى فليتأمل).

والحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الوسطية.. والشهادة على الناس
البناء والانتماء
«٣»

سعدنا فيما سبق من القول بالمعلم القرآني فيما خصّ اللّه به أمتنا الماجدة من جعلها أمة وسطاً خياراً عدولاً، وأعطاها أكمل الشرائع وأقوم المناهج لتشهد على الناس يوم القيامة ويكون الرسول ﷺ شهيداً عليها.

وقد أشرنا من قبل إلى ما يمكن أن يصنع الشعور الصادق بهذه الخاصية من تحوُّل في النفوس وما يمكن أن ينشىء من حوافز.

غير أن الذي يجب التَنبُّه إليه: أنه ـ في ضوء الإيمان بما جاء به المعلم القرآنيُ في هذه القضية الكبرى ـ لا بد من التنهيج لإعداد الفرد المسلم ذكراً كان أو أنثى، كيما يكون كفاء الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، وهي الأمة التي اختارها اللّه لتكون شهيدة على الناس يوم القيامة. فمن مقتضيات قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] الارتفاعُ دائماً بالإنسان إلى مستوى الأهلية التي شاءها اللّه تبارك وتعالى، والعملُ على طبع المجتمع بهذا الطابع، شعوراً بالاعتزاز، وإحساساً عميقاً بالمسؤولية؛ إذ كلما ازداد التكريم واتضحت الخصائص ازداد ثقل التبعات وتكشفت ضرورة العمل البناء المكافىء لصدق الانتماء إلى أمة كان لها من إكرام اللّه وفضله هذا الموقع بين أمم العالمين.

وفي قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠] ما يجلّي الأمر تجلية تنفي اللُّبسَة وتقطع اللَّبس؛ فمن المقتضيات

التي أومأنا إليها: هذه الحراسة العظيمة للكيان الإسلامي في الداخل، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أساس من الإيمان، كما أن الحراسة من الخارج بالجهاد في سبيل الله.

والحق أن ما شهدته القرون الماضية من انسياح أمتنا في الأرض تحت راية «لا إله إلا الله»: كان انعكاساً للعمل بمقتضى ما خص الله به هذه الأمة، فكان صفاء العقيدة، وكان العلم النافع بشتى صنوفه وألوانه ـ ما كان منه فرض عين، وما كان فرض كفاية ـ ، وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد بالأموال والأنفس.. إلى غير ما هنالك من مقومات الوجودالذاتي والاستجابة لسنن الله التي لا تتخلف، في ارتباط النتائج بالمقدمات والمسبَّبات بأسبابها، دون غفلة عن الخالق الحكيم المدبر الذي بيده الخلقُ والأمر سبحانه، ودون نسيان ليوم الحساب.

ولعلي لا أُبعد النُّجعةَ إذا ذكّرت بأن ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣] ليس قضيةً للمفاخرة التي تجفو العمل وتصحب التهاون والقصور، ولكنها اليوم قضية كبرى على طريق التحويل الجذري الذي يتجاوز السطح إلى القاع، كما كانت في الماضي قضية إيمان وإنشاء حضارة مثلى، خصوصاً أن الواقع الذي يشكو منه المصلحون والدعاة المخلصون: هو في أحد وجهيه أجزاء وتفاريق من المتاعب على طريق الأمة، ولكنه في وجهه الآخر ـ وهو الأهم ـ واحد من الآثار السيئة التي خلّفها قعود الأمة عن مسايرة الركب القرآني الذي يرتفع بها إلى المستوى اللائق بما خصَّها الله به من الوسطية لتشهد على الناس، وما كرمها به من الخيرية!.

وإذن؛ فالواقع شاهد صدق على ضرورة العودة الصادقة إلى الله، واستئناف المسيرة الخيرة التي تحقق ذلك، على أن يصحب هذا بشكل جادٍّ المنهجية والصدق في وضع ثروات الأمة البشرية والمادية موضعها الذي ينبغي، وفي تنمية الشعور بمسؤولية الانتماء إلى أمة خصّها الله بما خصَّها به من المكرمات، وأن

هذا الانتماء كفاؤه إيمان صادق وعلم نافع وحرصٌ على أن تفوز ميادين الجهاد والبناء بالبررة الأوفياء، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وإليه سبحانه المرجع والمآب.



مع تبعات البناء.. والشهادة على الناس والانتماء

قادنا الحديث عن تقوية الروابط بين الفرد والأمة، الأمر الذي يرتفع بهذا الفرد ـ على المدى ـ إلى مستوىً أفضل من العطاء وصدق الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، ويعمل عمله في تقوية بنية المجتمع، كيما يكون قادراً على اختصار المسافة بين الواقع وبين ما يجب أن يكون.. قادنا هذا الحديث إلى ما يقتضي ذلك من إعداد الإنسان المسلم وتربيته على مزيد من الذاتية الواعية، والإحساس الصادق بانتمائه إلى تلك الأمة التي كرّمها اللّه بأن جعلها أمة وسطاً مؤهلة للشهادة على الناس يوم القيامة، وذلك في شأن الاستجابة لدعوة الحق أو عدم الاستجابة لها.. الأمر الذي يحمل على شكر هذه النعمة، ومِن شُكْرِها: حرص الأمة على أن تكون ـ في صلتِها باللّه عز وجل، والحفاظِ على دينه، ولاءً لأحبابه، وبراءً من أعدائه، وجهاداً في سبيله ـ كفاءَ هذه المكرمة العظيمة.

وما من ريب في أن مخالطة هذه القضية ـ قضية الانتماء ـ مخالطة التأثير في عملية البناء الواقعية في ضوء الإسلام.. تتجدد مع استمرار الرحلة على أرض ذلك الواقع في شتى الميادين الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، وغيرها، ولذلك تراها دائماً من الواقع وإليه، لأن الحفاظ على المستوى المطلوب لأهلية الشهادة على الناس التي تقرر ـ بإذن اللّه ـ المصير إلى الجنة أو النار، يحمل بالبداهة ضرورة الإعداد الدائم ـ كما أسلفنا ـ على هدي الكتاب والسنة ثم فُهومِ أئمة الهدى، والدروس من وقائع التاريخ القديم والحديث، وتوظيف كل ما يقدمه العلم النافع التجريبي منه وغير التجريبي على صعيد ذلك الإعداد، كيما يكون البناء في شموله وتكامله صورة للأمة التي أولاها اللّه ذلك التكريم.

وهكذا ترقى الأمة باستقامتها على عقيدة الإسلام، وتحكيم شريعته دونما تغيير أو تبديل.. ترقى حتى تصل إلى كل ما فيه قوتها الذاتية في مرضاة رب العالمين، كما ترقى بعمارتها للأرض وإفادتها مما سخر اللّه لها ومكنّها من منابع

الثروة وقنوات الاقتصاد، حتى تظفر بموقع الريادة والقيادة، وهو موقع ترهب به عدو الله وعدوها، وتقوم معه بدورها الفعّال في قيادة الإنسانية إلى حيث الطمأنينة والسعادة والاستقرار.

ولعل من الضرورة بمكان: أن نشير إلى أن الآية التي هدانا المعلم القرآني من خلالها إلى مكرمة الوسطية والشهادة على الناس وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قد آذنت بأن الرسول ﷺ سيكون شهيداً على الأمة يوم القيامة، يشهد على استقامة من استقام، وانحراف من انحرف.

من أجل هذا كان عليه الصلاة والسلام مشفقاً على أمته أن تتجارى بها الأهواء فتحيد عن الجادة ويضل الغافلون السبيل. أخرج الإمام البخاري بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«اقرأ عليّ»** فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: **«نعم إني أحب أن أسمعه من غيري»** فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] فقال: **«حسبك الآن»** فإذا عيناه تذرفان، ورواه مسلم وأحمد. وروى ابن أبي حاتم عن يونس بن محمد بن فَضالة الأنصاري عن أبيه ـ قال: وكان أبي ممن صحب النبي ﷺ ـ أن النبي ﷺ أتاهم في بني ظفر، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر اليوم، ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه فأمر النبي ﷺ قارئاً فقرأ حتى أتى على هذه الآية: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١] فبكى رسول الله ﷺ حتى ضرب لحياه وجنباه، فقال: **«يا رب هذا شهدتُ على من أنا بين أظهرهم، فكيف بمن لم أره»**؟ وقال ابن جرير الطبري: حدثني محمد بن عبدالله الزهري عن جعفر بن عمرو بن حرب عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعود في هذه الآية قال: قال رسول الله ﷺ: **«شهيد عليهم ما دمت فيهم فإذا توفيتني فإنك أنت الرقيب عليهم»**. صلى الله على رسول الله الرؤوف الرحيم بالمؤمنين..

ولا يخفى ما في هذا الموقف منه عليه الصلاة والسلام من تأكيد لما نحن بصدده من وجوب الوفاء بالالتزام أداءً لأمانة الانتماء، وأن يكون ذلك صدقاً في المواطن وسلوكاً يرضى عنه هو صلوات الله وسلامه عليه. وهذا كله يأخذ بيدنا إلى آية أخرى تمنحنا مزيداً من وضوح الرؤية في شأن القضية التي نحن بصددها، خصوصاً ما يتعلق بالشهادة بوجهيها، شهادة الأمة على الناس وشهادة رسول الله عليها.

وكم هو عظيم أن تستأنف الأمة المحمدية مسيرة الخير بالإسلام الذي جعلها الله به خير أمة أخرجت للناس، تمسك بعاتق الميزان في الحكم على مسيرة التاريخ، ومواقف الأمم من دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، يوم يعرض الناس على رب العالمين. ها نحن أولاء نقرأ في الآية الثامنة والسبعين من سورة الحج قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨].

إنه خطاب الله للمؤمنين المؤهلين لتحقيق كلمة الله وإعلائها في الأرض والشهادة على الناس، بأن يجاهدوا في الله حق جهاده ويصبروا على لأواء الطريق، ولا يحيدوا عن القيام بما افترض عليهم وما ندبوا إليه وأن يذكروا ـ على طول الرحلة ـ أن رسول الله شهيد عليهم، وأن المعتصم الذي يجب أن لا يحيدوا عن طريقه: هو الله عز وجل.

وبعد: فإن جسراً مباركاً ينقلنا من جو هذه الآية والتي سبقتها من سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة: ١٤٣] الآية إلى حيث الإفادة على ساحة البناء المتشعبة المتشابكة والتي تزداد حاجتها إلى ما به زيادة الإيمان والتصديق، وتنمية المعارف، وسلامة الإعداد يوماً بعد يوم..

إن جسراً مباركاً على هذه الشاكلة: تكمن مقوماته في مواجهة الأجيال لما يدل عليه المعلم القرآني من وجوب العمل الصالح واستئناف طريق الجهاد ـ بألوانه المتعددة المباركة ـ مواجهة صادقة تحمل على النهوض بأعباء الانتماء ومسؤولية ما يجب أن يكون عليه المجتمع في أمة شاء الله لها أن تمسك بعاتق الميزان، فلا تبعية ولا استكانة، ولكن ذاتية وبناء صالح في الدنيا، وشهادة على الناس وفوز في الآخرة إن شاء الله إنه نعم المولى ونعم النصير.



من دعائم الاستقرار في المجتمع
الأخوّة.. وسلامة البناء
«١»

أنّى نظرت في كتاب الله، لا تعدم دعامة من دعائم الاستقرار في المجتمع المسلم، وعاملاً من عوامل دفعه إلى الأمام، كيما يكون لأفراده الوجود الذاتي الذي يستطيعون معه أن يتجنبوا مزالق الضعف، وأن يسلكوا مدارج القوة في كل ميدان من الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، فيكونوا قادرين على العطاء، تنتظمهم أخوة العقيدة، ويشدّهم إلى متابعة مسيرة البناء الشامل وتجويدها.. شعور بالمسؤولية أمام الله ثم أمام التاريخ، وتعاون مثمر يعطي أكرم النتائج على كل صعيد، بحيث تعمل خلايا المجتمع متعاونةً، فيصلح للناس أمر دنياهم، ويكون لهم في الآخرة ـ بإذن الله ـ ما يرجوه المؤمن الذي يعمل الصالحات من حسن المآب.

وفي سورة الحجرات ـ وهي سورة مدنية ـ واحد من المعالم القرآنية التي تهدي إلى ما فيه طمأنينة المجتمع واستقراره.. نتيجة الأخوة الإيمانية التي يلتقي عليها أفراده، وتعمل عملها في أن تجعل منهم طاقة فاعلة تغذي عملية البناء الحضاري السليم، وتنمي في الجماعة روح التعاون على الخير، والوقوف صفاً واحداً في مواجهة التحديات والأزمات. ذلكم قول الله تبارك وتعالى في الآية العاشرة من هذه السورة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠] علماً بأن السورة المباركة قدَّمت ـ فيما قدمت ـ تنظيماً للعلاقة بين المسلمين والرسول عليه الصلاة والسلام، وتنظيماً لعلاقة المسلمين بعضهم ببعض، وألقت الأضواء على تركيب المجتمع يومذاك، وكشفت

عما يجب أن يكون، وكيف أن أخوة العقيدة إذا التزمت بصدق: تسهم إسهاماً فعّالاً في طيِّ المسافة بين الواقع وبين ما وجّه إليه القرآن مما يجب أن يكون على مستوى الفرد والجماعة والأمة.

ولقد عملت أخوة هذه القصيدة الميمونة عملها في الماضي، وشهد التاريخ آثارها ـ بدءاً من مجتمع المدينة في ميادين العلم والجهاد والاقتصاد. ولا تسل عن البنية الاجتماعية التي تبدو الأخوة الإيمانية فيها، عاملاً من أهم عوامل القوة، وتبادل الثقة بين أفراد المجتمع. من أجل ذلك كان رسول اللّه ﷺ لا يفتأ خلال ثلاثة وعشرين عاماً، ينمي ـ مع الإيمان ـ مشاعر الأخوة القائمة عليه، حيث ترتبط القلوب بعقيدة التوحيد، وتتعاون العقول على دفع عجلة المجتمع الوليد إلى الأمام، وتوضع الطاقات كلها في ظل تلك الأخوة على سُلَّم الهدف الكبير في بناء الإنسان القادر على أداء الرسالة ـ على امتداد الزمن، وتبدلات المكان ـ وبناء المجتمع الذي لا يشكو ضموراً في جانب من الجوانب.

ومما ورد في تنمية تلك المشاعر التي تشد المؤمن إلى أخيه المؤمن أبداً، كي يتحقق التعاون على البر والتقوى قوله ﷺ ـ كما روى مسلم وأحمد عن النعمان بن بشير ـ: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» وهذا يذكرنا بما جاء في حديث صحيح آخر يعطي فيه الرسول صورة عملية لآثار تلك الأخوة فيما روى البخاري ومسلم عن أبي موسى قوله عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ـ وشبّك ﷺ بين أصابعه**». وهكذا يبدو الحجم الكبير لهذه المنة العظيمة التي أكرم اللّه بها المؤمنين، فألف بين قلوبهم وجعلهم بنعمته إخواناً؛ حتى في الدعاء بظهر الغيب.. يكون للمسلم مثل ما طلب لأخيه في الإسلام، ذلكم قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا دعا المرء لأخيه بظهر الغيب، قال الملك: آمين. ولك بمثله**» رواه البزار ورجاله ثقات.

ولعل الواعين من أبناء الأمة اليوم، وقد شهدوا إخفاق تجارب الآخرين على الصعيدين الفكري والاقتصادي ناهيك عن غيرهما... لعل هؤلاء الواعين المدركين لطبيعة الواقع، لا تعوزهم الشجاعة الأدبية في أن يعلنوا ـ بصراحة ووضوح ـ أن ما تعانيه الأمة من مرض التفرقة والتمزق، يشير ـ بما لا يحتمل اللبس ـ إلى عدم الوقوف عند الذي تقتضيه الأخوة الإيمانية، أن لو كان هناك تقدير صحيح لهذا المرتكز العظيم، بعد التصديق الجازم به.

ومهما يكن من أمر: فإن المؤمن لا ييأس من روح اللّه، وما دام في عالمنا عاملون فقهون مخلصون ينشدون الحقيقة، ويبتغون الحق والخير لمجتمعهم وأمتهم، فالطريق المأمونة التي تضمن ـ بعون اللّه ـ استئناف مسيرة الهداية المثمرة ـ كما يريد الإسلام ـ توظيف الطاقات والإمكانات بعلم ليكون ذلك في خدمة الهدف الكبير على ساحات الإصلاح والتحويل إلى ما فيه الصلاح والإصلاح، وهو بعض مما يقتضيه الاعتصام بحبل اللّه المتين: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨] وهو ـ جلّ شأنه ـ لا يضيع أجرى من أحسن عملاً!.



أخوة العقيدة وأثرها في البناء الاجتماعي «٢»

كانت لنا فيما سبق من القول: وقفة مع قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] أشرنا من خلالها إلى مدى ما يمكن أن تصنعه أخوة العقيدة على صعيد البناء المتكامل في المجتمع، وكيف أنها ـ صنعت ذلك في دنيا الواقع، وذلك بدءاً من المجتمع الأمثل في المدينة، حيث كان رسول الله ﷺ يقدم الصورة العملية المتحركة لدعوة الإسلام التي تبدّت وجوداً ذاتياً أصيلاً على كل ساحة من ساحات البناء والتحويل إلى ما هو الأقوم، وقدمت دليلاً تلو دليلٍ على أن الإسلام يبني المجتمع من خلال أبنائه الذين يشدهم إلى التعاون والحب في الله رباطُ العقيدة **«لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه»** كما يبني الحياة بكل شعبها، ويستجيب لكل ما فيه خير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة.

من أجل ذلك: كان عليه الصلاة والسلام يعمل جاهداً على أن تكون تنمية مشاعر الأخوة النابعة من العقيدة، مصاحبة لتنمية الإيمان وزيادته بالطاعة والعمل والجهاد. وقد رأينا فيما سبق من القول بعضاً من النصوص القولية التي تزيد وضوح الرؤية بشأن أخوة الإيمان في ظل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ونحن اليوم على موعد مع بعض الصور العملية في سلوك الرسول ﷺ وهو يبني الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم، ويعمل جاهداً على أن تأخذ الأخوة النابعة من عقيدة التوحيد **«لا إله إلا الله محمد رسول الله»** حجمها الطبيعي في علاقة الأفراد بعضِهم ببعض، وفي انتظامهم على خطوط العمل والجهاد بُناةً صادقين مخلصين، يتخذون من الإيمان خير حافز لتحقيق ما فيه عمارة الكون في الدنيا، والفوزُ بمرضاة الله في الآخرة.

فقد روى أبو داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: استأذنت النبي ﷺ في العمرة، فأذن وقال: **«لا تنسنا يا أخيَّ من دعائك»** يقول عمر رضي الله عنه: فقال ـ يعني النبيَ ﷺ ـ كلمة ما يسرُّني أن لي بها الدنيا. وفي رواية أنه ﷺ قال: «أشركنا في دعائك يا أخي» ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

إن رسول الله ﷺ ـ وهو يقود مرحلة البناء الرائدة ـ بعد تلك الجاهلية الجهلاء والتقليد الأعمى والفُرقة ـ يُعطي من نفسه ـ وهو الأسوة الحسنة ـ المثل العملي فيما يجب أن تكون عليه علاقة أولئك الذين تمرَّدوا على الجاهلية بعضهم ببعض، **«لا تنسنا يا أُخيَّ من دعائك»** **«أشْركنا في دعائك يا أُخي»** كلمات نبوية مشرقة تفيض عذوبة، ومودّة، وتعطي أخوة العقيدة مكانها الرفيع في جماعة تتجه صوب بناء حضاري يشمل ـ فيما يشمل ـ ميادين الثقافة، والتشريع والاجتماع والاقتصاد وتحقيق الذات.

لقد خاطب رسول الله أحد أفراد المسلمين بخطاب الأخوة، وعلى شكل من التَلَطُّف دل عليه تصغير أخي إلى «أُخيّ» فكان ذلك توجيهاً لأبناء الأمة ـ يستعلي على حدود الزمان والمكان والفوارق ـ أن يَرْعَوا موثق الإيمان حق الرعاية، وأن يتخذوا من ذلك دعامة هي من أقوى الدعائم التي يقوم عليها مجتمع ينشد التقدم والازدهار، دونما وكس بإنسانية الإنسان أو نسيان لله واليوم الآخر.

وفي ضوء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ نقرأ ـ كما دل المعلم القرآني ـ دلالة هذه الصورة الأخرى. روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: **كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من الأنصار فسَلَّم عليه ثم أدبر الأنصاري فقال رسول الله ﷺ: «يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة»؟ فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ «مَنْ يعوده منكم»؟ فقام وقمنا.. الحديث.**

أجل كيف أخي سعد بن عبادة؟ ألا ما أكرم أن نعود إلى الحقيقة فتقدُرَ هذه الأخوة حقَّ قدرها، ليكون لنا ـ ونحن ننشد قوة الأمة بعد الذي نالها من الضعف ـ ما نصبو إليه من تماسك المجتمع وقدرته على تحقيق الذات كما حقق ذلك سلفنا الصالحون.. والله يتولى عباده الصالحين.

عودة إلى سورة الحج
التربية على مفهوم الوسطية
«١»

نعود اليوم مرة أخرى إلى الآية الثامنة والسبعين من سورة الحج وهي ختام السورة كيما نستنير بهداية المعلم القرآني فيها والآية الكريمة هي قول الله جل ذكره: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨].

نعود لنرى كيف أن الحديث عن تلك القضية الكبرى، قضية الشهادة على الناس يوم القيامة والتي ألمحنا إليها في كلام سبق: قد اكتنفتها أمور عظيمة تتعلق بكيان الفرد والجماعة بصرف النظر عن الزمان والمكان والملابسات وتطور المفاهيم، الأمر الذي يدل بوضوح، على أن كِفاء هذه المكرمة ـ وهي تخصيص الأمة بجعلهم وسطاً عدولاً، لهم حق الشهادة على الناس يوم القيامة أن رسلهم عليهم السلام بلغوهم رسالات ربهم ـ: أن ترتقع الأمة بالفرد والجماعة ـ على الدوام ـ بناءً وإعداداً، كيما يكون المسلمون ـ وهم على الخط الممتد في تاريخ الإنسانية ـ على المستوى المطلوب للشهادة على الناس، إنها أمانة ثقيلة حقاً لا يقوم بعبئها إلا أهل العزيمة المؤمنون المخلصون، الذين وَعوا طبيعة هذا الدين، والخط الذي يربط بين الماضي والحاضر، وما هي مقومات العمل للمستقبل، وأنه كلما استمسك المسلمون بدينهم واتقوا الله حق تقاته، كانوا أقدر، وأكثر أمانة في أداء تلك الشهادة التي يتوقف عليها المصير الأخروي للأمم.

أما التخلف عن ركب الحياة ـ كما أرادها الإسلام ـ علماً وعملاً وجهاداً، ووضعاً للأمور مواضعها على صعيد الفكر والاجتماع والاقتصاد والتشريع، وما إلى ذلك، مما يحقق للأمة وجودها، وينمي قدرتها الذاتية، وأن تقول كلمتها في قضاياها المصيرية.. أما التخلف عن ركب الحياة على هذه الشاكلة والقعود عن الجهاد وحمل المسؤوليات الكبار في ظل العبودية الصادقة لله تعالى: فهو التناقض الصارخ، والتوجه وجهة لا تتسق مع مكرمة الشهادة على الناس يوم القيامة، بأن رسلهم بلغوهم رسالات ربهم وبشروهم وأنذروهم أداءً للأمانة.

وكأن الآية الكريمة المشار إليها والتي ختمت بها سورة الحج تتخطى القرون لتُطِلَّ على الأمة، وتُذكِّر بما يجب أن يكون، حتى كأن كلماتها المضيئة غضةٌ طرية تتنزل الآن. ها هي ذي تصدَّر بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[الحج: ٧٨] إنه أمر للمؤمنين بأن يجاهدوا الجهاد الذي يستكمل شرائط الإعداد للقوة في كل ميادينها ومصادرها، ويزينه إخلاصُ النية ووضوحُ الغاية، لأنه في سبيل الله. وبذلك يكونُ جهاداً في الله حق جهاده. ثم أشارت الآية إلى اجتباء الله لهذه الأمة باختيارها لحمل الرسالة الخاتمة والشهادة على الناس بما علمت من القرآن وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام وعملت بهما، والرسالة الخاتمة دين يتسق مع واقع الإنسان كما خلقه الله، ويستجيب للحياة، لأنه دعوة الحياة التي ترقى بالإنسان، إلى المستوى اللائق بالعبودية لله تعالى دون حرج، فالحرج منتف عن أحكام هذا الدين، وطابعه يسر لا عسر؛ الأمر الذي يتيح ـ بحكمة الحكيم سبحانه ـ للإنسان أن يلتزم به على الوجه الأكمل، مهما اختلفت الظروف والإمكانات، كما يتيح لأحكامه ومفهوماته أن تقود ركب الحياة قيادة تثمر الحضارة المثلى وتجمع بين خيري الدنيا والآخرة. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ولسوف نسعد في حلقة قادمة إن شاء الله بمزيد من تبيُّن موقع الكلام عن الشهادة في الآية بين ما سبقها وما لحقها سائلين المولى سبحانه أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

البناء.. وتحقيق الذات

في سورة الحج

«٢»

وفاءً بموعد قريب جدً قريب، بمتابعة الاستنارة بهدي المعلم القرآني في إبراز واحدة من أزكى خصائص أمتنا، وهي ائتمانها يوم المعاد على الشهادة على الناس شهادة تعلن أن رسلهم بلَّغوهم ما أُمروا بتبليغه من قبل اللّه عز وجل، وإلى أي حد كانت الاستجابة لدعوة الحق أو عدمها، وفي علاقةِ ذلك بتعميق رابطة الانتماء النافع المثمر بين الفرد والأمة المسلمة، وتنمية الحوافز الذاتية التي يعكسها هذا الانتماء.. وفاءً بهذا الموعد نستأنف النظرة العجلى في الآية الأخيرة من سورة الحج التي جاءت على ذكر الشهادة على الناس وهي قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] الآية وقد سبق ذلك ولحقه فيها ما يزيد هذه القضية الكبرى وضوحاً ويسلمنا إلى دلالتها العميقة في حياة الأمة ورسالتها الشاملة في تحقيق كلمة اللّه في الأرض، وبناء حضارة إنسانية مثلى تشرق في جنباتها حكمة اللّه في تنظيم العلاقة بين الإنسان، وبين الكون والحياة.

ومن الواضح ـ كما أشرنا من قريب ـ أن قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] قد سبقه في الآية أمرُ المؤمنين بأن يجاهدوا في اللّه حقَّ جهاده، والكشفُ عن أن اللّه تعالى هو اجتبى هذه الأمة واختارها لأعباء الرسالة الخاتمة، وأن الدين الذي هو محتوى الرسالة الخاتمة دينُ الفطرة الذي يتواءم مع الإنسان كما خلقه اللّه، ومع الحياة كما يريد اللّه أن تكون في تجاوز لحدود الزمان والمكان؛ فلا حرج في هذا الدين ولا عسر ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

هكذا تؤذن الكلمات الهاديات الذين آمنوا بأن الله سماهم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن. وقد جاء ذلك بعد التذكير بأن ما جاء به رسول الله ﷺ ـ عن ربه ـ من ملة التوحيد هو ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

ثم ماذا بعد ذلك؟ ها نحن نلاحظ أنه بعد الأمر بالجهاد في الله حق جهاده، وبعد الإتيان على تلك المجموعة من الحقائق المومى إليها، والتي ختمت بإيقاظ الهمم للاستمساك بالإسلام ملةِ إبراهيم عليه السلام، وما كان من فضل الله في تسمية المستجيبين لدعوة الإسلام الخالصة بالمسلمين في الكتب السماوية المنزلة من قبل وفي هذا القرآن.. بعد هذا كله تبرز القضية التي نسعد باستجلاء مدلولاتها، وهي قضية الشهادة بشقَّيها، شهادةِ الرسول ﷺ على الأمة إلى أي مدىً ظلت مستمسكة بالهدي الرباني على مدى العصور، ولم تبارح مواقع الحراسة الأمينة والذود عن دعوته عليه الصلاة والسلام كما جاءت في الكتاب الكريم وبنيتها بينتها سنته صلوات الله وسلامه عليه. وشهادة الأمة على الناس ـ وهو الشق الثاني ـ من استجاب منهم لرسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام ومن لم يستجب، ولا تسل عن آثار ذلك في مصير تلك الأمم، حيث تُزلَفُ الجنة للمتقين، وتبرَّز الجحيم للغاوين!!

وأحسبني في غنية عن مزيد من التذكير بالأهمية التي يحملها تصدير الآية بالأمر بالجهاد في سبيل الله حق الجهادٌ، وإعقابها ذكرَ تلك الحقائق التي تتكامل مع التذكير بنعمة الشهادة على الناس وما تتطلبه من مسؤولية، وإثارة كوامن الإيمان وحوافز العمل الصالح بالتذكير بشهادة النبي عليه الصلاة والسلام على الأمة، وقد أشرت إلى الأهمية البالغة لذلك من قبل، فكما يستذكر المسلمون تكرمة الله لهم بأن جعلهم وسطاً عدولاً يشهدون على الأمم، يستذكرون مسؤولية ذلك في إعداد الإنسان المسلم على الوجه الذي ينبغي، وفي إعطاء شهادة الرسول ﷺ ما يليق بها من الأهمية على صعيد هذا الإعداد.

وإلى أن نلتقي على خطوة أخرى في هذه السبيل، حسبي التنبيه على أن دلالة المعلم القرآني في الآية: تُهيب بالأمة أن يكون الواقع الذي تعيشه ـ أفراداً ومجتمعات ـ باعثاً على التبصر في أسباب التشتت، وكيف أن صدق الانتماء إلى أمة الإسلام: مرتبط تمام الارتباط بقيم ثابتة على صعيد العقيدة والعلم والعمل.

وهذا التبصر مدعاة إلى ترسم المنهج الإيجابي في الإفادة من مقومات الأمة وطاقاتها الفاعلة وما يطرأ عليها من الخير، بعد حزم الأمر على تحويل الشراع إلى الوجهة الفُضلى، كيلا يكون بين الأمة وبين تحقيق الذات مسافات تصنعها الغفلة أو الاغترار بزخرف الآخرين، فضلاً عن الجنوح إلى طلب العافية، ولله عاقبة الأمور.



المنطلق.. ووضوح الرؤية
وسورة الحج
«٣»

من عطاء المعلم القرآني في الآية الأخيرة من سورة الحج ـ وقد أعلنت إعلانها ـ في كون ما أكرمت به الأمة: إنما كان بفضل انتمائها إلى الدين الذي ارتضاه الله لعباده وهو الإسلام.. من عطاء المعلم القرآني فيها ـ والأمر كذلك ـ التنبيه على أهمية هذا الدين في حياة أمتنا، وما يجب أن يكون ـ للوفاء بالموثق الذي أخذ على ساحة الإيمان به ـ: من مكانة في مناهج الإعداد والتكوين، فالوفاء بهذا الموثق أمر يصحب قضية الانتماء؛ لما أن هذا الانتماء ينبغي أن لا يكون حبيس الكلمة والدعوى العاطفية فحسب، ولكن يتجاوز ذلك إلى الاعتزاز بالمنهج الرباني، وأن نكون الأمة التي تحتكم في كل شؤونها إلى ذلك المنهج، بصرف النظر عن البعد الزمني، وإعطاء ذلك ما يستحقه من تجويد للعمل، وحفاظ على الوقت، واستشعار للحجم الكبير الذي أعطي في كتاب الله لشهادة هذه الأمة على الناس، وشهادة الرسول صلى الله وسلم عليها، وكيف أن الله أكرم أبناءها بناء على ذلك كله، بأن سماهم المسلمين من قبل في الكتب السماوية التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام قبل بعثة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وفي القرآن الكريم ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨].

وغني عن البيان أن أمتنا ـ وقد توافرت لها مقومات البناء الذاتي في صلب الرسالة، وفيما نطق به الواقع، لأن الدين متسق مع فطرة الإنسان وإنسانيته وما أودع فيه من مؤهلات ـ: يعوزها اليوم ـ وهي تعاني ما تعاني من سلطان الانهزام النفسي عند كثيرين ـ وضوحُ الرؤية في منطلقها الفكري، والعقيدة التي يقوم

عليها هذا المنطلق. وإذا سلمت لها هذه الخطوة، كان في مقدورها ـ بعون الله ـ وهي تراجع رصيد التقدم والتقهقر عبر التاريخ، بأمانة وشجاعة أدبية، أن تفيد من كل المقومات الثقافية والتشريعية والاقتصادية ـ بله الحضارية ـ وسلامة الموقع الجغرافي، وما أودع في أرضها من ثروات وكل ما هو من ذلك كله بسبب أن لو صح العزم، وخلصت النية، وأضاءت من جديد جذوة الإيمان في القلوب والعقول.

وأنت واجد أن الآية الكريمة وهي قول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، بعد أن أمرت بالجهاد في الله حق الجهاد، وذكَّرت باجتباء الله لأمة الإسلام، وبطبيعة الدين الذي أكرمها الله بالانتماء إليه، وأنه ملة إبراهيم عليه السلام.. أنت واجد أنها بعد هذه المراحل المباركة، وقفتنا على جذر القضية في الانتماء، وما يجب أن يكون عليه المؤتمنون على رسالة الأمة في تحقيق العبودية لله، وإعلاء كلمته في الأرض بكل مفهومات ذلك وأبعاده، واستشعار تلك الكلمة التي من أجلها تحشد الطاقات وتبذل الإمكانات، فجاء تذكير المسلمين بأن الله هو سمّاهم المسلمين من قبل وفي هذا القرآن. وفي ذلك ما فيه من وضع الإيمان وصدق الإذعان لأمر الله والاستسلام والخضوع لأحكامه موضعاً يستعلي على أبعاد الزمان والمكان من جهة، وعلى الروابط المصطنعة من جهة أخرى؛ فمن ينتمي إلى كلمة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ويذعن لحقها، ويطوع سلوكه وكدحه في الحياة لمقتضياتها: هو مسلم بتسمية الله له في كُتبه المنزلة من قبل وفي القرآن الكريم.

ومن خلال هذا البيان ونظائره من مثل قوله تعالى في الآية الثانية بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢] تبدو الضرورة ملحة في أن يكون الجيل المؤتمن على تحقيق البنية الذاتية للأمة بعد أن غرّتها الزخارف المستوردة، وأرهقتها التجارب المجافية لأصالتها وقيمها، وعلى توظيف ما أعطى الله أهل هذه الملة المباركة من

مقومات بشرية ومادية ومعنوية أصيلة في استكمال البناء المنشود... تبدو الضرورة ملحة أكثر من أي وقت مضى: أن يكون هذا الجيل على بينة من أمره في انتمائه وموقعه، وعلى وضوح في الرؤية من حيث الأهداف والواقع، فينظر إلى قضية الانتماء، وسمو المنهج الرباني وتكامله وموقع العقيدة من حياة الأمة، نظرة تتسم بالعمق والشمول وأصالة النظر والتفسير، كيما يسلَم له المنطلق الفكري الذي ترتبط جذوره بعقيدة التوحيد تصديقاً وعملاً، ذلك بأن الكلمة الطيبة: (لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه) تعني ـ أولَ ما تعني ـ إسلام الوجه للّه، وإسلامُ الوجه للّه ذو دلالة متسعة الأرجاء على صعيد البنية الذاتية المتكاملة للفرد والمجتمع والأمة عقيدةً وشريعةً ومنهج سلوك.

من أجل ذلك: كان لزاماً أن يُبنى الجيل على سلامة العقيدة ووضوح المنطلق، وأن يُنمَّى في حسّه ـ مرحلةً بعد مرحلةٍ ـ أن التحويل إلى الأفضل باستخدام الوسائل المطلوبة مع الحفاظ على حقيقة الانتماء إلى أمة الإسلام الماجدة ـ: إنما يكون بالوقوف عند الذي تمليه: (لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه) في معناها وحقها ومقتضياتها، بوصفها منهج حياة لا ينتقص من عمارة الأرض وبناء قوة الأمة في الدنيا، ويأخذ بيد العاملين به إلى ما فيه سعادة الآخرة والفوز يوم الدين. وصلى اللّه وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد بن عبداللّه وعلى آله وصحابته ومن أخذ نفسه بهديه إلى يوم الدين.



الانتماء.. والنقد الذاتي في التغيير لا الجاهلية والمخالفة عن سنن الله

«٤»

ما هدانا إليه المعلم القرآني من خلال قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، يقودنا إلى أن الارتباط العضوي بين الأمة في انتمائها إلى الإسلام. وبين منهج الإسلام نفسه على ساحة ما يجب أن يكون.. يجعل من الواقع المتخلف نفسه حافزاً متجدداً إلى معرفة مدى التخالف والتوافق بين ما عليه الأمة في أخلاقها والضوابط التي تحكم تصرفاتها، وبين الإسلام بوصفه منهج حياة، وإلى أي حدٍ يبدو تأثير المخالفة عن المنهج في حياة هذه الأمة، في داخل مجتمعاتها، وفي علاقاتها بالآخرين. كما يقودنا المعلم المبارك إلى أنه بمقدار ما تكون خطوات السَّير مع سنن الله في الأخذ بالأسباب سليمة يستمد أصحابها العون من الله، تأخذ الشجاعة الأدبية في النقد الذاتي، والتجرد في نشدان الحقيقة: حيِّزَهما الطبيعي في تعليل الحوادث، وتفسير الوقائع. كما تأخذ الموضوعية بعيداً عن سلطان الـ (أنا) والرغبات الشخصية القريبة على حساب مصلحة الأمة.. ما تستحق من عناية.

وإذا تحقق ذلك!! كان رواد الإصلاح فيما ينظرون ويتأملون.. أقرب إلى السلامة في ربط النتائج بالمقدمات، وكانت الفائدة أكبر في توظيف ذلك كله ـ على صعيد الفرد والجموع ـ في خدمة التغيير إلى المستوى المبتغى لأمة اجتباها الله للرسالة الخاتمة، والشهادة على الناس يوم الحساب.. وإنها لأمة قد توافر لها من الخيرية ومقومات البناء الذاتي في شتى ميادينه وفروعه، ما يرقى بها ـ أن لو أحسنت الإفادة وجوّدت في العمل، وصدقت في الانتماء ـ إلى مرتبة

القيادة في العالمين، وأن تكون لها الكلمة المسموعة، لا في شؤونها الخاصة فحسب، بل يمتد ذلك إلى التأثير في مجرى الأحداث، وانضباط ميزان القوى هنا وهناك على الصعيد العالمي.

وفي ضوء الإيمان بجدوى هذا الطرح، الذي يرفع القضايا المومى إليها إلى حيز المسلّمات عند المؤمن المتمثل لمنهج اللّه، المدرك لطبيعة حركة التاريخ.. تجدر الإشارة إلى ما كان من بيان النبي عليه الصلاة والسلام ـ على هذه الساحة ـ وهو يتجه بالإسلام صوب بناء حضاري تشرق جنباته بنور المنهج الرباني، يتحقق معه البناء الذاتي للإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى، كما يتحقق معه الوجود الحقيقي للأمة.. الأمر الذي يكون من ثمراته العطاء على المستوى الإنساني العام، فأنت واجد في بيانه عليه الصلاة والسلام، أنه كان لا يني ـ وهو يتجه تلك الوجهة المباركة وينفذ السير من أجل الوصول إلى الهدف الكبير في مرضاة اللّه تعالى.. لا يني يدفع بأفراد الأمة ـ ذكوراً وإناثاً ـ إلى التحرك البناء في ميادين العلم والعمل الجهاد، وكل ما يزيد به الإيمان ويربو، وتزدهر الأخلاق، بوصفهم مسلمين، خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وتقّطع ما بينهم وبين الجاهلية من أسباب، وأيقنوا أن صدق الانتماء إلى الأمة المسلمة يقتضي شكر اللّه بالعمل الصالح، وتنقية المجتمع من أوضار تلك الجاهلية، والحيلولة دون أية جاهلية جديدة غازية، وتحويل منهج الحياة الذي تعطيه الكلمة الطيبة: (لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه) إلى واقع عملي في كل ميدان من الميادين وذلك سبيل التمكين في الدنيا والنجاة في الآخرة وإلا فالخراب المبين في العاجلة والآجلة. أخرج الإمام النسائي عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] روى ابن حبان والترمذي وأحمد وغيرهم بإسناد صحيح عن الحارث الأشعري رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثّيِّ جهنم» قال رجل: يا رسول اللّه وإن صام وصلى؟ قال: «نعم وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة اللّه التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد اللّه».

إنه للوعيد الشديد لأولئك الذين يخالفون عن منهج الله ويأخذون بمناهج الجاهلية.. إذ جعلهم رسول الله من جثيّ جهنم. وجثيٌّ جهنم: الذين يجثون على الركب من الشدة والعظمة والهول.

ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لها على ركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسي، نفسي، نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي. وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتني. ذكر ذلك الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية: ٢٨] .



البناء.. وسنة الله في ارتباط النتائج بالمقدمات... ووقفة أخرى مع سورة الحج

«٥»

لقد أكدت معالم الكتاب العزيز حقيقة الارتباط بين النتائج والمقدمات وفق سنن الله التي لا تتحوّل ولا تتبدّل؛ الأمر الذي يدل على صعيد التفسير الإسلامي لوقائع التاريخ ـ أن واقع الأمة الإسلامية في كثير من مجالاته المتنوعة وأبعاده المتفاوتة، يعكس التخالف أو التوافق مع المنهج الرباني الذي توصي به عقيدة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ثم مع الذي يقتضيه الانتماء إلى أمة يرتبط وجودها الذاتي برباط العقيدة، وبالعمل الدائب المخلص، والجهاد المستمر ـ في كل ميادينه ـ على تحقيق مدلولها، والتمكين لأبعادها في شؤون الحياة جميعها. ومن قبل كانت لنا في ظل هذه الحقائق وقفات عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله جل شأنه في خاتمة سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] إلى قوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨] وقد ختمت الآية بقوله جلت حكمته: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وهداية المعلم القرآني في توظيف مكرمة الشهادة على الناس يوم القيامة في تنمية الحس بالواجب، والارتفاع إلى مستوى هذه المكرمة، وشكر الله عليها بالعمل الصالح في دنيا الواقع.. أخذت مزيداً من الوضوح وإثارة الكوامن الإيمانية وحوافز الجهاد الصادق فيما يرى القارىء المتدبر للكلمات الهاديات من

تصدير آية الحج بالأمر بالجهاد: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وما لحق ذلك من حديث عن اجتباء الله لهذه الأمة، وعن طبيعة دين الإسلام وأنه يسر لا حرج فيه ولا إعنات، وفضله ـ جل شأنه ـ فيما خاطب به المسلمين بكونه هو سماهم المسلمين في الكتب السماوية المتقدمة وفي هذا القرآن.

وما من ريب في أن الاستنارة بقبس من بيان النبي ﷺ: تقف المسلم على ما أعطى صلوات الله وسلامه عليه من الأهمية البالغة لتحقيق الانتماء إلى أمة الإسلام التي جمع الله على إسلامها القلوب بعد شتات، وألف بينها بعد فرقة، وفيما حذّر وأنذر من الوقوع في أيٍ من دعاوى الجاهلية التي تنأى بالإنسان عن الحق، وأن من دعا بذلك فهو من جثيٍّ جهنم يوم القيامة، لأن ذلك يتخالف كل التخالف مع مدلول قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾.

وفي متابعة لعطاء المعلم القرآني في الآية الكريمة ما بدٌّ من وقفة يسيرة لا يتسع المقام لأكثر منها عند قوله تعالى بعد التذكير بشهادة الأمة على الناس وشهادة النبي ﷺ عليها: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] فمكرمة الشهادة على الناس ليست قضية مفرَّغة من مضمونها العملي، بحيث تكون قضية للمفاخرة بدون عمل: والصلاة أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين. وأكْرِمْ بها عاملاً من أهم العوامل في بناء الفرد من داخله، حيث يدوم اتصاله بالخالق تبارك وتعالى، ويكون في مقدوره التعالي على المعوقات، ويندفع صادقاً مخلصاً في طريق العمل لأداء رسالة الإسلام التي هي رسالة بناء لخير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، ولا تسل عن أثر ذلك كله في تقوية أواصر الجماعة، وإحكام بنائها على طريق حضارة تبدأ أول خطوة فيها بتوحيد الله عز وجل، وقد اقترن الأمر بالصلاة بالأمر بالزكاة، وهذا كثير في القرآن الكريم ولا يخفى مدلول ذلك على ذي بصيرة.

وفي إيتاء الزكاة تطهير وتزكية للنفوس وللأموال، وضمانة أي ضمانة لاستقرار المجتمع بإبعاده عن التظالم، وإعطاء كل ذي حق حقه لأن الزكاة حق في المال لمستحقيها، والحيلولة دونه ودون الطبقية الظالمة، والحقد بين الإنسان وأخيه الإنسان في ظل عقيدة التوحيد، وتمكين الإيمان بضرورة العمل والرضا بقضاء اللّه، بعيداً عن التظالم وضياع الحقوق تحت ستار أي مقياس من المقاييس المنحرفة عن منهج اللّه.

ومجتمع هذه صفاته تراه دائماً قوياً نظيفاً على صعيد التآخي والتعاون على الخير. كل هذا لأن الزكاة ركيزة مهمة جداً من ركائز العدالة والتكافل الاجتماعي النابع من أخوة العقيدة، ولها ما لها من أثر بالغ في الكيان الاقتصادي السليم من الربا والاستغلال.

والحمد للّه الذي هدانا لهذا الخير، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه!



البناء.. وكِفاء الشهادة على الناس

«٦»

سبحان اللّه.. لا يُجيل المرء فكره في شيء من واقع الأمة إلا تبدّت له الفجوة المتسعة العميقة بين ما أكرم اللّه به هذه الأمة من خصائص ـ لعل من أبرزها الشهادة على الناس يوم الدين ـ وبين ما هي عليه من انحسار عما هو كفاء هذه الخاصية العظيمة، من فهم للرسالة التي اصطفى اللّه نبيه محمداً ﷺ لحملها وتبليغها، وعمل بتلك الرسالة، ووعي لا يقتصر على جانب من الحياة دون الجوانب الأخرى، كل أولئك مع إخلاص الوجهة للّه عز وجل والصدق في طاعته سبحانه. وبذلك يتحقق في الأمة على صعيد الفرد والجماعة مدلول ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول ﷺ يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

ولنذكُرْ أن اللّه تعالى كما جعل الأمة خياراً وسطاً عدولاً، خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، وقد ألمحنا من قبل إلى أن هذا مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. روى الإمام أحمد بسنده من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يدعى نوحٌ يوم القيامة فيقال له: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما

أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فذلك قوله: قال: والوسط العدل، فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ وأنا أشهد عليكم) ورواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش. وأخرج الإمام أحمد بسنده أيضاً عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قوم» فيقال: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلّغتَ قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته: فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا فذلك قوله عز وجل: قال: عدلاً **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**».

وكم هي عظيمة مهمة صادقي الانتماء إلى أمتهم في العمل على أن تستأنفَ الأمة مسيرة الخير وتتّسقَ حركتها في الحياة مع مضمونات الرسالة التي أولتها ما أولتها من المكارم، حتى إنه ما من أحد من الناس ـ يوم القيامة ـ إلا يودُّ لو أنه منها. روى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْمٍ[1] مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه، إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل».



(١) الكوم: المواضع المشرفة. وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم اللقاء!.

خصوصية الأمة.. والحافز والبناء

«٧»

هذه عودة إلى المعلم القرآني الذين بصّرنا بالعديد من آفاق المكرمة التي أنعم الله بها على المسلمين وهي اجتباؤهم وجعلهم عدولاً خياراً يشهدون على الناس يوم الدين... وأن السعيد السعيد من كان كفاء هذه المكرمة فسعى لذلك سعيه على الوجه الذي ينبغي.

ذلك بأن هذه النعمة العظيمة التي يفترض أن تكون حافزاً بعيد الغور في أعماق المسلم يدفعه إلى متابعة العمل مهما تكاثرت وتعاظمت معوقات الترغيب والترهيب، ويستحثُّه الخطا نحو كل ما هو أقوم وأفضل لنفسه وأسرته ومجتمعه في ظل عقيدة التوحيد.. ذلك بأن هذه النعمة العظيمة: كفاؤها سعي دائب في مرضاة الله عز وجل يبني الحياة على النهج السوي، وينمي مقومات الوجود الحقيقي للأمة.

ولذلك أمر الله المؤمنين أن يقابلوها بالقيام بشكرها، وذلك بأداء حق الله فيما شرع، وطاعته وطاعة رسوله فيما أمر به، وفيما زجر عنه؛ وفي طليعة ذلك بعد الشهادتين، إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقد أشرنا بكلمات موجزة ـ في حلقة قريبة ـ إلى ما للصلاة والزكاة من أثر فعّال في كيان الفرد والجماعة، سواء من حيث بناء الفرد والمجتمع، أو من حيث النواحي الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، بعد الذي تصنعان على ساحة العبودية الخالصة لله تعالى.

وهذا الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بعد الحديث عن نعمة الله جل شأنه فيما أعطى الأمة المسلمة من الشهادة على الناس يوم يقوم الناس لرب العالمين، دليل واضح على ما ألمحنا إليه فيما سبق من القول من أن هذه الفضيلة المنعَمَ بها

على الأمة، ليست شعاراً للتباهي أو قضية مفرَّغةً من الدلالة على الواجب والالتزام، ولكنها مسؤولية وأعباء. وما أجدر الأمة أن تستذكر ـ وهي تطل على آفاق مستقبل ينشده دعاة الخير، ويعمل المخلصون فيها على أن يأخذ البناء المتكامل ـ على الأصعدة كلها ـ أبعاده هنا وهناك.. ما أجدرها ـ والنُذُر تصحب الآمال ـ أن تدرك بنيّر البصيرة أن التزحزح الذي منيت به في الأعصر الأخيرة عن المستوى اللائق بالشهادة على الناس، والتخلفَ عن مسايرة ركب الإيمان والجهاد، والعلم والعمل.. قد أسهم ـ إلى حد كبير جدٍ كبير ـ في هذا الذي يشكو منه المصلحون، ويؤرقهم الحرص على أن تعود الأمة سيرتها المباركة الأولى..

وليس من مكرور القول أن الواجب الذي لا ينقطع سلطانه باختلاف الليل والنهار، أن لا تغفل الأمة وهي تبني أجيالها، وتسعى السعي الحثيث لتحقيق ذاتها.. أن لا تغفل ـ مهما تعاظمت التحديات الضالّة والمناهج الغازية ـ عن حقيقة التميز الذي ضمنه لها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ كيما يكون التخطيط والتنفيذ على ساحات الإصلاح والإفادة من الطاقات المتاحة ـ وفي مقدمتها طاقة الإنسان المكرّم المفضّل ـ على الوجه الذي ينبغي أن يكون، في مراعاة للواقع وتطوّر أسلحة المواجهة والتحديات، والإفادة مما وصل إليه العلم التجريبي ووضع ذلك موضعه من البناء والإعداد.

وليكن في الحسبان دائماً أن العصمة من مهاوي الانحراف والتقاعس، وتبديد طاقات الأمة: إنما يكون بالاعتصام بالله وصدق الاستعانة به والتوكل عليه، والأمر بالاعتصام بالله هو ما ختمت به الآية الخاتمة في سورة الحج، فبعد الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة جاء قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ألا ما أحوج العاملين الذين تؤرقهم هموم الأمة، ويسعون جاهدين إلى أن يكون الوقت، والثروة، والاختصاص والطاقات على تنوعها في خدمة ما ينشدون من البناء والإنماء، ما أحوجهم والأمة بأسرها إلى الاعتصام بالله كيما يكونوا قادرين على تجاوز الصعاب من داخل النفس ومن خارجها، فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير والمعين. وله الأمر سبحانه من قبل ومن بعد.

البناء والتربية
على الاعتصام بالله وصدق الوجهة

هذا القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلُق على كثرة الرد، هو كلام رب العالمين العليم بما هو خير لعباده في دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم، الحكيم في تدبيره وفي السنن التي أجرى عليها الكون، وصرّف عليها شؤون خليقته.

ولذلك كان هذا الكلام النوراني ـ بما جعله الله هدىً ورحمة لأولي الألباب ـ نبراس هذه الأمة الذي لا يجارى ولا يبارى، يأخذ بيدها ـ إن هي عملت به وأقامت حدوده مُحلّةً حلاله ومحرمةً حرامه ـ إلى مرابع القوة والتمكين في الأرض، والفوز بجنة المأوى يوم الدين.

والحقيقة التي لا يماري فيها إلا مكابر، أو مضروب على قلبه بالأسداد، أن القرآن قد صنع ـ بإذن الله ـ أمة الاستجابة المسلمة التي انساحت في الأرض تعفي على آثار الجاهلية، فتنقذ الإنسان من وهدته، وتبني صروح الحضارة الفاضلة المتوازنة التي تركت بصماتها في كل ميدان، حتى غدت تلك الأمة بجهادها ووعيها وحيازتها لألوان المعرفة: موئل الاستقامة في دنيا الثقافة والفكر، ومرابع التشريع في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وكلٌ ما هو من بنية الفرد والمجتمع والأمة؛ علماً وعملاً وحسن تعامل مع ما سخر الله للإنسان في هذا الكون العريض، فكانت إنسانيةُ التصرف، وكانت استنارة الفكر العميق المتسم بالشمول، وكانت عمارة الأرض على الوجه الذي ينبغي دونما إغفال لتزكية النفوس والتطلع إلى النجاة في الآخرة. وكان من وراء ذلك الانتصارُ الكبير ـ بعون الله ـ على التحديات.

هذا: وفي كلمات قريبات: وقفنا المعلم القرآني على الخطوط العامة لصورة من صور الصياغة الأمينة للمسلم الذي أنيطت به رسالة البناء، واؤتمن على الحركة الواعية التي تبعث الحياة في المجتمع، بعد الذي مُنيَ به من جاهلية وتخلف. وكانت هذه الخطوط فيما طالعتنا به سورتا البقرة والحج من إبراز ما خصّ اللّه به أمتنا وأنعم فجعل المسلمين أمةً وسطاً عدولاً يدورون مع الحق حيث دار، فيكونون شهداء على الناس يوم تحشر الخلائق لرب العالمين: أن رسلهم عليهم الصلاة والسلام قد أدَّوا أمانة تبليغهم ما أرسلهم اللّه به إليهم، ويكون الرسول محمد ﷺ شهيداً عليهم.

ولئن اقترن ذكر مكرمة الشهادة على تلكم الأمم بوصف الأمة بالوسطية في سورة البقرة ـ كما نرى ـ لقد سبقَ ذكرها إيراد عدد من القضايا الكبرى كان في مقدمتها الأمر الجازم بالجهاد في اللّه حق جهاده، وكان منها التذكير بطبيعة هذا الدين وأن النسب مقطوع بينه وبين الحرج، وبحقيقة الانتماء، وبتسمية المسلمين، ثم لحقها بعد ذلك قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

والحق أن الاعتصام باللّه ـ وهو من أجل الحوافز وأعظمها ـ يحمل بين طياته شمول كثيرٍ مما وجهت إليه الآية الكريمة، دليلَ الأهمية البالغة لهذا العموم بعد الذي سبق من قضايا. وإذن: فأمة الشهادة على الناس يوم الدين التي يكون قولها القول الفصل بين الرسل عليهم الصلاة والسلام، ودعوى عدم التبليغ ممن ادعى ذلك من الأقوام.. هذه الأمة مطلوب منها أن تكون الأمة المجاهدة الواعية لطبيعة الدين الذي يقدم أسلم منهج لبناء الحياة وأقومه، ويشمل ـ فيما يشمل ـ التربية على صدق الوجهة في الإعداد ليوم الحساب؛ فهي بهذا أمة تبني الفرد الذي إن صلَح شأنه: صلح شأن المجتمع: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي أمة تستنفدُ طرق الأخذ بالأسباب وتعتصم علماً وعملاً وسلوكاً باللّه الخالق القادر الواحد القهار.

ولكم نكون على الجادة بحق إذا ترجمنا الاعتصام المنشود إلى عمل وإذا ذكرنا ـ والحال هي الحال ـ قوله جل شأنه في سورة آل عمران:﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله تباركت أسماؤه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وصلوات الله وأزكى تسليماته على نبينا المصطفى ورسولنا المجتبى محمد ابن عبد الله وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين.



الاعتصام بالله... وبناء الشخصية

ما من ريب في أن الاعتصام بالله، ثقةً بنصره وتوكلاً عليه واستعانة به: قاعدة من أرسخ القواعد في تكوين شخصية المسلم ـ رجلاً كان أو امرأة ـ وتنمية حافز الإقدام والمثابَرة لديه، الأمر الذي يطرد الاعتماد على غيره سبحانه، أو الركون إلى العافية واليأس، فتراه فارس الميدان الذي اؤتمن على العمل فيه، لا تثنيه العقبات، ولا يُضعف من عزيمته ما يعترض من رغَب أو رهَب.

وبالأمس كان لزاماً أن نذكر مع الذي ختمت به سورة الحج من قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ كان لزاماً أن نذكر ـ ومعالم القرآن تهدي إلى نفي الخبث وجدية العمل على التغيير إلى ما هو أفضل ـ قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله سبحانه في السورة نفسها: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] والاعتصام بالله توكلٌ عليه واستعانة به وثقة بعطائه ونصره مع الأخذ بالأسباب علماً وعملاً وجهاداً على الوجه مطلوب، وذلك ما كان يصنعه رسول الله ﷺ، فهو المؤتمن على الرسالة الخاتمة والمؤيد من السماء، وكنت تراه ـ فداه أبي وأمي ـ لا يني يأخذ بالأسباب الممكنة النظيفة من جميع أطرافها؛ كالذي شهد التاريخ في الهجرة، وبدر، وأحد، والفتح، وحنين، وتبوك، ومؤتة، وغيرها بل كان عليه الصلاة والسلام ـ وهو يعلِّم الأمة ويبني الفرد فيها والمجتمع المؤهل بمقومات التكامل والقوة ـ: يأخذ الأسباب، ويعد القوة المستطاعة، ويستعين بالمشورة، كل ذلك مع صدق التوكل على الله، والثقة بنصره واللجوء إليه والتضرع بين يديه، فهو نعم المولى ونعم النصير.

وفي سورة النساء ما يلقي مزيداً من الضوء على هذه النقطة ويحول دون الذين همُّهم الدسُّ والافتراء، ودونَ الذين يتخلفون عن ركب البناء، وينشدون السلامة من التبعات، والعافية من مستلزمات المسؤولية ـ: أن يكون لهم متكأ في

مثل هذه القضايا، فيزعمون أن الاعتصام بالله جنوح إلى عدم الأخذ بالأسباب. يقول الله تعالى في هذه السورة المدنية: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

دائماً يرى المتبصر بآيات الكتاب الكريم، كأن هذه الآيات تتنزل على الواقع لتغير معالمه وتنشىء في ضوء الهداية واقعاً جديداً معافىً.

وهكذا تجد معالم القرآن تتخطى أبعاد الزمن فتقود المسلم إلى ساحات البناء، وتحيي موات القلوب، وتنمي الإحساس بضرورة العمل من أجل تغيير واقع الأمة بدءاً من الفرد والمجتمع. وإن غداً لناظره قريب، والله ولي التوفيق.



رحلة البناء
والحاجة المتجددة.. إلى تنمية الحوافز الذاتية

تتقلب الأيام، ومع طلوع شمس كل يوم: تتجدد حاجة الأمة إلى تنمية الحوافز الذاتية عند أبنائها، كيما يخوضوا معركة الحياة بمزيد من الإيمان والثقة والطمأنينة، وكيما يطرقوا كل باب من أبواب العلم وما وصل إليه العقل البشري في استثمار خيرات هذا الكون، وما سخر الله للإنسان فيه: من أجل أن يضعوا ذلك كله ـ وهم المنتمون إلى أمة أولاها الله أمانة الشهادة على الناس يوم القيامة ـ على الطريق التي تقضي على التخلف، وتردم ما بين الأمة وبين الوصول إلى الوجود الذاتي من فجوات.

ولقد صَحِبْنا هداية المعلم القرآني في شأن النعمة التي أنعم الله بها على أمتنا ـ فخصها بالشهادة على الناس يوم القيامة، ورأينا باللمحة الموجزة، ما يجب أن يكون لهذه المكرمة من موقع على طرق إعداد الفرد في عقيدته وعلمه وقدرته على الجهاد، والنهوض بالمجتمع وتسيير كل طاقاته في قنواتها الطبيعية التي ترتفع بالأمة إلى المستوى الذي تظل فيه أمينة على ما خصّها الله به في قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣] وقوله جلت حكمته: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا﴾.

ومن الجدير بمزيد من العناية أن ننبه على أن ما خصّ الله به الأمة من تلك المكرمة بخاصة، وبغيرها على وجه العموم: لا بد من الإلحاح عليه بمنهجية وترسيخ، كيما يأخذ ـ في حياة الأجيال المتعاقبة ـ مكانته المثلى عند التَصوُّر والتطبيق، ويقضي على ما قد يتسرب إلى بعض النفوس من اليأس أو سآمة

العمل البناء. لأن الاعتزاز بالإسلام، والشعور بالثقة، والتفاؤل الحقيقي بكسب الجولة ـ بعون الله وتأييده ـ على ساحات البناء المثمر ومواجهة التحديات، حيث تطرق الأيدي والعقول من وراء القلوب المؤمنة أبواب الحياة وتفيد من الماضي للحاضر، وزرع دروب الأمة بالأمل خصوصاً أن لديها ما لديها من مكانات بشرية واقتصادية واستراتيجية، بجانب كونها تحمل الرسالة الخاتمة في العالمين: كل أولئك جدير بأن يستأصل ـ بعون الله ـ إذا صدقت العزائم مواطن الضعف ويرتفع بالأمة إلى المستوى اللائق من جديد.

أقول هذا، لأن معالم القرآن والهدي النبوي لا تفتأ تلحُّ على أن نعم الله على الأمة فيما خصَّت به دون الأمم، ما بدٌّ أن تقابل بالشكر، وشكرها تنميةٌ لانعكاسات العقيدة في النفوس، وسعيٌ حثيث دائب بعلم وموضوعية، كيما تكون شريعة الله هي المحكَّمة عن طمأنينة ورضى، وأخذٌ بأسباب القوة التي تسمو بالفرد إلى المستوى اللائق بانتمائه إلى أمة شاء الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس. كما تسمو بالمجتمع إلى حيث يكون قادراً على العطاء في ظل رسالة الإسلام، لأن أبناءه ـ رجالاً ونساءً ـ لا يبخلون كلٌّ حسب الثغر الذي أقامه الله عليه، بما تمليه الرحلة إلى الأفضل أبداً، تمكيناً للدين، وقوةً في مواجهة الباطل، وإمامة للناس في بناء حضارة لا يشوبها تخلخل أو زيغ عن الصراط السوي. وهذا كله بعض من ثمرات العمل الخالص بقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ولكم كان الصحابة رضوان الله عليهم ذوي نظرات بعيدة للمستقبل يقودهم إليها حرصهم على الثبات على الحق، وأن لا يحيدوا عن الطريق السوي الذي عاهدوا رسول الله على سلوكه والاستمرار في هذا السلوك، لا تعوزهم معه القدرة على مواجهة التحديات، والخروج طاهري الأثواب من الفتن!! ولنترك للصحابي الجليل حذيفة رضي الله عنه أن يزيد هذا الأمر تجلية بما كان من سؤاله رسول الله ﷺ عن أمور تتعلق بالمستقبل.

فقد روى البخاري في كتاب المناقب من الجامع الصحيح عن حذيفة بن اليمان رضي اللّه عنه قال: «كان الناس يسألون رسول اللّه ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول اللّه إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا اللّه بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخَن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: صفهم لي، قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: يا رسول اللّه فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكُن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضٌ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

صلى اللّه وسلم وبارك على رحمة العالمين معلم الناس الخير سيدنا محمد بن عبد اللّه، وجزى اللّه صحابينا الجليل حذيفة بن اليمان خبر الجزاء.

وكم نكون من أهل العقول الراجحة إذا وفقنا للانتفاع بهذا البيان النبوي الذي كان مفتاحه أسئلة حذيفة رضي اللّه عنه، وعملنا على أن نوظفه بمنهجية على ساحة التربية والإعداد كيما يكون المسلم كفاء الثابت على الحق يدور معه حيث دار، ويذود عن حياضه، مهما تكاثف الظلام وذرَّت الفتن بقرونها.



وضوح الرؤية والبناء.. وشهادة الرسول ﷺ

مسؤولية الرحلة المطلوبة، من الواقع إلى ما يتطلع إليه الرواد المخلصون من أبناء هذه الأمة: مسئولية ثقيلة الأعباء لما أنها تتعلق بتخليص الفرد والمجتمع من الشوائب، والعمل الجاد الموضوعي في آفاق البناء بناء الذات ـ على العقيدة ـ في الفرد، وبناء القدرة الذاتية في الثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة في المجتمع.. كيما يعود للأمة وجودها الأصيل، وتتبوأ مكانتها القيادية في العالم من جديد.

وقد أسلفنا غير مرة فيما سبق: أن أمتنا حين تعزم عزمها على استئناف مسيرتها الخيرة لا تنطلق من فراغ، فهي أمة الرسالة الخاتمة والشهادة على الناس، وهي أمة الماضي الذي تدرج عبر القرون في ضوء الإسلام، فانشأ أسمى حضارة عرفها الإنسان، وحسبك أن الله شاء لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولكن ما أولاها الله به من نعم وماأعطاها من خصائص.. لا يصح أن يفرَّغ من مضمونه ومقوماته، وما يجب له من المستوى اللائق علماً وعملاً وجهاداً وأخذاً بأسباب الحياة، بل وإنما لمقومات الحياة كما دل على ذلك منهج الحياة في الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ومن هنا يتضح أن من الواجب العمل على أن تكون الرؤية واضحة على ساحة الإعداد وتنمية الحوافز الذاتية للعمل الصالح في الشؤون كلها وتعميق منطلقات الاعتزاز بالانتماء والقدرة على خوض معركة الحياة بثقة وأمل بالغين في ظل نعمة الله العظمى الكلمة الطيبة، وعلى هذه الساحة الرحبة المثقلة بالأعباء!!

وإذا كان الأمر كذلك ـ والليالي مثقلات يلدن كل يوم جديداً على ساحة الثقافة والفكر والتلبيس والتدليس: فلا بد من التنبيه على أن هنالك حقائق، من العقوق الآثم للدين وللمنهجية والعلم والحركة: إغفالها؛ من هذه الحقائق بالغة الأهمية كون الرسول ﷺ ـ وقد قاد عملية البناء الفريدة في التاريخ على هذه الأرض ـ يشهد على الأمة يوم القيامة أنه بلغها الرسالة وأدى الأمانة وقادها إلى ميادين الخير والفلاح، وهنالك ينكشف الغطاء، وتتبدّى الأمور على حقيقتها: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] أجل: تتبدى الأمور كما هي دون زخرف أو تمويه، ويظهر من استجاب مخلصاً، وظل مستقيماً على الطريق، ومن لم يستجب، أو استجاب ثم انحرف عن الصراط السوي؛ فكان سلوكه في واد، وما يدعو إليه الإسلام من الاستقامة والعمل الدؤوب والجهاد الصابر في واد.

وفي صحبتنا للمعلم القرآني في سورتي البقرة والحج، حيث سعدنا بما هدانا إليه هذا المعلم من إنعام اللّه على هذه الأمة بأن جعلها موضع الثقة وسطيةً وعدالة، فتشهد على الناس يوم القيامة بأن رسلهم بلغوهم وهي شهادة بما علمت من القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام عن مواقف الأمم من رسلها وما جاؤوا به من عند اللّه...

في هذه الصحبة المباركة وقفنا المعلم القرآني على اقتران شهادة الرسول ﷺ على أمته بشهادة الأمة على الناس، غير أنها ذكرت في سورة البقرة معطوفة على شهادة الأمة، أما في سورة الحج: فكانت هي السابقة في الذكر، ففي الأولى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وفي الثانية: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] هكذا في سورة البقرة: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وفي سورة الحج: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

ترى هل هو معقل من معاقل الحراسة الأمينة كيما تكون الأمة ـ دائماً وأبداً على تقلب الليل والنهار ـ يقظة واعية مستقيمة على الطريق الإيمانية البانية التي تسلمها إلى القوة والعزة في الدنيا والسعادة في الآخرة؟ لعل هذه واحدة من الحكم ـ والله أعلم ـ وكم تبدو الغفلة عن هذه الحقيقة قاتلة حين ترى التخلف عن ركب الإسلام يشرِّقُ ويغرِّبُ في أرجائها، وكأن البعض لا يؤمن بيوم الحساب وأن رسول الله ﷺ لا بد أن يشهد عليه... إن مشكلة كبيرة في أعماق النفس من التردد وقابلية التبعية والاستهتار: يمكن القضاء عليها بتنمية الشعور بهذه الحقيقة وشهادة رسول الله ﷺ يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وفي لمحة عابرة لم يتسع المقام لأكثر منها في حديث مضى أشرنا إلى هذا المعقل العظيم عظمة من انتسب إليه، وهو حقيقة أن رسول الله ﷺ سوف يشهد على أمته يوم القيامة، إلى أي حد كانت الاستجابة لمقتضيات الرسالة والبذل في سبيلها والاستقامة على أحكامها وما هدت إليه في العقيدة والتشريع والسلوك. وقد تكرر ذكر هذه الحقيقة في سورتي البقرة والحج: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾وفي النساء نقرأ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

والذي يستوقف الناظر المتبصر أن رسول الله ﷺ ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ كان يقدِّر هذه القضية حق قدرها، وتأخذ من نفسه مأخذها حين يتصور أنه سيشهد على أمته. وقد يكون هنالك ما يكون من انحراف وجنوح عبر القرون المتطاولة والذي يريده عليه الصلاة والسلام أن تكون أمته دائماً على الصراط السوي فتكون لها القيادة والريادة في الدنيا والشهادة على الناس أن رسلهم بلغوهم يوم القيامة.

وها نحن أولاء مع الواقعة التالية. أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ**»، **فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم إني أحب أن أسمعه من غيري**

فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾[آل عمران: ٢٥] فقال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان، وفي رواية قال لي: كُفَّ، أو «أمسك» فإذا عيناه تذرفان. وعند مسلم: «فرفعت رأسي فإذا دموعه تسيل» وجميل قول ابن بطال في «شرح البخاري»: (إنما بكى عند تلاوة هذه الآية، لأنه مثَّل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحقُّ له طول البكاء).

وعقّب الحافظ ابن حجر على ذلك بقوله: (والذي يظهر أنه بكى رحمةً لأمته، لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملُهم قد لا يكون مستقيماً فقد يُفضي إلى تعذيبهم والله أعلم).



خيرية الأمة.. والبناء

النظرة المتدبرة فيما أشرقت به النصوص الكريمة من خيرية هذه الأمة وفي مقدمتها قوله تعالى: في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] تحمل على القول بأن كل ما أعطي هذه الأمة المجتباة من الخصائص: فهو من مشتملات تلك الخيرية التي من مقوماتها إيمان صادق بالله وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.. وما أعظم ذلك في نشأة الأمة، ودفع العاديات عن وجودها وتماسكها وقدرتها على أداء رسالتها في العالمين.

وليس من مكرور القول: أنه من خلال الكلام على تلكم الخصائص المومى إليها والتي كان من الآيات الناطقة بها آية في سورة البقرة تقرر شهادة الأمة على الناس يوم الدين وشهادة الرسول ﷺ وبارك عليه.. ليس من مكرور القول: التنبيه على ما نقع عليه من خلال هذا الحديث أن هذه المكرمة تكشف بعمق عن مسؤولية الأمة في حدود ذاتيتها، وعن مسؤوليتها على الصعيد الإنساني الذي تقتضيه طبيعة الرسالة الخاتمة، ووجوب تبليغها العام ما استطاع المسلمون إلى ذلك سبيلاً. كما تكشف عما يفترض أن تصنعه في النفوس من حوافز إلى العمل الخالص لله، والدائب المستمرّ، الذي يسهم إسهاماً متوازناً في عملية البناء الكبرى.. لا أن يهبط الأمر إلى المستوى الذي لا يليق به من مفاخرة ومباهاة لا تقترنان بجدية العمل، ويبدو أن بينهما وبين الإحساس بالمسؤولية انفصاماً ينبو عنه الفهم العميق لآي الكتاب الكريم وحديث النبي عليه الصلاة والسلام..

وما من ريب في أن من غير المقبول أن ترضى الأمة بهذه الهاوية التي تحوّل المكرمة إلى مشغلة تلهي عن متابعة الطريق الشاقة في البناء العلمي والعملي، وتسلك بالأجيال طريقاً مقطوعة عن العمل المثمر، مقفرةً من العطاء، تعطي

الدليل على أن انتماء صاحبها إلى أمة الشهادة على الناس دعوى بلا دليل!! وأين من ذلك ما يجب من ارتقاء المركب الصعب في سبيل اللّه، كيما يكون الفرد والمجتمع على مستوى ما خصّ اللّه به أمة تحمل الرسالة الخاتمة عن خاتم النبيين رسول اللّه عليه الصلاة والسلام.

إن الواقع الذي تعاني منه أمتنا؛ بعداً عن الإسلام في كثير من المجالات، وتمزقاً يباعد بين المرء وبين التفاؤل بتحوُّلٍ إلى الجادة من جديد ـ ولكن دونما يأس من رَوْح اللّه ـ إن هذا الواقع الذي يذوب له القلب كمداً وتتقطع النفس من شدته حسرات.. يدعو إلى التذكير بهذه الحقيقة كيما نكون واقعيين في نظرتنا إلى الخيرية التي تميزت بها أمتنا الماجدة والحمد للّه، وما يقتضيه هذا العطاء الإلهي من وجوب الاتجاه وجهة متسقة مع الشكر الحقيقي لهذا العطاء، وهو ما كان صنيع السلف الصالح.. خصوصاً وأن الخيرية ـ كما أسلفت غير مرة ـ مرتبطة بما هي عليه الرسالة الربانية التي شاء اللّه أن يكون من أبرز خصائصها أنها للناس جميعاً على اختلاف الألسنة والأجناس، والألوان، والأزمنة والأمكنة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وكل أولئك يذكرنا بما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم: «.. وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة» وفي رواية «إلى الناس عامة».

فكما كانت الرسالة للناس كافة، كذلك جعل اللّه هذه الأمة خير أمة أخرجت لا لنفسها فحسب، ولكن للناس جميعاً في تجاوز لحدود الزمان والمكان والأجناس والألوان.

وهكذا يمتد رواء العطاء وسلامة البناء والإنماء من طريق هذه الأمة ـ إذا استقامت على الطريقة ـ ليسع البشرية هنا وهناك!! هذه واحدة: وأما الثانية: فهي ما نجد من الارتباط الوثيق بين الخيرية وبين الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر والإيمان بالله. ولقد قُدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الذكر ـ والله أعلم ـ للإشعار بأهميتها في حياة الأمة المسلمة مع أنهما من مقتضيات الإيمان، وكلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ كما هو واضح ـ منهج حياة يضمن ـ بعون الله ـ التمكين للأمة في الأرض إذا هي عملت به، وأقامت بنيانها في الأمور كلها، والميادين جميعها عليه!! والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حراسة للكيان الذي ينشئه هذا المنهج القويم على صعيد الفرد والمجتمع والأمة، بما يُشعر كلَّ فرد بمسؤوليته عن دفع قافلة الخير إلى الأمام، وإماطة الأذى عن طريقها، كيما تظل الأمة على المستوى اللائق بخير أمة أخرجت للناس.

وهكذا أيضاً يبدو واضحاً كل الوضوح ـ كما تدل النصوص والواقع التاريخي ـ أن هذه الخصوصية العظمى ليست أمراً يترنح على ساحة الإهمال، والعيش الهابط، وإلقاء الحبل على الغارب، ولكنها خصوصية ترشح الأمة بسلامة عقيدتها ونشدانها العلم والمعرفة، وتفاني أبنائها في حمل المسؤولية على طريق البذل والعطاء والأخذ بأسباب البناء الذاتي.. ترشحها دائماً للريادة التي تتطلع إليها شعوب الأرض بعد تجاربها العديدة المريرة التي تعلن عن إخفاقها في التاريخ القديم والتاريخ الحديث.

ألا إن الانصياع لمدلول هذه الكلمات النورانية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يصنع كثيراً كثيراً والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.



في ضوء المعالم..
وقفة عمرية على ساحة البناء

«١»

حاجة الأمة في هذه المرحلة من حياتها إلى الشجاعة الأدبية في النقد الذاتي، والنظرة الموضوعية إلى المكرمات والخصائص التي أنعم الله بها عليها، حاجةٌ ملحّةٌ كفاؤها ـ مع الأخذ بالأسباب ـ حرص صادق على تطويع النفوس بالخيِّر النافع من الأساليب، كيما تكون عند طاعة الله ورسوله في كل شأن من شؤون الحياة.

وفي ذلك إقصاء للنظرات المتشائمة التي تتخذ من واقع الأمة المتخلف عن حقائق الإسلام، ذريعة لليأس والقعود عن الأخذ بالأسباب.

ولله تبارك وتعالى في خلقه والعلاقة التي أقامها ـ بحكمته ـ بين الإنسان وبين الكون والحياة سُنن لا تتخلّف ولا تتبدّل؛ فالنتائج مرتبطة بالمقدمات؛ وذلك ما تدل عليه معالم الكتاب العزيز، وبيانُها من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وكان مما وقفنا عليه واحد من تلك المعالم فيما سلف من القول: قضية بالغة الأهمية في قول الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهي سنة الله في مدى الارتباط بين المكرمة العظيمة التي تنص عليها الآية الكريمة، وبين الالتزام بحقيقة الإيمان والأبعاد التي يرتادها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالحفاظ على ما خصّ الله به الأمة، من جعلها خير أمة أخرجت للناس جميعاً، بهذه السعة التي تتجاوز حدود الأمة نفسها إلى البشرية جمعاء.. يقتضي استمرارية العمل بما شرطه الله لذلك. وإذا كانت سنة الله لا تتخلف: فسبيل

النجاة من الوهدة أن تعزم الأمة عزمها بصدق ومنهجية، فتتخذ من هذه الخيرية المرتبطة بعقيدة التوحيد التي هي منهج حياة متكامل كما أراد الله، وبما يستلزمه هذا المنهج من إشعار الفرد بكرامته ومسؤوليته، سهراً على كل ما فيه خير الجماعة.. أن تتخذ من ذلك في مناهج التربية والإعداد، حافزاً للعمل، ومنطلقاً إلى التغيير، تستأنف من خلاله طريقها إلى موقع الريادة ـ وجوداً ذاتياً وقوة تفيد من الإيمان بما عند الله ومن عطاء العلم وما يتوافر من ثروات وإمكانات. وذلك ما أرادته معالم القرآن الكريم، وترجمته سيرة النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ومن سار على هديه إلى واقع عملي في الثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد.. بحيث لا يشكو بنيان المجتمع من الهزال في ناحية من النواحي، لأن الأمة تعمل في ضوء منهج حدّدت فيه الغايات والوسائل مصحوباً ذلك بما يضمن التوافق بين تلكم الوسائل والغايات.

وضمن هذا التكامل والتحديد: تعمل الأمة بوصفها خير أمة أخرجت للناس، تحمل الرسالة الخاتمة للعالمين، فهي خير الأمم وأنفع الناس للناس.

وهذه وقفة عمرية على صعيد الواقع العملي، تزيد الرؤية وضوحاً في أن سنة الله لا تتخلف وفي ترتيب النتائج على المقدمات وفق تلك السنة الإلهية الكريمة. أخرج الإمام الطبري بسنده عن قتادة قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من الناس دعةً ـ شيئاً من الركون إلى الراحة ـ فقرأ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ثم قال: (من سرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها) قالها عمر والإيمان يزداد، والمجتمع المسلم يتسامى بناؤه ويتعاظم، ورايات الفتوح تنتشر هنا وهناك.. ولكنه رضي الله عنه خاف ـ وهو ينظر نظرته العمرية إلى المستقبل ـ من الدعة والقعود عن العمل والجهاد، ركوناً إلى الراحة والعافية من الواجب، فذكّر بالحقيقة التي يعلنها المعلم القرآني..

رضي الله عن عمر وأرضاه وردّ الأمة إلى ما فيه الخير والصلاح وهيأ لها من أمرها رشداً...

مع الوقفة العمرية... على طريق البناء

«٢»

ليس كثيراً على الأمة التي تحمل رسالة التوحيد والمؤهلة ـ بكونها خير أمة أخرجت للناس ـ لقيادة ركب الإنسان.. ليس كثيراً عليها أن تنشد أسباب التحوُّل ـ اليوم ـ من أطرافها علماً وعملاً وجهاداً وسلوكاً يتسم به أصحاب الغايات الكبار، وذلك ما تقتضيه النظرة المتأملة فيما ارتبطت به خصائص الأمة في القرآن الكريم، وما دلت عليه معالمه الخيِّرة من سنن اللّه التي لا تتخلف في أن الوجود الذاتي القوي للأمة مشروط بمنهج معين لا بد أن تأخذه بقوة ويقين. وفي رحلتنا القصيرة مع قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وقفنا على كلمة رجل من عظماء تاريخنا الأولين. هو عمر رضي اللّه عنه، وهي كلمة قالها في حجة حجها وقد رأى من الناس دعة فقرأ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية ثم قال: (من سرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤدِّ شرطها).

قالها عمر وهو يخوض بالمسلمين معركة الحياة بناءً وإنماء، ولا يني يطرق كل الأبواب التي تحفظ على الأمة وجودها، وتمكّنها من أداء رسالتها البناءة في العالمين.

أن يقولها عمر رضي اللّه عنه ـ خوفاً من الدعة ـ مع أن حال الأمة في الداخل والخارج على ما ذكرنا.. أمرٌ ذو دلالة بالغة، يلقي مزيداً من الضوء على ما يجب من وضع معالم الكتاب العزيز في إطارها العملي القادر على التغيير، وإنشاء الواقع الذي ينشده كل غيور مخلص، يريد لأمته القوة والتمكين في الدنيا، والفوز بمرضاة اللّه في الآخرة.

والحق أن الآية الكريمة تلاها ما يعتبر ثمرة من ثمرات الالتزام بشرط الخيرية الذي نصت عليه، والذي أفصح عنه عمر رضي الله عنه بكلمته العظيمة. ولنعد إلى الآيات بمجموعها في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه المقارنة تزيد الأمر وضوحاً. فلو آمن أهل الكتاب من يهود ونصارى بالإسلام لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون ـ كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ـ وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسوق والعصيان.

ثم قال تعالى مبشراً هذه الأمة إن هي استقامت على الطريقة وأخذت بأسباب القوة، وحافظت على الشرط في كونها خير أمة أخرجت للناس: مبشراً لها بالنصر والتمكين، وعدم قدرة الكفار على الإضرار بها: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١١-١١٢].

أعود لأقول: إنها سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل.. فيوم كانت الأمة على الصراط السوي استقامة، وأخذاً بالأسباب على الوجه الذي ينبغي في تساوق مع سنن الله وتوكل عليه: كان لها النصر والتمكين، وما هي عليه اليوم انعكاس طبيعي للجنوح عن ذلك الصراط. فإن عادت إلى منابع القوة والخير، عاد لها من بارئها النصرُ والتمكين إن شاء الله، وما ذلك عليه جل شأنه بعزيز﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧].



البناء.. وحراسة المجتمع

«١»

من الحقائق القرآنية التي دلّت عليها النصوص التي تتحدّث عن خصائص الأمة المحمدية من مثل قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ﴾ أن على الأمة أن تتخذ من التكريم قوة دافعة إلى المعالي، وحافزاً يحفز الفرد والجماعة إلى ميادين العمل المثمر والتعاون المجدي على الخير، كيما يتحقق ما اقتضيه واحدة من سنن اللّه التي لا تتخلف ولا تتبدّل، من استقرار في المجتمع المنضبط بضوابط شريعة اللّه، والعامل أفرادُه على تحقيق الشرط الذي شرطه ربنا للخيرية والتكريم. الأمر الذي يجعل الشعور بهذه المسؤولية سمة مميزة تجلب الخير، وتنفي الأذى، وتشكّل حراسة أمنية تحول ـ بعون اللّه ـ دون التخلخل والضعف.

ومما يؤكد ذلك ما ورد في سورة آل عمران نفسها من قول اللّه جل شأنه:﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فإذا كانت الآية السابقة تكشف عما بين الخيرية وبين الواجب القائم على الإيمان من وثيق الارتباط، وما ينبغي أن يكون بينهما من تلازم، رأينا من دلالته فيما سبق خوف عمر رضي اللّه عنه على الأمة من الركون إلى الدعة، وذكّر بشرط الخيرية الوارد في الآية، والذي يبرهن الصدق فيه على صدق الانتماء إلى أمة الإسلام.. أقول: إذا كان الأمر كذلك في الآية السابقة.. فإن هذه الآية تأمر أمراً صريحاً بأن تكون الأمة دائماً على المستوى اللائق بالتكريم، ويتمثل هذا المستوى بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فذلكم طريق الفلاح، والذين يقومون به هم المفلحون.

ولما كان النقيض يعرف بنقيضه ـ وبضدها تتميّز الأشياء ـ كان من الطبيعي أن يتفحّص العقلاء واقع الأمة اليوم، ليروا كيف أن التخلف عن تحقيق ما أمرت به الكلمات الهاديات في كتاب الله، قد أسلم هذه الأمة إلى ما هي عليه من التمزق والتشتت والضعف، الأمر الذي أطمع فيها الأعداء ـ وفيهم الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة ـ وعاد عليها ببعثرة الجهود، وإنفاق كثير من الوقت والطاقات الفكرية والاقتصادية وغيرها تحت عنوان التصويب والتعديل فيما لا طائل تحته. والمفترض أن يوضع ذلك كله ـ إذا خلصت النيات ـ في ميادين البناء والإنماء على هدي ما كانت به الأمة خير أمة أخرجت للناس، الأمر الذي يضاعف الإمكانات العلمية والاقتصادية وما إليهما.. ويضع الاهتمامات موضعها الطبيعي على سلّم الأولويات، ويسهم أيّما إسهام في استقرار المجتمع ورفاهيته وقدرته على العطاء متوجهاً بأبنائه وجهة التوفيق في الدنيا، والفوز بالسعادة الأبدية يوم الدين.

من أجل ذلك كان الذين يعملون على لمّ الشتات في ضوء العقيدة، ويبذلون المستطاع لتنمية كل ما من شأنه حراسة المجتمع من الداخل والخارج.. كانوا على خط ميمون يغبطون عليه.

وأنت واجد أن الآيات التي سبقت قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ أمرت بالاعتصام بحبل الله، ونهت نهياً مشدّداً عن الفرقة، وذكّرت بما كانت عليه الحال في الجاهلية، وما تصنعه العقيدة في تأليف القلوب والاجتماع على الأخوة في الله؛ ذلكم قوله جل وعلا: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد تنزلت هذه الآيات والمجتمع الإسلامي يأخذ طريقه إلى البنيان المتكامل الذي ينعَم بالهدي الرباني؛ فلا بد من الحراسة خارجياً بالجهاد، وداخلياً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولابد من التمكين دائماً لعناصر القوة والأخوة في الدين، وذلك ضماناً لمسيرة الخير، وحرصاً على التزام المنهج القرآني القويم.

وفي نقلة إلى الواقع المحزن الذي تعيشه الأمة، ما بدّ من تقرير أن نصر الله قريب إذا صدقت الوجهة من استئناف طريق الأيد والتمكين؛ فذلك من سنن الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. والأمة التي تصقلها الأحداث الكبار والمصائب الجسام: هي التي يهزها الواقع هزاً عميقاً، فتفيد من ماضيها لحاضرها، وتضع ذلك على طريق المستقبل؛ فما كان صواباً استقامت عليه، وما كان غير ذلك: عدلت عنه وتحوّلت إلى غيره.

والهداية في الآية الكريمة ساحة بعيدة المدى تشمل كل ما يضمن القوة والتمكين في الدنيا، والفوز بالنعيم القيم في الآخرة، وذلكم هو الفلاح لا ريب، والله ولي المتقين.



حراسة المجتمع...
ورد دعوى المفسدين في الأرض
«٢»

في رحلة متواضعة مع بعض من المعالم القرآنية، وقفنا على جانب من هداية الكتاب العزيز في شأن ما أنعم الله به على الأمة المحمدية، حين اجتباها لتكون خير أمة أخرجت للناس، وجعل منها أمة وسطاً تؤتمن على الشهادة على الناس يوم القيامة أنَّ رسلهم أدوا أمانة التبليغ. ورأينا الحجم الذي أخذه التكريم على ساحات البناء، وتحقيق الوجود الذاتي للأمة، وإنماء قدرتها على العطاء، ضماناً لاستمرار القوة وتعاظم البناء وتساوقه مع العقيدة، أن لو عملت الأمة على أن تكون على المستوى المطلوب، وذلك بأداء شرط الخيرية والشهادة على الناس، والحفاظ على المسلك الإيجابي البعيد عن التهاون والاسترخاء، والحرصِ على تنمية الشعور عند الفرد والجماعة، بأي أيٍّ لون من ألوان التكريم، إنما هو مسؤولية كفاؤها الجدية في العمل وفق المنهج الرباني الذي يمكّن للمؤمنين في الأرض ويسعدهم في دار البقاء. والجدية في العمل وفق هذا المنهج تقتضي استكمال شرائطه والإخلاص في تقديم المستطاع، وذلكم هو طريق الفلاح الذي وعد الله عباده الصادقين ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء: ٩٤].

ولكن ذلك ليس القضية كلُّها فيما يتعلق بالتكريم والاجتباء؛ فما تزال هنالك خطوط من الهداية القرآنية تذكرنا بأعداء الأمة اليهود، وما يصحب عدوانهم وأذاهم المتفاقم من غطرسة يزعمون معها أنهم شعب الله المختار؛ فلهم الحق في

أن يعثوا في الأرض مفسدين، ولهم حرية التصرف كما يشاؤون في عنصرية تزيد المشكلة تعقيداً، وقد ينسى المسلمون منها أن ما يحصل اليوم هو امتداد لما حصل بالأمس.

فالقرآن الكريم الذي أوضح للأمة المسلمة أن ما خصَّها اللّه به من التكريم: يثقل العبء، ويوجب التبعات الجسام، ويقودها إلى حيث تكون المكرمة حافز عمل بناء، لا عنصرَ مفاخرة ودعوى غير ذات مضمون.. القرآن نفسه يكشف لنا عن ألوان من دعاوى اليهود حيناً، واليهود والنصارى حيناً آخر، بأن لهم التميز الذي لا يتعلق بعمل نافع، ولا يرتبط بمسوِّغ صحيح.

وها هي ذي واحدة من دعاوى اليهود نقرأ في شأنها قول اللّه تعالى في سورة البقرة: **﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾** [البقرة: ٨٠].

يَدّعون أن النار لن تمسَّهم يوم القيامة ألا أياماً معدودات، هي سبعة أيام، أو أربعون يوما وهي مدة عبادة آبائهم العجل، ثم يزول عنهم العذاب، وقد روي أنهم يضمُّون إلى هذا زعمهم أن محمداً ﷺ ومن معه يخلفونهم فيه، روى الطبري بسنده عن عكرمة قال: خاصمت اليهود رسول اللّه ﷺ فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة وسيخلفنا فيها قوم آخرون يعنون محمداً ﷺ وأصحابه رضي اللّه عنهم فقال عليه الصلاة والسلام بيده على رؤوسهم: «**بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد**» فأنزل اللّه عز وجل: **﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾**[البقرة: ٨٠].

وغير خافٍ أن معركتنا مع اليهود معركة متشعبة الميادين، وقد تكون طويلة الأمد، ولها ما لها من انعكاسات سيئة على مسيرة البناء في كثير من بقاع العالم الإسلامي.

ولذلك يجب تعميق المعرفة التي لا تعوزها الأدلة بحقيقتهم وما هم عليه في الماضي والحاضر، فذلك من الإعداد المطلوب لأن معرفة العدو بموضوعية وتوثيق: سلاحٌ هام من أسلحة المواجهة.

وسنقف في حديث قادم إن شاء اللّه على ما أجاب القرآن عن دعواهم المشار إليها، والله بالغ أمره، وهو حسبنا ونعم الوكيل!.

حراسة المجتمع في البناء..
ودعاوى المفسدين في الأرض
«٣»

وفاءً بموعد سبق من الاستنارة بهدي القرآن الكريم فيما ردَّ به دعوى اليهود أن النار لا تمسُّهم يوم القيامة إلا أياماً معدودة، نعود إلى الآية الثمانين من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠].

هذه الدعوى التي تبرز واحداً من مزاعم اليهود وهو تكريم الله لهم يوم القيامة فلا تمسهم النار إلا أياماً معدودة لا لشيء إلا لأنهم يهود!! ولو كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويستمرئون العصيان والاعتداء، ولو كان ديدنهم في الأجيال المتعاقبة وحتى يوم الناس هذا، تجاوز حدود الله في كل أمر، وإصرارهم على الضلال الموصل إلى الجحيم.. هذه الدعوى ذات نسب غيرِ طاهر إلى دعواهم اليوم أنهم شعب الله المختار، والجامع بين تلك الدعوى وهذه: اتخاذ ذلك مسوغاً للأذى والعدوان على الإنسان والدين والقيم. ووسائلهم لهذا كله كشفت عنها كلمات وتصرفات زعمائهم وقادتهم إلى النار، وأبسط ما يقال فيها: إنها وسائل من جنس تلك الغايات الظالمة الهابطة.

وما دام الأمر كذلك: فالنظر فيما كشف عنه القرآن من خلائقهم ـ وهو من الثوابت ـ نظرَ الوعي والتدبر، يهدي إلى معالجة الواقع، ولا تعجب: فمن إعجاز القرآن على ساحة الهداية الشاملة: أنه قد تنزل على رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً، وتراه اليوم يضيء الطريق في دنيا الأمة، كأن آياته تتنزل غضة طرية على هذا الواقع اليوم.

ففي الآية المشار إليها يفنّد الله دعواهم العريضة، فيأمر محمداً ﷺ أن يقول لهم على سبيل الإنكار والكشف عن خزيهم فيما يقولون: أتخذتم عند الله ميثاقاً يمنحكم ـ على سوئكم ـ هذه المزية وتنفردون بها عن الناس، بل تقولون على الله ما لا تعلمون، فلا دليل ولا مسوِّغ. أجل إنهم يقولون على الله ويفترون. ودائماً ما أشبه الليلة بالبارحة مع اليهود، لا فرق بين جيل وجيل، إلا أن يهود اليوم قد توافر لديهم من وسائل العلم التقني ومظاهرة العُتاة من أصحاب المصالح والحركة الصهيونية التي هي مخلبهم الأزرق المسموم، ما لم يتوافر لمن سبقهم، وعلى الجميع لعنات الله المتواليات.

ولننظر إلى الشعبة الأخرى من الرد على الدعوى فماذا نجد؟ نجد المعلم القرآني يذكّر بسنة من سنن الله التي لا تتخلف وهي مظهر من مظاهر عدل الله وحكمته، تلك السنة هي ارتباط الجزاء بالعمل، فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فماذا يقدّم اليهودي بين يديه يوم الحساب؟ يقول الله تعالى في الآية التالية وهي الحادية والثمانون من سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١].

هذه قاعدة عامة، وسنة لا تريم: » من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة فمصيره الخلود في النار. واليهود قد أثقلتهم الأوزار، وأحْدق بهم الانحراف عن التوحيد من كل جانب ويموت من يموت منهم وهو مقيم على العصيان والمكر والضلالة، فكانت لهم النار «هم فيها خالدون». وعلى النقيض من هذا تكون عاقبة المؤمنين الذين يعملون الصالحات. ذلكم قوله تعالى في الآية الثانية والثمانين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٢].

هكذا تعلن الحقيقة القرآنية إعلانها في شأن العاقبة يوم يقوم الناس لرب العالمين، وأن عاقبة أهل الضلالة المغضوب عليهم المفسدين إنما هي النار.

ألا كم نقدم لأنفسنا وللإنسانية من الخير حين يصحب الإعدادَ العسكريَ والسياسيَ والاقتصاديَ في مواجهة عدوان اليهود، إعدادٌ عقلي ونفسي ـ وذلك من صالح العمل ـ نستقيهما من حقائق القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام؛

فذلك في تنشئة الجيل واحد من أمضى الأسلحة التي تضمن ـ بعون اللّه ـ الانطلاقة الصحيحة وتسيير الإعداد بكل ميادينه في قنواته الصحيحة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٣].



الأخوة.. والبناء
والإفادة من الماضي للحاضر
«١»

كلما أعمل المؤمن فكره ودقق النظر فيما أصبح عليه المجتمع بعد أن تسلَّم قياده النبي ﷺ، واتجه به صوب البناء الحضاري المتكامل: ازداد يقيناً بأن هذه الصيغة الجديدة للمجتمع، ما كانت لتؤول إلى ما آلت إليه لولا توافر تلك البنية الصالحة المتكاملة للفرد المسلم حيث اتسم الجيل الذي حمل عبء التغيير بالأخوة الصادقة في ظل عقيدة التوحيد، وبتَّ ترى أولئك المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل البنيان يشد بعضه بعضاً. وقد كان لذلك ما له من انعكاسات على العلاقات الاجتماعية والقدرة على التعاون المثمر الذي جعل طاقات المجتمع تنمو في كل مجال، وتأخذ مجراها الطبيعي حيثما دعت الحاجة إلى ذلك.

أقول هذا في متابعة لما شهدنا فيما سلف من قريب، من هداية المعلم القرآني بشأن الحسِّ الجماعي عند المؤمنين وما تميزُوا به من شفقة بعضهم على بعض وحب كل واحد منهم الخير للآخر في الدنيا والآخرة، الأمر الذي نطق بواحدة من صوره الفذة المعبِّرة: قول الله تعالى في الآية الثالثة والأربعين من سورة البقرة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. حيث زفّت هذه الكلمات النورانية البشرى للمؤمنين بأن صلاة من صلّى إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة إلى البيت الحرام صلاة صحيحة، فالذين ماتوا من إخوانهم قبل أن ينزل الأمر بالتحويل: ما كان الله ليضيع صلاتهم إن الله بالناس لرؤوف رحيم. وكانت هذه البشرى جواباً عن تساؤل المؤمنين عن صلاة إخوانهم الذين وافتهم المنية قبل نزول قوله تعالى في سورة البقرة خطاباً للنبي عليه

الصلاة والسلام: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وإذا كنا حريصين على الإفادة من الماضي، والقراءة النافعة لمقومات المجتمع القدوة الذي صنعته بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام أيدي أولئك البررة وعقولهم وقلوبهم، لنتخذ من ذلك ـ في دنيا الواقع ـ عوناً على الارتقاء إلى ما هو أفضل، وتحقيق النماء الخيِّر الذي نريد. إذا كان منا حرص على ذلك، فلا بد أن يكون واضحاً لدينا أن الصورة التي عبّرت عنها الكلمات الهاديات في قوله تعالى هي واحدة من صور كثيرة تعددت بتعدد بواعثها وتنوُّعِ مجالات العمل والتعاون على تحقيق ما كانت تطمح إليه عملية البناء الكبرى كما أرادها الإسلام.

وهذه الصورة وأمثالها ترجمان عملي لما جاء في وصف المؤمنين في التوراة أو في التوراة والإنجيل كما أخبر عن ذلك القرآن الكريم في خاتمة سورة الفتح في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩] ومما يدل على عظيم مكانة الإنسان المسلم المؤهَّل كما ينبغي في البناء الذي ترمي إليه الرسالة: أن هذه الآية التي اشتملت على هذه الصفات الكريمة سبقت بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨] وكما أسلفت غير مرة، المنجزات العظيمة التي تحققت في الصدر الأول على صورة متكاملة في البناء، حيث لا يعوزها عامل من عوامل الوجود العملي لأحكام الإسلام وخضوع حركة الحياة لها في كل ميدان، هذه المنجزات التي أخذت مكانها في بنية حضارة

الإسـلام: ينبـغي أن تكون حـافـزاً أصـيـلاً يحـفـز الأمـة إلى إحكام الصلة بتلك المقومات الفذة، ومنها تمتين العقيدة وتعميق روابط الأخوة التي تقوم عليها، كيما يكون الحـصـاد في مـيـادين العلم والعـمل والإنتـاج في ظل التـعـاون البنّاء المثمّـر والثّـقـة المتبـادلة بين الإخـوة: حـصـيلة طيبـة تصل مـا انقطع، وتجمـع مـا تفـرّق، وتوظف الإمكانات الهائلة التي أعطاها اللّه أمّـة الإسـلام ـ مع مـا خصّهـا به من المكارم ـ في الطريق المجـدية التي تتـعـامل مع الحـيـاة بلغـة الحـيـاة وتعـيـد إلى الوجـود حـضـارة الإسـلام التي لا تشكو مـن العَـرَج أو مـن أكـثـر من شيء يشكو غيـرهـا وصلى اللّه وسلم على البـشيـر النـذير سيدنا مـحـمد وعلى آله وصـحـبـه أجمعين.



الأخوة؛ وهل هي قضية جذرية في المنهج؟؟

«٢»

هل لي أن أذكّر بصورة أخرى؛ فيها من الصورة التي كنا بصددها في القول القريب مشابه؟! فالمحور واحد وهو المحور الإيماني، والباعث واحد وهو شفقة الإخوة المؤمنين من أبناء المجتمع بعضهم على بعض، لما أن أُخوتهم قامت على عقيدة التوحيد؛ فهي أخوة عقد الله موثقها من فَوْقِ سبع سماوات: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] جاء أمراً لازماً بهذه الأخوّة من لدن رب العالمين جل شأنه، وإن ورد على صورة الخبر. فالواجب على المؤمنين الحفاظ على هذه الأخوة وتنمية كل ما من شأنه تعميقها، وتبيان ارتباطها بالكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

والصورة التي نشير إليها هي ما يجده الناظر المتدبر في الآية الثالثة والتسعين من سورة المائدة وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣].

فقد مات رجال من الصحابة رضوان الله عليهم قبل أن تحرَّم الخمر تحريماً مطلقاً فلما نزل تحريمها في الآيتين التسعين والحادية والتسعين من سورة المائدة وهما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١] لما نزل هذا التحريم الجازم أشفق المؤمنون على مصير من

مات من إخوانهم وهم يشربون الخمر، أن يكونوا قد نالهم إثم شربها فنزل: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣].

وقد بوّب الإمام البخاري لذلك فقال: باب: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣] ثم روى بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريم الخمر، فأمر منادياً فنادى فقال أبو طلحة أخرج فانظر ما هذا الصوت قال: فخرجتُ فقلت: هذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حُرِّمت إلى أن قال: فقال بعض القوم: قتل قوم وهي في بطونهم فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣].

وروى الترمذي عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مات رجال من أصحاب النبي ﷺ قبل أن تحرَّم الخمر فلما حُرمت الخمر، قال رجال: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣].

ألا إنه ليس من التبصّر العقلي في شيء أن ننظر إلى هذه الواقعة التي قدّمها للأمة المجتمع الإسلامي القدوة، دون أن نعطيها حجمها الطبيعي في معركة التحويل والبناء التي شملت ـ فيما شملت ـ إعداد الفرد ذكراً كان أو أنثى، وإعداد الجماعة، وعمارة الأرض، وتسيير طاقات المجتمع في قنواتها المناسبة دون وكْس أو شطط.

ذلك لأن هذه من تلك!! وأبواب الحضارة التي تفتحت للأمة، طرقَتها أيدي المؤمنين الذين جمعتهم ـ على اختلاف انتماءاتهم العرقية أو اللغوية أو الإقليمية.. ـ عقيدة التوحيد المباركة.

والحق أن هذه الصورة المشرقة تعكس صدق الأخوة الإيمانية، وشفقة المؤمنين على إخوانهم أن ينالهم العذاب في الآخرة ـ لا سمح الله ـ لما أنهم ماتوا وقد شربوا الخمر لأنها لم تكن حرمت التحريم المطلق بعد.

على أن هذا في الخوف على عاقبة إخوانهم في الآخرة: ما يدل على سمو الصلة القلبية فيما بينهم؛ فالمبتغى العظيم: حُسن العاقبة يوم الدين!

وفي هذه الصورة ـ كما أسلفت ـ مشابه واضحة من الصورة التي رأيناها في شأن تحويل القبلة حينَ خاف الصحابة على إخوانهم الذين وافتهم المنية والقبلة ما تزال بيت المقدس. يؤكد ذلك ما جاء في حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند من رواية أبي هريرة رضي الله عنه:... قالوا: يا رسول الله أناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم وكانوا يشربونها، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ [المائدة: ٩٣] وقال النبي ﷺ: «لو حرم عليهم ـ يعني شربها ـ لتركوه كما تركتموه».

ألا إنه على جسر يصل حاضر الأمة بماضيها: لا بد لهذه الأمة من أن تذكر أن القرآن هو القرآن كما أنزله الله، وأن السنة ـ وهي بيانه ـ هي السنة، والمؤمن مكلف بطاعة الله ورسوله، وموالاةِ الله ورسوله والمؤمنين.

ومن الأهمية بمكان تنمية التصور الصحيح لقضية الأخوة الإيمانية هذه، وأنها ليست قضية دينية بالمعنى الكهنوتي، ولكنها قضية جذرية على صعيد الإيمان والبناء كما يريده الإسلام، وفي تأكيدها وتعميقها في نور العقيدة والنماذج الواقعية عبر العصور: تنمية مباركة لواحد من أهم مقومات الوجود الذاتي المتماسك القوي للأمة. ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو سبحانه وليُّ المتقين.



الأخوة.. والإيجابية في البناء

«٣»

كان ما رأيناه من سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٢] وقوله جل شأنه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾. والمعنى الذي دلّت عليه هذه الكلمات المباركات: مؤشر واضح على ما تربى عليه المسلمون في الصدر الأول، وقد انضبطت علاقاتهم بضابط العقيدة فكانوا بنعمة اللّه إخواناً، ثم على وثيق العلاقة بين ما كانوا عليه من أخوة الإيمان، وبين ما سجّل التاريخ من ازدهار المجتمع وتعاظم بنيانه في ميادين الاجتماع والاقتصاد والتشريع والسلوك، حيث كان التحوُّل الجذري إلى القوة بعد الضعف، والوحدة بعد الفرقة، والذاتية التي تتحرك على محور الإسلام، بعد أن كان لليهود ما لهم من سلطان في ميدان الاقتصاد والفكر في تلك الحقبة هناك. ناهيك عما أزاح النظام الجديد من ركام الجاهلية ورواسبها.. وكل أولئك أسهمت في إنجازه أيَّما إسهام: أخوَّة العقيدة التي جعلت من التعاون على الخير والتسابق إلى ميادين البذل والعطاء، عاملاً من أهم العوامل في تنمية طاقات المجتمع وإمكاناته، الأمر الذي أقدره ـ بإذن اللّه ـ على تحكيم شريعة اللّه في مواجهة التحديات كلها، سواء أكانت من اليهود أم كانت من المنافقين والمشركين ومن على شاكلتهم سواءً بسواء.

فانظر إلى مجتمع يتجه صوب الذاتية في البناء، وتحيط به ظروف تستدعي تنمية الطاقات والإمكانات، كيما تكون شريعة اللّه هي المحكَّمة في أعقاب جاهلية جهلاء، وفي مواجهة تحديات متشعبة المناحي في الداخل والخارج.

أرأيت إلى مجتمع كهذا: كيف يشفق أبناؤه على إخوان لهم وافتهم المنية قبل تحويل القبلة أن يفوتهم الخير لأنهم لم يصلّوا إلى الكعبة.. وفي صورة أخرى يخاف هؤلاء الذين ينساحون في ميادين البناء إعماراً للأرض، ونشراً للدعوة وجهاداً في سبيل اللّه.. يخافون على إخوان لهم ماتوا قبل أن تحرَّم الخمر بإطلاق، فكانوا ـ يشربونها وهي حلال ـ يخافون عليهم أن ينالهم العقاب.

إنها الحقيقة: حقيقةُ أن كل المسؤوليات التي كانت على العواتق، وأن كل الواجبات اليومية المتجددة، لم تكن لتشغل هؤلاء عن مصير إخوان لهم يوم القيامة، الأمر الذي يجعلك تدرك أيَّما إدراك طبيعة الكفايات التي أنيط بها حمل تلكم الأعباء والريادة الأمينة، لا للعرب وحدهم ولكن لبني الإنسان أجمعين. كما تدرك أيَّ أثر خلفته أخوة العقيدة في دنيا الواقع الزاخر بالمنجزات على كل صعيد. فكان ذلك باب التمكين ـ بعون اللّه ـ في الأرض والفوز بمرضاة اللّه يوم الحساب.

وإذن فمن الممكّن على صعيد التربية والتنهيج: أن تأخذ أخوة العقيدة وجهتها العملية فتعطيَ عطاءها الكبير على صعيد البناء وتنمية الطاقة البشرية والمادية. وحاجةُ المجتمع الإسلامي إلى ذلك اليوم حاجة كبيرة ومتجددة.

وها هو ذا رسول اللّه ﷺ يتخذ من هذه الأخوة سبيلاً لتمتين أواصر التعاون في المجتمع، ودفع غائلات الضعف عنه فيقول: **«من نفّس عن مؤمنٍ كُربة من كُرب الدنيا نفّس اللّه عنه كُربةً من كُرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسرٍ يسَّر اللّه عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره اللّه في الدنيا والآخرة واللّهُ في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه»**.

ثم يأخذ الحديث طريقه إلى بيان القاعدة التي تضمن هذا الوعي وتُعدُّ المسلم ليكون قادراً على وضع الأخوة موضعها في إطار القوة المطلوبة للفرد والمجتمع. فيقول عليه الصلاة والسلام في تتمة الحديث: **«ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل اللّه له طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من**

بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكَرهم اللهُ فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه» أخرجه الإمام مسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

إنها القاعدة النورانية التي تقوم على العلم وحسن الصلة بالقرآن وأن العبرة بالعمل لا بالنسب... وذلكم ضمان تنمية الأخوة المرتبطة بعقيدة التوحيد بوعي وإخلاص وقوة. وتوظيف هذه الأخوة على ساحة التعاون والتكافل يدفع بعملية البناء والإنماء إلى الأمام بإيجابية والتزام لأخلاق المنهج الرباني، لأن حوافز التعاون والإحساس المشترك نابعةٌ من داخل النفس، وثيقة الارتباط بالإيمان والحمد لله رب العالمين.



الأخوة.. ونهج النبوة في التحويل

«٤»

لا يخفى على ذي بصيرة ما كان للنهج الذي سلكه الرسول عليه الصلاة والسلام في الاتجاه بأخوة العقيدة وجهتها العملية التي انعكست على الفرد والمجتمع، فكانت حافزاً إيمانياً من أهم الحوافز التي وفّرت لعملية البناء المشهودة كثيراً من الطاقات الفاعلة، ما كان يمكن أن تتوافر لولا هذه الأخوة النابعة من الإيمان.

من هنا ـ والله أعلم ـ كان الاقتران بين الأمر بالاعتصام بحبل الله وبين الأمر بتذكر نعمة الله في تأليف القلوب على الإيمان. ذلكم ما نجده في قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

والوجهة العملية التي يجري الإلماح إليها في نهج المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ وهو يخوض معارك البناء للمجتمع الأسوة والأمة ـ الماجدة الخيّرة على المستوى الإنساني في العالم، وإن كان البدء من مجتمع المدينة. هذه الوجهة رأينا صورة منها في الحديث الدي أخرجه مسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**من نفّس عن مؤمن كُربة من كُرب الدنيا نفّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة**» إلى أن بيّن ما يلزم المجتمع المسلم من العلم وحسن الصلة بالقرآن تلاوة وتدبُّراً، وضرورةِ الوعي العميق لحقيقة أن العبرة للعمل الصالح المثمر لا للنسب؛ فمن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه.

وما من ريب في أن هذا الهدي النبوي من بيان التقرير والتأكيد لما وقفنا عليه بنص المعالم القرآنية، من الترابط القلبي والود العميق بين المؤمنين، لما أنهم قد التقت منهم القوب على الإيمان ومحبة الله ورسوله والذي رأينا من صورة إشفاق الصحابة رضي الله عنهم على إخوانهم الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، وإشفاقهم على الذين قتلوا في سبيل الله وكانوا يشربون الخمر قبل أن تحرَّم تحريماً جازماً بإطلاق... وهاتان الصورتان ـ وأمثالهما كثير عبر التاريخ الإسلامي والحمد لله ـ تحكيان استجابة واضحة لما أراده الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه ـ وللمسلمين من ورائهم ـ وهو يرتاد للإنسانية دروب بنائها الحضاري الأمثل، ويطرقُ بكلتا يديه أبواب الحياة الأفضل على هدي الرسالة الخاتمة التي أوحى الله بها إليه.

وعلى هذا السنن الكريم: شهد تاريخ التحوُّل في حياة هذه الأمة أن رسول الله ﷺ ـ وهو يتجه بالأخوة وجهتها العملية التي تنعكس على كل ميادين البناء والنماء.. ينتقل بها إلى ساحات إعداد القوة والجهاد؛ فقد روى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خَلَف غازياً في أهله بخير فقد غزا»** انظر إلى قوله: **«ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»** كم تحقق هذه المكرمة من وحدة العمل بجانب سابقتها؛ تلكم هي الأخوة التي أراد مُعَلِّمُ الناس الخيرَ أن ينعم المسلمون بآثارها الطيبة ورافدها العظيم على طريق الجهاد لنشر دعوة الله!

وفي خطوة أخرى تشعر بمزيدٍ من الحرص على وضع الأخوة موضعها المناسب على هذه الساحة: يطالعنا ما صحَّ عن رسول الله ﷺ: **«أنه بعث إلى بني لحيان فقال: لينبعث من كل رجلين أحدُهما والأجر بينهما»** رواه مسلم. وفي رواية له: **«ليخرج من كل رجلين رجلٌ»** ثم قال لقاعد: **«أيكم خَلَف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج»**.

وننتقل من الترغيب إلى الترهيب، حيث الحرصُ الشديد على وحدة الصف الذي نسيجه الإيمان.. الإيمان الذي شاء الله أن تأتلف عليه القلوب، ويكون من وراء ذلك نشر الدعوة، ومتارعة أعداء الحق والإنسان. وحيث الدعوةُ إلى اليقظة الدائمة وعدم الركون إلى الدعة والتقاعس عن الجهاد.. نقرأ في ذلك هذا التحذير الشديد من النبي ﷺ، والكشفَ عن مغبة القعود عن الجهاد بالنفس والمال مع القدرة. ذلكم قوله صلوت الله وسلامه عليه: «**من لم يغزُ، أو يجهز غازياً، أو يخلف غازياً في أهله بخير، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة**» أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من رواية أبي أمامة رضي الله عنه.

ألا إن رسول الله ﷺ لم يدع ـ في ظل الهداية القرآنية ـ أن يوسع لأخوَّة الدين الحق في ميادين العمل النافع والبناء الذي أراده الإسلام، حتى أعطاها الحظ الوافر من ذلك على صعيد إعداد القوة والجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله.

والحق أن هدي الكتاب العزيز في هذا وبيان النبي عليه الصلاة والسلام أمانة في أعناق القادرين أن يتجهوا ـ كلٌّ حسب الثغر الذي أقامه الله عليه ـ بالإنسان وجهة الغرس الطيب لعقيدة التوحيد، وسلوك السبيل المثلى لزيادة الإيمان بالطاعةِ والإسهام بأعمال الخير والبر. وأن يفسحوا لبناء الأخوة على تلك العقيدة، كما جاء تقريرها في الكتاب والسنة وسير السلف الصالح من هذه الأمة، ويعملوا على توظيف ذلك في خدمة الفرد والجماعة، لأن قيمة هذا الحافز على ساحات التحويل إلى ما هو أقوم وأفضل: حافز لا ينكر قيمته إلا مكابر أو داع إلى الجاهلية تتنكر لوحدة الأمة على أساس من الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وحدة المؤمنين.. على طريق البناء

«٥»

الرحلة القصيرة الميمونة مع قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ وقوله تباركت أسماؤه في سورة المائدة: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ وقفتنا على الأثر الكبير الذي صنعته أخوة العقيدة في نفوس أولئك الصفوة الذين تربوا على منهج «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وما كان لذلك من انعكاس على حياتهم اليومية، حيث اصطبغ التعامل بالإحساس الأخوي، وتبادل المشاعر الصادقة حتى إن الأخ ليخشى على أخيه أن يفوته شيء من الثواب أو يناله شيء من العقاب. وكان طبيعياً أن يشدنا ذلك إلى النهج الذي سلكه رسول الله ﷺ من الاتجاه بأخوة العقيدة وجهة تجمع إلى الأحاسيس الفردية الصادقة: أن يمتد رواء تلك الأخوة إلى الميادين العملية، وآخر ما رأينا من ذلك وضع التآخي على الإيمان في خدمة الجهاد، وما يجب من الإعداد والتأهب وذلكم قوله ﷺ - كما ثبت في الحديث المتفق عليه: **«من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»** وقوله صلوات الله وسلامه عليه: **«من لم يغزُ ولم يجهز غازياً، أو يخلف غازياً في أهله بخير، أصابه الله بقارعة وفي رواية: قبل يوم القيامة»** رواه أبو داود: إنها وحدة المعركة للأمة الواحدة، والمتاتلون وقد توحّدت قلوبهم على كلمة الله فكانوا بنعمته إخواناً. يظلّل خطاهم على أرضها ذلك المنطلق المضيء؛ فهذا يغزو، وذاك يجهز أخاه الغازي، والثالث يخلف أخاه الغازي في أهله بخير. هكذا تكتب الأخوة كلماتها على صفحة التاريخ وتحفر أخاديد القوة العادلة فيه. والأمر الذي لا ينقضي منه العجب ويعتبر واحداً من الأدلة

على أن القرآن كلام الله: أن ما تخلّفه الأخوة على الصعيد العام من وعي الجماعة وأخذها حذرها، وأن ما يتصف به المؤمنون من كونهم أشداءَ على الكفار رحماء بينهم، هذا الأمر هو أن هذه الصفة كانت واحدة مما ورد في التوراة والإنجيل قبل تحريف الكلم عن مواضعه من صفات أصحاب النبي ﷺ: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وانظر أيَّ طامَّة تكون قد لفّت بسوادها أبناء الأمة عندما تنقلب الآية، فتوضع الرحمة في غير موضعها، والشدة في غير موضعها، ويبوء المتنكبون لهداية القرآن بالخزي والخسران في الدنيا والآخرة، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] وهل هنالك من عاقل يماري في أن من أفتك الأسلحة التي يستخدمها العدو في مواجهة الأمة ولا يُكلفه ذلك شيئاً: ما يسبّبُهُ من جفوة منهج الله فيكون أبناؤها ـ أو بعضهم ـ رحماءَ على الكفار أشداءَ بينهم صنيعَ مرضى القلوب الذين يوالون أعداء الله خوفاً على دنياهم، أولئك الذين نزل فيهم قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥٢].

ألا إن اصطحاب هداية القرآن في معالمه الخيرة صحبة تدبُّرٍ يترجم الاقتناع إلى عمل جديٍّ نافع تسيِّره العزيمة الصادقة: كفيل ـ بعون الله ـ بأن يُزيحَ الواقع المترهل المتآكل ويستبدلَ بِهِ واقعاً سليماً معافى، لأن المجتمع بأبنائه. وسلامةُ بنيانه في شتى المجالات رهن سلامة بنيانهم. وهنا يأتي دور الأخوة الإيمانية بوصفها عاملاً من أهم العوامل ـ التي أثبتت وجودها في ـ توجيه حركة البناء وجهتها الصحيحة في ظل قيم ثابتة أرسى دعائمها منهج الحياة في «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

في ضوء ذلك كله ندرك جانباً من حكمة الوعيد الذي يحمله قول الله تبارك وتعالى في الآية الرابعة والخمسين من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

فإذا حصلت ردة عن الحق إلى الباطل، فسوف يأتي الله بقوم لهم سمات الانتماء الحقيقي إلى أمة الإسلام: يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، وهؤلاء هم المؤهلون للجهاد في سبيل الله. يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم؛ لأن همَّهم مرضاته ومن حُرِم ذلك فقد سَفِهَ نفسه وكان هو المحروم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وصدق ربنا الكريم المتعال إذ يقول في آخر سورة محمد: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].



البناء.. وقراءة التاريخ والأثر العظيم لأخوة العقيدة

«٦»

ما نحن بأمس الحاجة إليه اليوم ـ والنفوس تهفو إلى فجر جديد يطلع في دنيا الأمة ـ: أن نقرأ وقائع تاريخنا لا على طريقة السرد القصصي، ولكن وفق منهج يربط دائماً بين المبادىء التي حكمت مسيرة الأمة، وبين ما كان من صواب أو خطأ. ثم ما ترتب على ذلك من تقدم أو تقهقر؛ فالواقعة في أي عصر من العصور تأخذ قيمتها من منظور التوافق أو التخالف مع تلك المبادىء، والركيزة الأولى في ذلك: تدبر آيات القرآن والحرص على تبين ارتباط الوقائع بأسباب النزول، وما يكون من دلالة الترغيب أو الترهيب والوعد أو الوعيد، والثناء أو المؤاخذة.

وبهذا تكون سيرة الرعيل الأول الذين كان سلوكهم في حركتهم اليومية على صعيد الفرد والمجتمع، انعكاساً واضح الملامح لصدق إيمانهم وأخذهم هداية الكتاب بقوةٍ طاعةً لله وللرسول.. الأمر الذي مكّن لهم في الأرض فعمروها كما أراد الله، واستخدموا ما سخر الله لهم من كونه العريض استخداماً صحيحاً على طريق الحضارة المثلى.. أجل: تكون سيرة هذا الرعيل باعثاً على استئناف الحياة الإسلامية الصحيحة، وحافزاً على ارتياد طرائق البناء من أطرافها فيما تتطلّب من علم وعمل وبذل، دونما تقاعس أو سآمة، امتداداً للنهج الذي سلكوه فقدّمهم تاريخ الإسلام للدنيا ترجماناً عملياً لقوله تبارك وتعالى في سورة الحج: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١] .

والحق أن هذا يقودنا إلى التبصُّر في حجم الأثر الذي أنشأه تطويع أنفسهم ورغباتهم، بل ونزعاتهم لما ندبهم الله ورسوله إليه من حمل أمانة البناء السليم وفق المنهج الرباني في خاصة أنفسهم ومن ولاهم الله أمرهم، وفي المجتمع الذي شرفوا بإنشائه على أنقاض ما كان من جاهلية وتصدُّع، كما يضع أيدينا على مقدار ما فعله توعُّدهم إن هم خالفوا عن أمر الله وتنكبوا طريق الحق.

وهذا يشدنا إلى استذكار ما هدانا إليه المعلم القرآني في سورة المائدة التي حملت واحدةٌ من آيها لوناً شديد التأثير من ألوان الوعيد حذّر الله به وتوعّد من يرتدون عن الحق إلى الباطل، بأن يأتي بقوم لهم سمات المؤمنين الصادقين!! يحبهم الله ويحبونه. أذلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

والآية الكريمة هي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

والواقع أنه ما بدٌّ لنا ــ ونحن نومىء إلى ارتباط التاريخ بأخلاق بُناته والسمات التي تميزهم ــ من أن نشير إلى أن توافر السمة الأولى: «يحبهم ويحبونه» مدعاة ــ والله أعلم ــ لوجود هذا اللون من الصفات، فالذين يحبون الله بصدق: يحبهم الله، ومن ثمرات ذلك أن يكونوا أذلةً على إخوانهم المؤمنين الذين تجمعهم كلمةُ التوحيد.. أعزةً على الكافرين أعداء الحق الجاحدين.

ومن أجدرُ من هؤلاء بمكرمة الجهاد في سبيل الله طلباً لمرضاته دون خوف من افتراء المفترين ولوم اللائمين!! إذ ما من ريب في أن الجهاد في سبيل الله مرتبط أيما ارتباط بأخوة العقيدة التي تجعل من وحدة المنطلق والغاية، ومن الحسّ الجماعي الذي ينمو بزيادة الإيمان.. طاقةً فريدة تتجاوز كل المعوقات التي تلقيها الجاهلية على طريق المجاهدين، وعنصراً مهماً له مكانته في نصر المؤمنين على أعدائهم بإذن الله.

من هذه الزاوية المضيئة ننظر إلى واقعة عملية من مصعب بن عمير رضي الله عنه حدثت في أعقاب معركة بدر الكبرى، وما أكثر العبر والدروس التي خلفتها معركة الفرقان!!

فقد أُسر يوم بدر أبو عزيز أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه (شقيقه). وكان مصعب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ صاحب اللواء يومئذ، وأبو عزيز شقيقه صاحب لواء المشركين.. وبعد أن انتهت المعركة مر مصعب بأخيه ورجلٌ من الأنصار يشدُّ بيديه وهو أسير، فأوصاه بأن يشد الوثاق وقال: إن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصايتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك «إنه أخي دونك» قالها الشاب المجاهد المؤمن مصعب لشقيقه في النسب حامل لواء المشركين يومئذ.. قالها والدمُ يعانق تحت راية التوحيد الدمَ، معلناً استعلاء العقيدة في نفسه على كل ما دونها.. وهذه الواقعة العملية ذات نسب أصيل إلى قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤] وهي في الوقت نفسه على خط الضياء الذي لمسناه في سورتي البقرة والمائدة من قبل.. مرة أخرى: لكي تكون قيَمنا طاقة فاعلة في دنيا الواقع، تسهم في تجاوزه إلى الأفضل والأقوم. ولكي تكون دعامة لمسيرة البناء: لا بد من قراءة التاريخ وفق منهج يربط الوقائع بالمبادئ قرباً أو بعداً، ويحسن استخلاص النتائج من المقدمات والله يهدي لنوره من يشاء وهو ـ جل شأنه ـ بكل شيء عليم.



الحسُّ الأخوي.. وبناء وحدة الأمة في النهج النبوي

«٧»

في ظل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠] وقوله جل وعلا: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[الأنفال: ٦٣] كان طبيعياً ورسول الله ﷺ يخطو بجند الله الذين تربوا في مدرسة النبوة خطوات التطبيق العملي لرسالة الإسلام: أن يوسع لأخوَّتهم التي قامت على عقيدة التوحيد في منهج البناء على الصورة التي أرادها عليه الصلاة والسلام أن تكون.. وكان من الأبجديات الأولى ـ والبناء ممارسات يومية لا تقتصر على العبادة في المسجد، وهي أمر جوهري أساسي ـ بل تتعداها إلى العبادة في كل شأن من شؤون الحياة، أخذاً وعطاءً في تعامل الإنسان مع الله وتعامله مع الآخرين، وضربه في الأرض ليعمرها ويفيد من تسخير الكون ووضع الطاقات المادية والمعنوية بين يديه... كان من الأبجديات الأولى على طريق البناء الحضاري المتكامل: أن يتجه رسول الله بأخوة العقيدة وجهة عملية تجعل من هذا الرباط الوثيق واحداً من أهم المنطلقات الخيِّرة التي تصحب الأمة في رحلتها لتحقيق الغايات الكبار وجعل الوجود الذاتي لها حقيقةً واقعةً تباعد بينها وبين التبعية والانحراف عن رسالتها في العالمين، مصداقاً لقوله تعالى:﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعندما اتجه رسول الله ﷺ هذه الوجهة كان يعمد إلى تنمية الحسِّ الأخوي في النفوس، وجعله يتعاظم من خلال الوقائع، كيما يكون نصبَ الأعين دائماً تلك السماتُ المميزة التي ذكرها القرآن للمؤمنين المتآخين على عقيدة التوحيد

والعاملين على وضع منهجها في «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» موضع التطبيق في شتى مجالات الحياة على صعيد الثقافة والاجتماع والاقتصاد والتشريع وكل ما هو من ذلك بسبب.. حالاتُ السلم والحرب في ذلك سواء. لأن شريعة الله لا تنحسر عن ميدان من الميادين.

ولقد رأينا فيما سبق من القول نماذج من توجيهاته عليه الصلاة والسلام تبدو تقريراً وتأكيداً ـ على الساحة العملية ـ لما جاء في قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩] كما تبدو على صعيد الكيان العام للأمة في بناء الذات، وهي تُباعد بينها وبين أن تقع أو يقع بعض أبنائها فريسة الردة عن الحق الذي نزل به الكتاب، والتخلي عن صفات المؤمنين الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً، ذلكم ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد أمدتنا مصادر السيرة بالكثير الطيب من النماذج الناطقة بهذا. والتي تعكس توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام وحسنَ استجابة الصحابة لتلك التوجيهات حتى بات العمل بها جزءاً أصيلاً من السلوك يظهر على الساحة دونما تكلف أو معاناة. رأينا منها ذلك الأنموذج في صنيع مصعب بن عمير رضي الله عنه حين قال لأخيه الشقيق حامل لواء المشركين يوم بدر ـ وقد أخذ عليه وصية الرجل الأنصاري بشد وثاقه ـ: قال له بلغة الواثق المطمئن: «لست أخي إنه أخي دونك» وهذه هي الحقيقة في نظره.

وعلى هذا السنن سار رسول الله ﷺ لا في الترغيب بكل ما يضع الأخوة موضعها العملي فحسب، بل في الترهيب والنهي عن كل ما يعكّر صفو هذه الأخوة ويعرّض المجتمع والأمة إلى التخلخل والضعف، من ذلك ما روى أبو هريرة

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه، التقوى ههنا، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**». رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وفي خطوة أخرى تتسع لتشمل فيما تشمل بعضاً من صور التعامل في البيع والشراء يقول عليه الصلاة والسلام: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، ولا يخذله، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمُه وماله وعرضه**» رواه مسلم. والنجش أن يزيد في ثمن السلعة ينادي بها في السوق ونحوه ولا رغبة له في شرائها، بل يقصد أن يغرّ غيره.

هل لي بعد هذا أن أقول: إن الخطوات السليمة لاستئناف وحدة الأمة وتضامنها في مواجهة التحديات: تبدأ من هنا من معالم القرآن وهدي النبوة والله المسؤول أن يبصِّر هذه الأمة طريقها الراشدة وهو المحمود على كل حال.



مسؤولية التآخي.. على طريق الإصلاح في ساحة البناء

«٨»

حين نتحدث عن بيان النبي ﷺ بأقواله وأفعاله وتقريراته للكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: يكون الحديث ـ أبداً ـ عن الترجمة العملية للمبادىء التي تنزلت بها الآيات وحياً على رسول الله عليه الصلاة والسلام، والأخذ بيد الفرد والجماعة إلى حيث السعادة في الدنيا ويوم الدين؛ لأن الذي كان من صنيعه عليه الصلاة والسلام ـ وهو يبين للناس ما نُزل إليهم ـ صياغةُ الإنسان الذي تنطق حركته وممارسته لشؤون الحياة، وسلامة الغايات والوسائل عنده: بتلك المبادىء التي تمثلت فيها هداية القرآن الكريم، كما كان من صنيعه صياغة المجتمع القدوة الذي يقدم الإسلام للناس، على أنه وجود حيّ متحرك تُبْصره في كل ميدان من ميادين الحياة.. وصياغة الأمة كائنة في هذه السلسلة المتكاملة الحلقات.

أقول هذا بعد وقفات قصيرة كانت لنا في كلمات قريبات سلفت مع أخوة العقيدة وما لها من أبعاد، حيث اسلمتنا هذه الوقفات إلى بعض النماذج من هدي النبي ﷺ في بيان عدد من الآيات التي تشرق بالتنبيه على حقيقة الأخوة بين المؤمنين والقاعدة التي تقوم عليها، وبعض من صفات أولئك الذين أنعم الله عليهم بتلك الأخوة.. هذا مع الوعيد الشديد لمن يخالف عن أمر الله، ويخرج على الحق الذي بنيت الأخوة عليه، الأمر الذي يشعر أهل البصيرة أن تلك الأخوة أمانة لا بد من أداء حقها، ومسؤولية أمام الله عز وجل ثم التاريخ: لا بد من العمل على الوفاء بمقتضياتها، وإلا ساءت الحال في العاجلة، وكانت العاقبة التي لا يُغبَط عليها أحدٌ في الآخرة يوم يقف الناس لرب العالمين.

والواقع أن بيان النبي ﷺ لمعالم الكتاب العزيز التي أكدت قاعدة الأخوة بين المؤمنين، وكشفت أن رباط هذه الأخوة وموثقها هو الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».. هذا البيان وضع هذه الأخوة بأبعادها وما يمكن أن تنتجه من آثار في حياة الفرد وكيان الجماعة والأمة: موضعها من الحياة العملية التي كان يمارسها المسلمون وهم يؤدون ـ في ظل الرسالة الخاتمة ـ أمانة البناء والإنماء، كما اتجه إلى تنميتها من خلال الوقائع، والتمكين لفاعليتها وتأثيرها أن يعملا عملهما في إنشاء الواقع الجديد.

فقد ربى المؤمنين والمؤمنات عليها، تصوراً واعتقاداً، وجعلها تحكم العلاقاتِ الاجتماعيةَ والاقتصاديةَ، وتحكم التعاونَ المثمر على صعيد الحركة في حالات السلم والحرب.. كما جعل منها قيمة كبرى توحِّد الوجهة عند الأمة الواحدة لمواجهة التحديات، ولتحقيق الهدف الواحد في بناء الإنسان وحضارة الإنسان في ظل العبودية الصادقة لله عز وجل، بما يضمن خير الإنسانية وسعادة الدنيا والآخرة.. ولم يكن ذلك أفكاراً تجريدية تستعصي على الواقع، ولكنها ـ ورسالة الإسلام من وحي السماء ـ أنشأت الواقع المتسق مع فطرة الإنسان وما جبل عليه، وقدّمت الحضارة التي لا تشكو من عرج أو تناقض.

فقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يحمل في طياته أمر المؤمنين أن يظلوا على المورد الصافي في الأخوة النابعة من عقيدة التوحيد، وأن يحافظوا عليها ويؤدوا حقها على ساحة التعامل والتضامن والتعاون، وكان الأمر لذلك من طريق الإخبار مقترناً بأداة الحصر (إنما) إذ حصر الأخوة الحقيقية بأخوة الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وتأكيد ذلك بما في صفات من يأتي بهم الله بديلاً لأولئك الذين يتنكبون طريق الحق، ويعتنقون عقائد زائغة عن حقيقة الإيمان وأخوة الإيمان. ومن تلك الصفات أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله حق الجهاد، لأنهم يحبون الله ويحبهم الله.. ثم بما جاء من صفات الصحابة في التوراة والإنجيل ومن تلك الصفات أنهم أشداء على

الكفار رحماء بينهم، والصحابة هم الجيل الفريد الذي كان الجسر المبارك لنقل دين الإسلام إلى الأمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، علماً وعملاً وسلوكاً في السلم والحرب وفق مقتضى الإيمان الخالص... كل أولئك يبدو ملحوظاً بكلياته وجزئياته في منهج الرسول ﷺ الذي كان يأخذ به أولئك البررة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، فاجتمعوا على عقيدة التوحيد، وكانوا بقيادته عليه الصلاة والسلام طاقة فاعلة في البناء الحضاري الذي طال انتظار الإنسانية له قروناً بعد قرون.

وليس من مكرور القول تقرير أن هذا كله يضاعف من مسؤولية الأمة، في استئناف تلك الطريق المسلوكة من قبل، وهي اليوم أحوج ما تكون إليها، خصوصاً بعد أن تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وصلاة الله وسلامه على إمام الهداة وسيد المجاهدين وعلى آله وصحابته الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه إلى يوم الدين.



بناء الأخوة.. ومؤشرات في المنهج

«٩»

الناظر في توجيهات النبي ﷺ في شأن الأخوة القائمة على الإيمان بالكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كما جاء حصر ذلك في قوله تعالى: وكما تحدّث القرآن عن أن المؤمنين أشداء على الكفار رحماء بينهم: يجد أن الاهتمام بتقوية هذه الأخوة، وإعطائها الطابع العملي في حسن التعامل المتّسم بالود والتعاون وكريم الخلق: قد بلغ مداه حين كشف صلوات الله وسلامه عليه عما يكون من أجرٍ لمن يصفح عن مظلمة أصابته من أخيه يوم يقوم الناس لرب العالمين، وكلٌّ يقول من شدة الهول: نفسي نفسي.. أجل حين كشف عما يكون لهذا المؤمن من فضل الله وعطائه الكبير على ذلك الصفح الجميل.. وفي ذلك ما فيه من إثارة كوامن الإيمان، وإيقاظ الإحساس بمنزلة التآخي على العقيدة في ميزان الله عز وجل.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **«بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه. فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما: يا ربِّ خذ لي مظلِمتي من أخي، فقال الله تبارك وتعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء!! قال: يا ربِّ فليحمل من أوزاري، قال: وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبكاء، ثم قال: إن ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يُحمَلَ عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه، فقال: يا رب أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكلّلَةً باللؤلؤ!! لأي نبي هذا؟ أو لأي صدّيق هذا؟ أو لأي شهيدٍ هذا؟ قال: هذا لمن**

أعطى الثمن، قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك. قال: يا ربِّ فإني قد عفوت عنه. قال الله: فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المسلمين. رواه أبو يعلى والحاكم عن أنس رضي الله عنه وقال: صحيح الإسناد. لكن آخرين لهم في أحد رواته مقال.

وإذا استقام للمسلمين أن يكونوا على هذا المستوى من إعطاء الأخوة أثرها العملي في حياتهم ابتغاء مرضاة الله عز وجل، يتعاظم على صعيد الجماعة ما قصد إليه الرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من الاتجاه بتلك الأخوة وجهتها العملية في عقد الخناصر على أن يكون الإخوة متعاونين على البر والتقوى، يقدمون بممارساتهم التي تتسم بالإلفة والفهم المشترك لطبيعة الرسالة والحسّ المشترك بالواجب.. أجل يقدّمون بتلك الممارسات مبادىء الإسلام وقيمه وجوداً ناطقاً حياً في واقع الناس، وعندها ترى برهان الأخوة في كل صورة من صور الإدارة الحية لحركة الحياة؛ فالمؤمنون إخوة، يحبهم الله ويحبونه، أشداء على الكفار رحماء بينهم، وإنهم ليجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم!!

وهكذا يمكن القول بأن النبي ﷺ ـ وهو يطرح الهداية القرآنية على صعيد التطبيق ـ جعل من الأخوة الإيمانية في ظل معالم الكتاب العزيز طاقة فاعلة بانية، وحافزاً يبلغ في فاعليته وتأثيره أنه يتجاوز السطح، إلى القاع، والانفعال العاطفي المحدود، إلى البرهان العملي، بذلاً وعطاءً وإيثاراً تحت راية العمل على أن تكون شريعة الله هي المحكّمة ـ لما أن الأمر مرتبط بالعقيدة التي بدونها لا يكون المسلم مسلماً.. كما جعل منها صلوات الله وسلامه عليه مسؤولية غير محدودة بزمان، لها حقها على صعيد التعامل والإنجاز لأنها رابطة أسمى من أية رابطة أخرى، وعامل انتماء أغلى وأعلى من أي عامل آخر؛ إذ لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإذا كان الأمر كذلك: فمن حق البرهان العملي والمسؤولية أن يحسب حسابهما في ضبط التعامل بين الإخوة، كيما يتحقق الاندفاع الذاتي إلى حشد الطاقات من خلالها.. وذلك أجدى في حقول التعاون لإنجاز المهمات الصعبة على مستوى التحويل وصيانة المسيرة من عبث العابثين وضلال المعتدين.. الأمر الذي يكفل بعون اللّه تضامن الأمة وتوحيد وجهتها ومنطلقاتها في مواجهة التحديات التي لا تقتصر على ميدان دون ميدان، فهي قائمة ـ وبشراسة أحياناً ـ في ميادين العلم والسياسة والفكر والاقتصاد.. وكل ذلك لا ينفع معه إلا وحدة الكلمة على ما وجّه إليه الهدي الرباني، والتعاون المجدي في ضوء ما تمليه الكلمة الطيبة: «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه».

وما صنعه ذلك في بدر وأحد والفتح ومؤتة واليرموك وغيرها عبر أيامنا الأولى، ثم في مواجهة التتار والمغول والصليبين، ومن على شاكلتهم اليوم هنا وهناك.. هو من أقوى الأدلة على الطاقة الكامنة في التآخي على كلمة اللّه، وعلى ما يمكن أن يصنعه ذلك من تغيير واقع الأمة الحالي وهي في محنتها مع أعداء اللّه وأعداء الإنسان.

ومن خلال العقيدة التي تربط حاضر الأمة بماضيها على ساحة الفكر والتصوّر، وما يولد ذلك من منطلقات ترمي إلى تحقيق الغايات الكبار.. من خلال ذلك: نرى أن أخوة العقيدة يوم عملت عملها في صناعة التاريخ والانتصار على التحديات ـ بمختلف ألوانها ـ كانت الدعوى ومعها برهانها، وكانت الكلمة ومعها ترجمانها العملي إلى حياة في دنيا البناء، وتحقيق الوجود الذاتي بالإسلام.

وإذن: فالأخوة على صعيد الحياة المتجددة المطالب، الزاخرة بعناصر الامتحان والابتلاء يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة. حيث الليالي مثقلات يلدن من المفاجآت كل جديد.. هذه الأخوة مرفوض أن تكون دعوى بلا دليل لأنها حين تكون كذلك: فعلى القوة والتماسك والسلام. وبرهان صدقها ما ينتج عنها من آثار يتجاوز الإخوةُ معها المعوقاتِ من داخل النفوس فيما يكون من

الأهواء وجامح الرغبات المضادّة. كما يتجاوزون المعوقات من خارج تلك النفوس، فيما هو بدهيٌّ من صنيع العدو بوصفه عدواً نهى الله عن موالاته أو الركون إليه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣] هنالك يُعِدُّون العدّة ولا يبخلون بالعطاء، وتلذُّ أعينهم وتفرح قلوبهم بما يتحقق لهم من نصر الله وتأييده وفق سننه التي لا تتبدّل.

وفي نظرة مستقبلية لا تغفل عن الواقع المضادّ أحياناً ولا يعوزها الإنصاف: يمكن القول بأنه ليس من المغالاة في التفاؤل أن نستذكر ما يكون لأخوة العقيدة حين يتاح لها أن تأخذ أبعادها الطبيعية: من انعكاسات على مسيرة الأمة، والإفادة من طاقاتها البشرية والاقتصادية وموقعها الجغرافي، بجانب ما أعطاها الله من مقومات الحضارة المثلى في ظل رسالة الإسلام الخيّرة المعطاء..

ويبدو أن الشجاعة الأدبية والعزيمة الصادقة بعد القناعة بسلامة الطريق المنوط بها تحقيق ما ذكر: أمور بالغة الأهمية لأهل الإيمان على هذه الطريق.. والله يتولى عباده الصالحين.



الأخوة.. والسلوك المناسب

«١٠»

لايعوز المتأملَ في هدي النبي ﷺ حول أخوة الإيمان بياناً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وغيره من النصوص المباركة في الكتاب العزيز.. حيث البيان لحقيقة تلك الأخوة وأهمية مرتكزها، وتوجيهها الوجهة العملية التي تظهر آثارها الطيبة في بنية الجماعة وتعاونها على البر والتقوى.. لا يعوز المتأملَ في ذلك أن يقع على ما فيه صيانة تلك الأخوة من سلوك يضمن تنميتها ويبرهن على صدق الدعاوى في شأنها.. الأمر الذي يوفر لها ما يراد من القدرة على الفاعلية والتأثير واستدامة الارتباط القلبي بين الأخ وأخيه، وأن يكون ذلك حافزاً إلى عمل الخير يتجاوز السطح إلى القاع، ويرتفع بالمسلم ـ وهو يواجه شؤون الحياة بما فيها ـ إلى القيام بحقها الذي هو من مقتضيات العقيدة نفسها كما نرى في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

يطالعنا في ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما روى البخاري ومسلم عن أبي حمزة أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه»**.

فبهذا البيان النبوي المشرق، يعلمنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن المسلم لا يؤمن الإيمان الكامل، حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه. قال الإمام ابن الصلاح: (وهذا قد يعد من الصعب الممتنع، وليس كذلك؛ إذ القيام بذلك يحصل بأن يحبَّ له حصول مثل ذلك من جهة لا يزاحمه فيها أحد بحيث لا ينقص على أخيه شيئاً من النعمة عليه، وذلك سهل على القلب السليم، وإنما يعسر على القلب الدغل).

ولعل مما يؤيد قول ابن الصلاح رحمه الله ما جاء عند الترمذي وابن ماجه «**أحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً**»، وما جاء عند الإمام أحمد في المسند «**أفضل الإيمان أن تحب للناس ما تحب لنفسك وأن تكره لهم ما تكره لنفسك**» وما جاء عنه أيضاً «**أتحب الجنة؟ قلت: نعم قال: فأحب لأخيك ما تحب لنفسك**» ونقرأ في صحيح مسلم «**يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني لأحب لك ما أحب لنفسي لا تتأمرنَّ على اثنين، ولا تَلِيَنَّ مال يتيم**».

أما إذا انتفت تلك المحبة ـ كما يقول شرّاح الحديث ـ: لنحو غش أو حسد. فلم يُحِبَّ له مثل ما يحب لنفسه، فهو غير مؤمنِ الإيمان الكامل، ومن ثمَّ قيل: أفحش الأحوال أن يُرى الأخ ضاناً على أخيه بأعمال الخير إن لم يوفق هو لها، لأن من مقتضيات الإيمان الذي ألف الله القلوب عليه أن لا يضنّ الأخ على أخيه بما هو خير، وأن يتعاونا بوصفهما أخوين في الله على تحقيق كل ما هو برٌّ وتقوى أو منهما بسبيل. والمراد بالمثلية هنا: مطلق المشاركة المستلزمة لكف الأذى والمكروه عن إخوانه وتحمل أيضاً على أنه كما يحبُّ أن ينتصف من حقه ومظلمته، ينبغي له إذا كانت لأخيه عنده مظلمة أو حق أن يبادر إلى إنصافه من نفسه، بل إيثاره، وإيثار الحق وإن كان عليه في ذلك مشقة، وقد ذكر الله من صفات المؤمنين أنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وفي الحديث: «**انظر ما تحب أن يؤتيه الناس إليك فأته إليهم**» ومن ثم قيل للأحنف بن قيس: (ممن تعلمت الحلم؟ قال: من نفسي. قيل له: وكيف ذلك: قال: كنت إذا كرهت شيئاً من غيري لم أفعل بأحد مثله).

وهكذا يكون من عطاء الحديث بياناً لما تدل عليه معالم الكتاب العزيز في شأن صيانة الأخوة من العبث، والبعد بها عن أن تتجاوزها الأثرة، ويضعفُ منها حبُّ الذات...: ائتلافَ القلوب وانتظامَ الأحوال في المجتمع المسلم، وذلكم هو قاعدة الإسلام الكبرى التي أوصى الله تعالى بها بقوله جل شأنه: ﴿ **اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ وإيضاح ذلك ـ كما يقول العلماء ـ أن كل أحد من

المؤمنين إذا أحب لباقيهم أن يكونوا مثله في الخير، أحسن إليهم، وأمسك عنهم وبذلك يحبونه، فتسري المحبة بين الناس الذين هم قوام المجتمع الذي تحكمه في شتى الميادين ضوابط المنهج الرباني، ويسري الخير بينهم ويرتفع الشر، فتنتظم أمور معاشهم ومعادهم على كل صعيد، وتكون أحوالهم على غاية السداد ونهاية الاستقامة، وذلكم هو غاية المقصود من التكاليف الشرعية في شتى الجوانب للفرد والجماعة، والأعمال القلبية والبدنية.. ولا تسل عما يحصل ـ وراء ذلك ـ من القدرة على تحقيق المبتغى من المنهج الأقوم الذي فيه صلاح الأمة، وارتقاؤها إلى مستوى التمكين الذي تعمر معه الأرض ويستقيم به أمر الحياة، ويسعد معه الإنسان في العاجلة ويوم يقوم الحساب.

وليس من مكرور القول التذكير بما يؤيد ذلك ويزيده وضوحاً من قوله ﷺ في الحديث المشتهر لدى الجميع «**ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك ﷺ بين أصابعه**» فانظر إلى البنيان الذي يريده عليه الصلاة والسلام على صعيد المحبة والود والتعاون والتآزر والإيثار[1]».

والحق أن هذه الكلمات النورانية ـ ومثلها كثير في النصوص النبوية ـ هي من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ـ إذ إنها قليلة الألفاظ غزيرة المعاني. ها هي ذي تضع الهداية القرآنية في شأن أخوة العقيدة ـ وهي قضية جذرية على الصعيد الإيماني وعلى صعيد الأمة المسلمة بأسرها في كل عصر ـ تضعها موضعها من حيث المقدمات والنتائج، وربط المسببات بالأسباب، في ضوء الإيمان الصادق: على الساحة التطبيقية وترجمة القيم إلى واقع عملي في دنيا الفرد والمجتمع والأمة، الأمر الذي يولّد ما يولّد من القوة وسلامة البنيان.

فالواجب أن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وإذا تحققت للمؤمنين مدلولات الأخوة وأبعادها على صعيد التعامل والممارسة المشتركة لشؤون الحياة، مرتفعين فوق الأهواء والنزوات والرغبات الذاتية الخاصة... كانوا

كالبنيان يشد بعضه بعضاً في تحقيق وجودهم الإسلامي المرضيّ للّه ورسوله وفي قدرتهم على مواجهة ما يكون من تحديات وما تهب في وجه الأمة وحضارتها المثلى من أعاصير.

صلى اللّه وسلم وبارك على إمام البلغاء ومعلم الناس الخير، وأخذ بيد أمتنا إلى استئناف الطريق التي رسمتها معالم الفرقان وبيّنها صلوات اللّه وسلامه عليه أفضل بيان.



الأخوة.. والتعاون المثمر في البناء

«١١»

ما وقفتنا عليه بعض المعالم القرآنية في شأن ما يترتب على ائتلاف القلوب على التآخي الإيماني، من أهمية بالغة في تحقيق البناء الذاتي للأمة، ووضع الطاقات المنتجة بشريةً كانت أو غيرها موضعها المناسب، وما رأينا لذلك من أبعاد كشفت عنها سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام... كل أولئك هو السبيل المؤدية ـ بعون الله ـ إلى التعاون المثمر تخطيطاً وتنفيذاً في إطار مصلحة الجماعة والأمة.. لما أنه التعاون الذي يترك آثاره الحميدة في كل قضية تعود على الفرد والمجتمع بالخير والنفع، ويُسلم الأمة إلى حيث القدرة الذاتية في تصريف شؤونها وقضاياها المصيرية.

والتعاون الحقيقي المثمر: هو التعاون على البر والتقوى بأوسع مدلولاتهما. والقاعدة التي يقوم عليها هي تلك الأخوة الصادقة النابعة من العقيدة التي أوحي بها إلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وعمادها «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

ولقد أمر الله المؤمنين الذين التقت قلوبهم وعقولهم على هذه الكلمة الطيبة أن يتعاونوا على البر والتقوى، ونهاهم أن يتعاونوا على الإثم والعدوان، وأنذرهم شديد عقابه إن هم عدلوا عن هذه الطريق، فلم يتقوا ربهم، فيكونوا متعاونين متآزرين على ما فيه تحقيق ما يحصل معه الخير، والقضاء على ما ينذر بالشر والضَّير، ذلكم قول الله تبارك وتعالى في ختام الآية الثانية من سورة المائدة وهي سورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

والحق أن التعاون على فعل الخيرات، وهو البرُّ بمدلوله الشامل على صعيد الفرد والمجتمع والأمة، وعلى التقوى وهي هنا ترك المنكرات بمدلولها الشامل أيضاً على صعيد الفرد والمجتمع والأمة، وعدم التناصر على الباطل، وعدم التعاون على المآثم والمحارم، وكل ما فيه تجاوز لحدود الله عقيدة وشريعة وسلوكاً. مع مراقبة الله عز وجل وخوف سوء الحساب.. الحق أن ذلك كله من آثار سلامة البنيان الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً**» وهو في الوقت نفسه ضمانة قوية ـ بإذن الله ـ لاستمرار كيان الأمة سليماً معافىً من التصدُّع، سواء أكان ذلك من الداخل حين تبتلى الأمة بالانحراف والتفكك، أم كان من الخارج حيث مكر الأعداء وتداعيهم عليها بمختلف الأسلحة والتحديات.

والوعيد الذي ختمت به الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ يؤكد ضرورة أن توسع مناهج التخطيط والإعداد في كل المجالات، لأن يكون مدلول الآية في الموالاة والتناصر والتآزر ودفع السوء عن الأمة بعدم التعاون عليه، بل ومحاربته: حقيقةً ملموسة نافذة ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾.

ولقد بلغ من حرص النبي ﷺ على إعداد النفوس لهذا الأمر، والدفع بطاقات الأمة إلى ميادين التعاون والتناصح، ومحاربة الإثم والعدوان.. أن طرح على طريق الإنسانية مصطلحاً جديداً في شأن هذه القضية الكبرى بشقيها. ذلكم ما روى البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً. أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره: قال: تحجزه ـ أو تمنعه ـ من الظلم، فإن ذلك نصره**» وفي رواية لمسلم وأخرى للبخاري عن أنس رضي الله عنه أيضاً: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه**».

أرأيت إلى هذا المصطلح الجديد في ظل تلك الكلمات القرآنية المباركة في سورة المائدة كيف عفّى على ما عرفت الجاهلية من التناصر على الحق والباطل جميعاً بدافع القبلية وما هو منها بسبب، كما قال قائلهم:

وما إنا إلاّ مِنْ غَزِيَّةَ إن غَوَتْ
غويْتُ وإن ترشُدْ غزيةُ أرشُدِ

إن واقع الأمة بمظاهره التي تذيب القلب حسرة وكمداً، والتي لا تخفى على ذي بصيرة..إن هذا الواقع الأليم يصرخ في أعماق القادرين من أبنائها على جمع الشمل وتأليف القلوب على كلمة التوحيد منهج الهداية الفريد.. أن يؤدوا حق الله في ذلك موالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، وتعاوناً على البر والتقوى، وتضامناً وتآزراً في مواجهة التحديات، وعدم التعاون على الإثم والعدوان..

إنهم إن فعلوا ذلك مخلصين كان الله معهم وجاءهم النصر المبين مهما كانت الصوارف والمعوقات، فتلك سنة من سنن الله الحكيمة ولن تجد لسنة الله تبديلاً والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



الأخوة.. والصلة بين التعاون والبناء

«١٢»

أسلفنا فيما سبق من القول أن ما أمرت به آية سورة المائدة وما نهت عنه وتوعدت عليه في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] كل ذلك وثيق الصلة بما دل عليه قوله ﷺ كما روى البخاري وغيره: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، وشبَّك بين أصابعه»**.

وإنما كان ذلك لأن التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان... عامل من أهم العوامل في تماسك الأمة، وضمانٍ قدرتها على أداء رسالتها في البناء، وعلى الانتصار على أعدائها، مع التمكين في الأرض؛ لأن التآزر الذي يحصل من خلال الوقائع عند التعامل، يزيد مشاعر الأخوة نماءً، ويضمن ـ بإذن الله ـ استمرار البنيان معافىً من الهزات وعوامل التخلخل والضعف، وأقول: (من خلال الوقائع) لأن القضايا التي يطلب البرهان على صدقها من الواقع وساحات العمل، إنما تزداد رسوخاً في النفوس إذا برهنت الوقائع العملية على وجودها.. وبذلك تكون الممارسة من خلال الوقائع تربية عملية لا يُغني غَنَاءها الاقتصار على التوجيه القولي ـ على أهميته التي لا تنكر ـ والنظرة المتأملة الواعية في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] تعطي أن هذه الكلمات الهادية تضع المسلمين بوصفهم مرتبطين بأخوة العقيدة أمام مسؤولياتهم في هذا الجانب العملي من ممارسة شؤون الحياة وهم يقيمون البناء بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام. ومن هنا ـ والله أعلم ـ كان المؤمن للمؤمن

كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وما كان أعظمه عليه الصلاة والسلام معلماً ومربياً حين شبّك بين أصابعه توضيحاً للأمر المعنوي بالصورة المادية، بَعْدَ أن طرح هذه المقولة العظيمة!!

وقد تنبه المحققون من علمائنا رحمهم الله لأبعاد تلك المقولة التي طرحها ﷺ على ساحة ما يجب أن يقيم عليه المؤمنون من التعاون والتعاضد والتناصر فيكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ولما يضمن تماسك المجتمع والقدرة الذاتية للأمة في ظل عقيدة التوحيد.

ورأينا آثار ذلك في شرحهم لهذا الحديث. قال الإمام أبو العباس القرطبي صاحب «المفهم في شرح مختصر صحيح مسلم»: (هذا تمثيل يفيد الحضَّ على معاونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لا بد منه، فإن البناء لا يتم ولا تحصل فائدته، إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضاً ويقويه. وإن لم يكن ذلك، اختلَّت أجزاؤه وخرب بناؤه. وكذلك المؤمن لا يستقل بأمر دنياه ودينه إلا بمعاونة أخيه ومعاضدته ومناصرته فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكل مصالحه، وعن مقاومة مضاره، فحينئذ لا يتم له نظام دنياه ولا دينه، ويلحق بالهالكين).

ولعل من الخير ـ ونحن نستنير بهدي القرآن في وجوب التعاون على البر والتقوى وتحريم التعاون على الإثم والعدوان وبيان ذلك في حديث النبي ﷺ.. لعل من الخير أن نذكر: ما ثبت في الحديث الصحيح لدى مسلم وغيره من قوله ﷺ فيما روى أبو هريرة رضي الله عنه: **«والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»**.

وعلى هذا فالأمة حين تمتثل أمر الله بالتعاون على البر والتقوى بأوسع معانيهما: لا تسير في هذه الطريق مقطوعة عن عون الله ونصره وتأييده، بل الله معها يعينها ويسددها ويسلك بها سبيل النصر والتمكين. فالله في عون المؤمن مدة دوامه على عون أخيه المؤمن. هذا ما يدل عليه نص الحديث: **«والله في عون العبد ما كان ـ أو ما دام ـ العبد في عون أخيه»**.

وإذن فعدم التعاون على البر والتقوى مسلك يؤول بصاحبه إلى حرمان العون من اللّه، كما أن التعاون على الإثم والعدوان ـ بجانب عقابيله الهدامة المخزية في الدنيا ـ هو طريق إلى العقاب الشديد يوم القيامة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة: ٢].

لقد أدى رسول اللّه الأمانة وترك أمته على بيضاءَ نقيَّةٍ ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. وما تركنا عليه رسول اللّه نعم الدواء لما تشكو منه الأمة فهل نحن فاعلون؟؟



أحكام آية في التعاون الأخوي..
والبُنيان المطلوب
«١٣»

ليس من مكرور القول ـ ونحن نتحدث عن تعاون المؤمنين ـ الذين تشد بعضهم إلى بعض أخوة العقيدة الواحدة ـ على البر والتقوى، وعن حرمة تعاونهم على الإثم والعدوان، وأن المخالفة عن أمر الله في ذلك مدعاة لغضب الله وشديد عقابه يوم الحساب.. وعن بعض من بيان النبي ﷺ على هذه الساحة.. ليس من مكرور القول التذكير بأن الكلمات النورانية: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] هي خاتمة الآية الثانية من سورة المائدة التي هي سورة مدنية ومن أواخر ما نزل من القرآن على نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام. وتأمُّل الآية الكريمة بكاملها يعطي مزيداً من وضوح الرؤية في شأن الأهمية التي يحملها اختتامها بالأمر بالتعاون على البر والتقوى والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان، ثم الأمر بتقوى الله والتذكير بأنه شديد العقاب لمن أسرف على نفسه فجنح عن طريق أهل التقوى في ذلك.

وهذا ما يدعونا إلى إيراد النص الكامل للآية وهو قول الله جلّ وعز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢].

فقد بدئت الآية بهذا الخطاب الندي الخطاب المحبّب إلى نفوس أهل الإيمان، تذكيراً بالقاعدة التي يقوم عليها خطاب التكليف وهي عقيدة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فالله يخاطبهم بأمره ونهيه وما شرع لهم من أحكام

بوصفهم مؤمنين. والمفروض أن ينمي تكرار الخطاب ـ كلما دعت الحاجة ـ بهذه الصيغة النديّة المحبَّبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إحساس المؤمن بعظم مسؤوليته بوصفه مؤمناً، واستشعاره فضل الله في هذا الخطاب! ولكن أين البصائر والقلوب؟

ثم أشارت الآية إلى عدد من الأحكام بدئت بنهي المؤمنين عن أن يستحلّوا محارم الله التي حرمها ـ ومنها مناسك الحج ـ وعن الاستخفاف بالشهر الحرام، وتعاطي ما نهى الله عن تعاطيه فيه ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ إلى أن جاء التصريح بإباحة الصيد بعد التحلّل من الإحرام بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ إذ يصبح الصيد حلالاً بعد أن كان حراماً على المحرم في حالة الإحرام.

تلا ذلك البيان الواضح لقضية كثيراً ما تحدث صراعاً بين الإنسان ونفسه، أو بين أبناء الأمة بعضهم مع بعض، في تبيُّن ما يجب عمله في مواجهة من أساء، وأين يكون العدل في مثل هذه الحال وأين يكون الظلم؟ ذلكم قوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ أي ولا يحملنّكم بغض قوم لكونهم صدوكم عند المسجد الحرام ـ وذلك عام الحديبية ـ على أن تعتدوا، بل احكُموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد، كما جاء التصريح بذلك في قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] روى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتدّ ذلك عليهم فمرّ بهم أناسٌ من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصُدُّ هؤلاء كما صدّنا أصحابهم فأنزل الله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ ومعلوم أن قصد المشركين هؤلاء الاعتمار، كان قبل تحريم أن يقرب المشركون المسجد الحرام في سورة التوبة من بعد. ثم إن قضية العدل قائمة مع الجميع ولا تتنافى مطلقاً مع واجب الجهاد بالأموال والأنفس وإحكام الطوق على العدو.. فتلك قضية أخرى إذ مشروعية الجهاد لا تعني إباحة الظلم بحال!!

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وموعدنا ـ إن شاء الله ـ نظرة أخرى نتأمل من خلالها ما لهذا الختام في الآية بعد إيراد تلك الأحكام من دلالة على الساحة التي يشملها التعاون المطلوب، والآثار العظيمة التي يخلفها في ميادين البناء وتحقيق الوجود الذاتي للأمة شاء الله أن تكون ـ بالإسلام ـ خير أمة أخرجت للناس.



صورة أخرى.. مع الأخوة والبناء
وآية من سورة المائدة
«١٤»

نعود اليوم إلى متابعة النظرة العجلى التي لا يتسع لأكثر منها المقام فيما يوحي به اشتمال الآية الثانية من سورة المائدة على عدد من الأحكام ثم اختتامها بالأمر الجازم بالتعاون على البر والتقوى والنهي الجازم عن التعاون على الإثم والعدوان، ثم ما تلا ذلك من الأمر بتقوى الله وذلك بالإتيان بالمأمور به واجتناب المنهي عنه، والوعيد الشديد على المخالفة عن ذلك بشديد العقاب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وفهم الصحابة أن القرآن أمانة في أعناق المكلفين، وأن تدبره والعمل به ـ مع التلاوة ـ مسؤولية الإيمان الصادق، وبرهان أن القلب قد خالطته بشاشة ذلك الإيمان... فَهْمُ الصحابة رضوان الله عليهم هذا: جَعَلَ من قضية التعاون على البر والتقوى بين المتآخين على الكلمة الطيبة وعدم التعاون على الإثم والعدوان: حجر الزاوية في توطيد دعائم الإسلام، والإحسان في بناء المجتمع عليه، وعقد الخناصر على وضع الإمكانات كلها على طريق نشره في العالمين، والذود عن حياضه على كل صعيد، ولا تسل عن الجسور المتصلة بين ذلك وبين الموالاة لله والمعاداة لله، فهذه من تلك والحمد لله.

وهذا الموقف المرضيُّ لله ولرسوله، قد أخذ طريقه المثمرة عبر العصور في تاريخ الإسلام فكان ما كان من رفع راية التوحيد على أكثر بقاع المعمورة، وانصبت إمكانات الشعوب الإسلامية ـ على اختلاف العرق واللون واللسان ـ في نهر الحضارة الإسلامية العظيم لما أن جميع المؤمنين إخوة مؤمنون يحفزهم العمل

بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وليس همهم أن تتحرك عجلة الحياة على الوجه الذي ينبغي فحسب ولكن أن يظفروا يوم يقوم الناس لرب العالمين بالفوز بالجنة والنجاة من النار؛ فقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] فتقواه بامتثال ما أمر من أخذ التعاون على البر والتقوى مأخذ الجد وتجاوز الرغبات المعوقة، واجتناب ما نهى عنه من التعاون الآثم.. هذه التقوى كفيلة ـ بعون الله ـ أن تنتهي بالعاملين إلى حيث الفوز العظيم بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، والزحزحة عن نار وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

هكذا عمل المعلم القرآني عمله، فأصبحت ترى عبر العصور خلايا العمل البناء في كل ميدان من ميادين الحياة يشيع فيها دويٌّ الحركة المشبعة بروح الثقة المتبادلة نحو إنجاز كل ما فيه مصلحة الفرد والجماعة في ضوء رسالة الهدى والنور، الرسالة الحضارية التي طالما انتظرها الإنسان، وتطلّع إلى وجودها سلسبيلاً متصلاً بنبع التوحيد الخالص الذي تلتقي عليه القلوب!!

وحين يظل المسلمون على هذا النبع السلسبيل: تجدهم ذكوراً وإناثاً لا يبخلون بالعطاء، كيما يظل الحكم بما أنزل الله آخذاً طريقه إلى كل زاوية من زوايا المجتمع، ممتداً إلى الأمة بأسرها، وكيما يكون العمل بالإسلام كِفاء ما يقتضيه المنهج الذي تطرحه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فيتجاوز إلى أن يثبت وجوده بوصفه عملاً بنّاء للقدرة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.. وللمسارعة إلى بذل الأموال والأنفس في ميادين الجهاد، ذوداً عن كيان الأمة ونشراً لدعوة الله التي تحمل إلى بني البشر ما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

والأمة اليوم مدعوة إلى التبصر بسير الهداية في أفق الجماعة على هذا الخط المستنير الذي تشرق بعض ملامحه في آيات سورة المائدة، ويكون من مشتملات الآية الثانية تلك الأحكام التي بدئت بعد التذكير بالإيمان الذي هو

قاعدة التكليف ومنطلق القضية كلها ... بدئت بالنهي عن تجاوز حدود الله وإحلال محارمه.. وكان منها ـ فيما بعد ـ ضرورة أن تمسك الأمة بعاتق الميزان في الموالاة والمعاداة، وأن تكون على العدل المطلق مع كل أحد، فلا يحملها بغض قوم لسبب اقترفوه على تجاوز المبادىء الخيِّرة وانتهاك حرمة العدل.

سبحان من أنزل كتابه المعجز على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام وائتمنه على بيانه، الأمر الذي لا يدع عذراً لمعتذر في أن يتخذ كلام الله وبيانه وراءه ظهرياً لأن ذلك دليل العماية والشقاء.. أفلا يرى المنصفون أن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ في أعقاب ما مر في الآية من أحكام: قد كشف عن المنهج الذي يضمن تحكيم شريعة الله، وإنفاذ أمره ونهيه على صعيد الفرد والمجتمع والأمة، كيما يُضمن أن تكون الأمة على بينة من أمرها فيما تأخذ وفيما تدع ـ موالاةً ومعاداةً ـ والمقياس الذي تواجه به من تواجه عند التحديات. فالتعاون على البر والتقوى بأوسع معانيهما كما أمر الله، وعدم التعاون على الإثم والعدوان بأوسع معانيهما ومدلولاتهما كما أمر سبحانه أيضاً، وأن يُتَقَى اللَّهُ في سلامة التطبيق تربيةً وتعليماً وإعداداً، ووضعاً للأمور مواضعها في كل ميدان من ميادين البناء مهما كان شأنه.. كل أولئك يعني الانطلاق من العقيدة الخالصة الواحدة، والتصور الواحد والثقافة المؤصّلة الواحدة، وذلكم طريق الأمة إلى تحقيق ما هدت إليه معالم الكتاب، وهو ـ في الوقت نفسه ـ عامل على غاية الأهمية في الإفادة من الخط الجماعي، وتنمية الطاقات الفاعلة، وتوجيهها وجهة الخير المشترك الذي من آثاره الخيرة الإسهامُ العظيم في بناء حضارة الإسلام.

وإذا كان الأمر كذلك: فمن مقتضيات الإيمان، والحرص على أن تستأنف أمتنا طريقها الهادية من جديد، غير مستكينة ولا مقيمة على عوامل التخلف والانحسار.. أن يتجه القادرون من أبنائها إلى الحياة بوصفهم مؤمنين تحدوهم عقيدة واحدة، وتشدهم إلى التغيير منطلقات واحدة، وأن يتحركوا على ساحات

العطاء ـ على مختلف أبعاده وصوره ـ بعلم وواقعية مصحوبة بالتساوق مع سنن الله، واستمساك بمعطيات تلك العقيدة الربانية التي من معطياتها وجوب التعاون على البر والتقوى، وتطهير الصفوف من الإثم والعدوان والتعاون عليهما .. وذلكم واسطة العقد بين ماض تليد ميمون، ومستقبل تتجاوز فيه الأمة حاضرها إلى ما هو الأفضل والأقوم. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.



ميدان التعاون البنّاء
من الجزئيات.. إلى الكليات
«١٥»

ما كان لنا أن نغادر القول فيما ختمت به الآية الثانية من سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قبل أن نلمح إلى أن هذا التعاون يبدأ من الجزئيات على مستوى التعامل اليومي بين المسلمين، ويمتد رواؤه حتى يصل إلى القضايا الكبرى. ولا بدع في ذلك، فمعاونة المسلم أخاه المسلم على صعيد الوقائع التي تبدو جزئية في التعامل بين الناس أخذاً وعطاءً، هو صورة تعكس سلامة طريق الأمة، وقدرتها على التعاون والتضامن على صعيد البناء المتكامل الذي يترجم الإسلام بوصفه رسالة الحياة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] كما تعكس أهليتها لمواجهة التحديات أياً كان شأنُها وتحت أي عُنوانٍ كان بارقها الخلّب، لما أن هذه الأمة قد توحّدت منطلقاتها وغاياتها وهي دائماً تنهل من معين المعرفة التي تضمن وحدة الثقافة والتصور. وذلك بعضٌ مِن عطاء عقيدة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

على هدي هذا الذي نقول، يعظم في إدراكنا أكثر وأكثر ما يرى المؤمن في هدي النبوة من الدعوة إلى التعاون، بدءاً من القضايا الجزئية التي يطرحها التعامل اليومي بين المؤمنين، فقد روى الإمام البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ جالساً إذ جاء رجل يسأل ـ أو طالب حاجة ـ فقال عليه الصلاة والسلام: **«اشفعوا فلْتؤجَروا وليقض الله على لسان نبيه ما شاء»** وعند مسلم رواية أبي موسى أيضاً: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: **«اشفعوا تؤجَروا وليقض الله على لسان نبيه ما أحب»**.

وفي رواية أخرى للبخاري: «**اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء**».

وكما أورد الإمام البخاري هذا الحديث بعد قوله عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً وشبَّك بين أصابعه**» تحت باب «تعاون المؤمنين» جاء به تحت الباب الذي عقده في كتاب الأدب لقول الله تعالى في الآية الخامسة والثمانين من سورة النساء: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾[النساء: ٨٥].

فالرسول ﷺ يشير ـ بياناً للآية الكريمة ـ إلى ما يكون من الأجر على الشفاعة، ويرغِّب المؤمنين بها لما قد يعود ذلك على المشفوع له بالخير وكشف الكربة في كثير من الأحيان «اشفعوا فلتؤجروا»، على أن الأجر على الشفاعة مخصوص بما تجوز فيه الشفاعة وهي الشفاعة الحسنة ـ كما نصت على ذلك الآية الكريمة. وضابط هذه الشفاعة: ما أذن به الشرع دون ما لم يأذن به كالشفاعة في الحدود؛ فقد أنكرها سيدنا رسول الله كل الإنكار.

قال القاضي عياض: ولا يستثنى من الوجوه التي تُستحب الشفاعة فيها إلا الحدود.

هكذا تدل الآية وبيانها من حديث رسول الله ﷺ على أن من يشفع لأحد من إخوانه في الخير: يكن له نصيب من الأجر ومن شفع له بالباطل كان له نصيب من الوزر. ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[النساء: ٨٥]. والكفل النصيب وهو هنا في سورة النساء الجزاء. وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي شهيداً أو حسيباً.

أرأيت إلى هذا الترغيب في معاونة المؤمن لأخيه المؤمن، من أين يبدأ؟ إنه يبدأ بالفعل والتسبب إليه. يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وفي الحديث: الحض على الخير بالفعل وبالتسبب إليه بكل وجه، والشفاعة إلى الكبير في

كشف كربة ومعونة ضعيف، إذ ليس كل أحد ـ كما يقول الحافظ ـ يقدر على الوصول إلى الرئيس ولا التمكين منه ليُلحَّ عليه أو يوضح له مراده ليعرف حاله على وجهه، وإلا فقد كان ﷺ لا يحتجب. ثم نقل الحافظ عن القاضي عياض قوله الذي رأينا (ولا يستثنى من الوجوه التي تستحب الشفاعة فيها إلا الحدود... إلى أن قال: وأما المصِرُّون على فسادهم المشتهرون في باطلهم فلا يشفع فيهم ليزجروا عن ذلك).

ترى ما الذي يعنيه أن تسلك الأمة بصدق سبيل التعاون والتآزر والتضامن كما أراد اللّه ورسوله وما الذي يعنيه إعراضها عن ذلك؟ أترك الإجابة للتاريخ والواقع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].



جيل البناء..
وما يجب له من أخوة العقيدة
«١»

من حق الجيل الذي تعلق الأمة عليه ـ بعد الله ـ آمالها في تخطي الصعاب، وتجاوزِ المرحلة التي طال أمدها تخلفاً عن الركب، وانحساراً عن القيادة... من حق هذا الجيل.. أن يكون إعداده على المستوى الذي يستطيع معه ـ بإذن الله ـ تحقيق الغايات الكبار، والارتفاعَ بالأمة إلى بلوغ ما تطمح إليه من آمال.

ووضع هذه المقولة موضع العمل والتنفيذ: يوجب الاهتمام بالأولويات، والتصنيف الموضوعي لها، كيما تواجه بما هي جديرة به على سلّم الاهتمامات.

وهذا يقودنا إلى الحجم الكبير الذي أخذته آيةُ التعاون على البر والتقوى في ظل الأخوة النابعة من عقيدة التوحيد، في بناء الأجيال التي حملت العبء في الماضي، ثم ما أحدثه البعدُ عن هذه الأخوة والتعاون في ظلها والالتفافُ حول بدائل جاهلية وافدة من هنا وهناك من تخلُّف الأمة وذهاب ريحها.. ناهيك عن التمزق والضياع، والوقوع في حمأة التبعية التي لم ينج منها إلا المعتصمون بالله المستمسكون بكتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولكن البلاء في الأمور العامة يعمُّ ـ والعياذ بالله ـ ألم تر إلى قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

ولقد كانت لنا مع أخوة العقيدة في أبعادها ومراميها والتعاون الصادق في ظلها وقفات، نأمل أن تكون مؤشرات تدل على ذلك الحجم الكبير الذي نلمح إليه، وكان من هذه الوقفات ما رأينا فيما سبق: من الحديث الصحيح الذي يورده العلماء عند

تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾[النساء: ٨٥] ذلكم قوله صلوات الله وسلامه عليه فيما روى البخاري ومسلم: «**اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء**». هكذا يأمر النبي ﷺ الإخوة المؤمنين بالشفاعة، ويبين لهم ـ تقريراً لما جاء في الآية ـ أنهم مأجورون على ذلك وأن شفاعة المسلم لأخيه المسلم ـ فيما أذن الشرع بالشفاعة فيه ـ واحد من حقوق الأخوة التي وثَّقت العقيدة عُراها، وكرم الله بها أمة الإسلام.

ومع أن ذلك واحد من حقوق الأخوة ومستلزماتها فقد جاء الترغيب به في الآية الكريمة: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾، وكذلك في الحديث الشريف: «**اشفعوا تؤجروا**» فالمثوبة كائنةٌ عند الله لمن يشفع شفاعة حسنة تعود على أخيه بالخير، وأكرمْ بها من صورة تعمِّق مشاعر الأخوة من طريق الممارسة الإيمانية الواعية وتسهم أيما إسهامٍ في استقرار المجتمع. وفي المقابل: يلاحظ أن الأمور لا يجوز أن تجري وفق الهوى والعواطف المبتورة عن القيم؛ فكما أن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها: نجد في المقابل. أنه من يطعْ هواه فيشفع شفاعة سيئة تناله العقوبة من الله ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾، لما أنه ـ والله أعلم ـ يسهم في تشجيع الفساد والانحراف في جنوح عن الهداية الربانية التي تحصِّن الفرد والجماعة بحسن التعامل المشرق بآثار الأخوة الإيمانية والالتزام بأحكام الله، كيما يكون المسلمون في تعاملهم وتعاونهم على البر والتقوى، صورة عملية للحرص الشديد على مرضاة المولى عز وجل ومرضاة الرسول عليه الصلاة والسلام. إن الذي يطرحه المعلم القرآني ويبينه الرسول عليه الصلاة والسلام. هو أن تكون أخوة العقيدة مدعاة التزام واعٍ بأخلاق الإسلام وآداب الإسلام، في توازن لا تطغى فيه العاطفة على الدين وأحكامه.. وأن تكون حافزَ مودةٍ وتعاونٍ على الخير، ومسؤوليةً تتحقق من خلالها قيم الإسلام بشكل عملي على صعيد المجتمع والأمة، وتقصى عندها عوامل التفكك

وعدم الاستقرار. وكم يحمل التاريخ مضافاً إليه الواقع المعاصر: من وقائع يؤكد بعضها ما رغّب فيه وبعضٌ آخرٌ ما رهّب منه. وآثار ذلك لا تخفى على ذي البصيرة اللبيب.

وأمتنا اليوم وهي تعمل ـ ممثلة في المخلصين الذين تؤرقهم همومها ـ على بناء الجيل الذي يؤمل أن يحمل العبء، ويقود قافلة الخير من جديد: مطلوبٌ منها أكثر من أي وقت مضى؛ أن تقرأ صفحات التاريخ الماضي والواقع المعاصر في ضوء المنهج الرباني، والتفسير الصادق للتاريخ، والتقويم الصحيح للواقع من حيث التعاون الإيماني أو عدمه، قراءة سليمة شجاعة تحملها على إصلاحِ ما فسد، والعودةِ الصادقة إلى منهلِ تلك العقيدة والالتفافِ حول رايتها، والتعاون الخيِّر على هدي منهجها المومى إليه، ذلك المنهج الذي لا يضلّ سالكه ولا يهن المستمسك به بعزيمة وإيمان؛ ذلك لأن التعاون المجدي الذي خوطبت به الأمة هو ذلك التعاون الذي يَدفع الله إلى الإيمان بمدلوله الواسع العميق.

والذين خوطبوا بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ هم أولئك الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فتألفت تلك القلوب على كلمة الهدى بعد فرقة وضعف وكان ما كان من القوة والتمكين. أما الفراغ من عقيدة التوحيد فهو الذي يجعل الأفئدة هواءً والديارَ بلاقع والبناءَ على شفا جرف هارٍ. فالأخوة ملحوظ فيها العقيدة، والتعاون بين الإخوة ملحوظٌ فيه ما اجتمع عليه هؤلاء الإخوة من دعوة الخير. أما أن يكون اللسان للإسلام.. وولاء القلوب لغيره فتلك هي الطامة الكبرى كما هو مشاهد في كثير من الحالات. فهل نحن مُدَّكرون!!! اللّهم هيّئ لهذه الأمة من أمرها رشداً. ولا حول ولا قوة إلا بالله.



مع جيل البناء.. وموقع الأخوة في الإعداد

«٢»

كان من عظمة الإسلام: أن الجيل الذي أقام به محمد ﷺ البناء ـ بشموله وكماله ـ وخاض به ميادين الحياة في ضوء الرسالة، مواجهاً كل التحديات على ساحات السلم والحرب.... كان من عظمة الإسلام أن هذا الجيل قد جُهِّز ـ بعد العقيدة ـ بالحوافز النابعة من داخل النفس، ومن ذلك حافز التعاون بين المؤمنين الذي يتحقق من خلاله حشد الطاقات الفاعلة على طريق الخير، بأسلوب يضمن سلامة الوسيلة والغاية، وهو التعاون على البر والتقوى. وهو تعاون على كل ما فيه خير الفرد والجماعة. لما أن ذلك من حق الإخوة الإيمانية التي تَنَادى إلى روائها الجميع مخلِّفين كل النزعات الجاهلية والموروثات التي تقيم الانتماء على أساس من العصبية أو المصالح التي لا يُراد بها وجهُ اللّه.

وهذا يستلزم عدم التعاون على الإثم والعدوان لأن ذلك يتنافى مع ما تمليه عقيدة الإسلام، ويقود المجتمع إلى الخراب والدمار. ولقد كان من صنيع رسول اللّه ﷺ ـ وهو يتابع رحلة الريادة الحضارية بذلك الجيل ـ تنميةُ الإحساس الصادق بأن أخوة العقيدة تغْني شيئاً كثيراً في حياة الأمة، لما أنها ـ كما يفهم من الكتاب والسنة ـ قضية جذرية يثمر حشد الطاقات في ظلها أطيب الثمرات لا على صعيد البناء في الداخل فحسب، بل وعلى صعيد نشر دعوة اللّه والمواجهة لكل طارىء في الخارج، وأن أي خلل ينتاب هذه البدهية ينعكس سوءاً على الأوضاع الداخلية والخارجية سواء بسواء.

ففي بيان عملي لكل الآيات التي تتعلق بالأخوة وما يجب أن يصحبها من تعاون على البر والتقوى، وجدنا الرسول ﷺ، يسير بالأمة سيرة تصطحب معها تلك المعاني ولا تفارقها مع أي من ألوان الممارسة المشتركة لشؤون الحياة. ووقائع

ذلك كثيرة وفيرة بلغ ظرفها الزمني ثلاثة وعشرين عاماً. وما رأيناه فيما سبق من القول: مؤشر يقودنا إلى آفاق أُخر: من ذلك ما أخرج أبو داود في سُننه عن جابر رضي اللّه عنه عن رسول اللّه ﷺ أنه أراد الغزو فقال: «يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قوماً ليس لهم مال ولا عشيرة، فليضمَّ أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة، فما لأحدنا من ظهر يحمله إلا عُقبة كعُقبة» يعني أحَدَهم. قال: فضممت إليّ اثنين أو ثلاثة ما لي إلا عقبةٌ كعُقبة أحدهم من جملي».

والعُقبة: ركوب مطية واحدة بالتناوب الثلاثة أو الأكثر، واحداً بعد واحد. وكان من جابر رضي اللّه عنه أنه ـ امتثالاً لأمر رسول اللّه ﷺ ـ ضم إليه اثنين أو ثلاثة من إخوانه فصار الجميع يتعاقبون على جمله ـ وهو واحد منهم ـ ليس له من هذا الجمل إلا عُقبة كعقبة أحدهم. والمجتمع الذي تتحرك خلاياه بالعمل الدائب على هذه الشاكلة قصداً لتحقيق الهدف المرضي للّه ولرسوله، يبرزه تعاون على إقامة البنية الحضارية المثلى في ظل الشريعة الفاذة: لا عجب أن يقوده عليه الصلاة والسلام بالتنظيم والأخذ بالأسباب، ومن وراء ذلك تنمية الحوافز التي تجعل من التعاون بين أفراده عملاً صالحاً يتقرب المؤمن به إلى اللّه عز وجل، في ظل النعمة التي ذكرها اللّه تعالى بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[آل عمران: ١٠٣] .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي ذر رضي اللّه عنه قال: «قلت: يا رسول اللّه أي الأعمال أفضل؟ قال: **الإيمان باللّه والجهاد في سبيله**، قلت: أيُّ الرقاب أفضل؟ قال: **انفَسُها عند أهلها وأكثرُها ثمناً**، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: **تُعينُ صانعاً أو تصنع لأخرق**. قلت: يا رسول اللّه أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: «**تكفُ شرَّك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك**» أرأيت إلى هذه المكانة التي أعطاها رسول اللّه لمعاونة الأخ أخاه: «**تعين صانعاً أو تصنع لأخرق**» وهو الذي لا يتقن ما يحاول فعله. وروى مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**كل سُلامى من الناس عليه صَدقةٌ، كلَّ يوم تطلع فيه**

الشمس» قال: «تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة».

صلى الله على معلم الناس الخير يريدها مشاركة في التعاون في كل حقل أمكنت فيه المعاونة. وكم يعمل الترغيب بأن هذه المعاونة صدقة. قربة إلى الله مع دلالته على الأهمية البالغة لهذا النوع من التحرك الإيماني العملي في المجتمع!!

وإذا كانت هذه القيمة للتعاون على صعيد التعامل الذي تقتضيه طبيعة المشاركة في بناء الحياة، لما أن ذلك بريد التعاون على المسيرة الكبرى للأمة، المسيرة التي تعني إقامة البناء الحضاري المرموق والارتفاع بالفرد والجماعة إلى مستوى الذاتية والأصالة، والقدرة على عمارة الأرض وإنشاء القوة التي أمر الله بإعدادها في قوله جل وعلا: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[الأنفال: ٦٠].

إذا كانت هذه القيمة كذلك؛ فكم يفلح المربون في البيت والمدرسة وغيرهما، كم يفلح الذين بيدهم صنع القرار وتنفيذه، حين يضعون هذه القضية الكبرى موضعها على صعيد التربية والتنهيج والتنفيذ، وسبحان من يوفق من يشاء لما يشاء!!



حكمة بالغة ورباط العقيدة الوثيق

من الأمور التي لها مدلولها المعبِّر على ساحة البناء، وإنماء طاقات الفرد والجماعة في ضوء عقيدة التوحيد: ما يُرى في ثنايا معالم الكتاب العزيز من الإفساح للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كيما تكون محور البناء أولاً، ثم ما يلاحظ من جعلها الرباط الوثيق الذي يجب أن تقوم عليه علاقة المسلم بأخيه المسلم، فيكون المؤمنون بنعمة الله وفضله إخواناً... وفي كلمات موصولة بما شهدنا فيما سلف من كلمات قريبات حول هذه المقولة العظيمة: تحسن الإشارة إلى أن مما يثير الانتباه أكثر وأكثر.. من تلك الأمور ما نرى من الحكمة البالغة في أن ذلك جاء مبكراً في العهد المكي، كيما توضع هذه الأخوة في محضنها الطبيعي، وهي ثمرة من ثمرات العقيدة حيث الفئة القليلة المؤمنة تتسربل الابتلاء والمحنة وتعاني ما تعاني من تحديات الشرك والمشركين، حتى إذا جاء العهد المدني أخذت طريقها لتحكم ألوان التعامل وعلاقات الإخوة بعضهم ببعض، وهم ينهضون بالعبء الحضاري على هدي دعوة الله في كل ميدان.

هكذا كان الضياء يلوح في الأفق من وراء الليالي الحالكات التي تطبق على المؤمنين في العهد المكي، لما أن هؤلاء القلة ممن أسلموا وجوههم لله واستجابوا لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام كانوا هم نواة الوجود الذاتي لأمة شاء الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس، استقبلت بإيمانهم وصبرهم على الفتنة والأذى: تباشير الصباح المنشود. ومن الأسلحة الماضية في أيديهم ـ بعد الإيمان العميق ـ: أخوّتهم التي نبعت من هذا الإيمان. والقرآن الكريم يبشرهم بأن من ثمرات صبر المؤمنين على الأذى وتقواهم لله عز وجل وعملهم لإعلاء كلمته: أنهم يدخلون الجنة يوم القيامة بسلام آمنين منزهةً صدورهم عن الغلِ إخواناً على سرر متقابلين.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى في سورة الحجر ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الخامسة والأربعين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾[الحجر: ٤٥-٤٨].

ويسير الركب الميمون على طريق الصبر والمصابرة نصرةً لدين الله وابتغاء مرضاته وينقضي العهد المكي ـ بعد أن عمل محضن الأخوة عمله ـ، ويُطل على الإنسانية فجر العهد المدني، وهنالك يتدخل التشريع الحكيم ـ فيوسع من سلطان التآخي على العقيدة ـ كيما تصحب تلك الأخوة عمليةَ البناء الكبرى، لتكون ـ مع حربها على ضوابط الجاهلية في علاقة الإنسان بالإنسان ـ طاقة هائلة تنمو وتتعاظم بالعمل والممارسة، وتثمر فيما تثمر تعاوناً على البر والتقوى، لا يغني غَنَاءه لقاء لا تحكمه آصرة العقيدة، ولا تحرسه مشاركة حياتية مبتورة عن أخوة الإيمان؛ فمع قوله جل وعلا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[آل عمران: ١٠٣] وقوله تباركت أسماؤه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠] نجد انعكاس ذلك على الحياة العملية حيث الحاجة إلى كل ما فيه سلامة بناء المجتمع المتكافل وضمان تكامله على صعيد الاجتماع والاقتصاد، وكل ما هو من تماسكه وقوته بسبيل. وصور ذلك كثيرة وفيرة.

ففي شأن اليتامى ـ مثلاً ـ وإحلالهم المكان اللائق بأخوة الإيمان في الجماعة، وبما تقتضيه تكرمة الإنسان، وكيما يكونوا قادرين على الإسهام في بناء القوة الذاتية للأمة: يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾[النساء: ٢].

وفي شأن أولئك الذينَ يتحولون عن الضلالة إلى الهدى وأنهم بهذا التحول تنتظمهم أخوة الإيمان نقرأ في سورة التوبة قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[التوبة: ١١].

وكان مما نزل في سورة الأحزاب إبطالاً لعادة التبني التي كانت في الجاهلية قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾[الأحزاب: ٥].

هكذا تعلن الحكمة البالغة إعلانها، فتنطلق حركة البناء لتملأ كل الميادين في العهد المدني، ويرتفع التشريع القرآنيُ بالأخوة التي تستمد وجودها من العقيدة المباركة، لتصحب تلك الحركة وتحكمها.

وإنها لحقيقة تنأى على المكابرة أو التغافل، وهي للمستقبل الأفضل ضرورة مُلحَّة يعقلها أولو النهى وسبحان ربنا الحكيم الخبير.



رباط العقيدة

هذه المقولة.. ومسؤولية البناة

في حديث وثيق الصلة بما قلناه من قريب، تحسن الإشارة إلى أن المؤاخاة التي اتخذ الإسلام من عقيدة التوحيد محوراً لها وآصرة تزري بكل آصرة دونها: تأتي في مقدمة القضايا الجذرية الكبرى التي أخذت حيِّزها في أخلاق الإسلام وأحكامه، كما أعلنت وجودها في ميادين البناء على شكل لا تكاد تفرق فيه بين الجانب النَظري والجانب العملي لأنها كانت للتصوّر الواعي، والإحسان في تقديم البرهان العملي، على وثيق ما صنعت من الارتباط القلبي والعقلي، حيث التكاتف المنتج لتحقيق كلمة الله في الأرض، بل إن التطبيق العملي لذلك الترابط الذي جعل منها طاقة تصحب كل واقعة من وقائع العمل وتبادل العطاء والتعاون، أصبح من العوامل الأساسية في نمائها وتعاظمها، والمؤمن في كلا الحالين ساعٍ في مرضاة الله عز وجل؛ لأن ما جمعه بأخيه المؤمن هو تلك الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» ولأن إيمانه لا يكمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** وفهم العلماء أن من ذلك أيضاً أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه.

ولقد حملت إلينا النصوص بواكير إشراقة الأخوة على طريق الفئة القليلة المؤمنة الصابرة في العهد المكي حيث عرضت سورة الحجر ـ وهي سورة مكية ـ لحال المؤمنين في الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧] كما رأينا في عدد من السور المدنية كيف أن هذه الأخوة التي عقد الله موثقها بقدرته وعونه، لا تدع أن تحكم وقائع الحركة والبناء في كل شأن من شؤون الحياة التي نُدب المسلمون لإقامة صرحها الحضاري على

هدي الرسالة الخاتمة التي أوحي بها إلى محمد عليه الصلاة والسلام؛ ففي شأن اليتامى جاء في سورة البقرة: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٠] وفي سورة التوبة: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ٥] وفي سورة الأحزاب: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾[الأحزاب: ٥].

وتسوقنا الرحلة إلى ما نجد في سورة الحشر ـ وهي سورة مدنية أيضاً ـ لنجد صورة أشمل بين أخوة العقيدة وبين أمور اقتصادية واجتماعية بارزة في حياة المجتمع الإسلامي، الأمر الذي يشير بكل وضوح إلى ما تتسم به البنية الحضارية في الإسلام من معانٍ إنسانية تحكي القيم التي تشرق على النفوس وتجعلها تستعلي على الحطام الذي يُحدِث الجفوة بين الناس، ويثير ما يثير من قلق وبُعدٍ عن الطمأنينة والاستقرار؛ ففي آيات كريمات تتحدث عما حصل بين المسلمين وبين يهود بني النضير وما أفاء الله على رسوله من أموالهم، وكيف أن المجاهدين لم يخالفوا عن طريق الوفاء، ولم يفارقوا ميدان الأخوة عند مكاسب النصر العظيم، نقرأ بدءاً من الآية السابعة في السورة المشار إليها قول الله جلّ وعز: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾[الحشر: ٧-٨] ثم يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[الحشر: ٩] وفي مزيد من التجلية للسمو الذي تعكسه رابطة العقيدة وأنَّ ما اشتملت عليه الآيات السابقة من خلائق عالية غالية هي

دَيْدَن أهل الإيمان إلى يوم القيامة: نقرأ بعد الذي رأينا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[الحشر: ١٠].

أوليس هذا الذي يعرض علينا القرآن الكريم ـ ومن أصدق من اللّه حديثاً ـ في شأن الأخوة النابعة من العقيدة وما تنتجه من آثار عميقة في استقرار المجتمع وسلامة كيان الأمة... أليسَ جواباً على كثير من التساؤلات من مثل ما الذي دهانا في هذا الحاضر اليوم...؟ لِمَ تبوأت أمتنا تلك المكانة تحت الشمس في الماضي؟! إنها العقيدة منهج الحياة والأخوة النابعة من تلك العقيدة عقيدةٍ كانت أساس هذا البناء الأقوم، وأخوةٍ أحكمَت بالقلوب والعقول أوابدَه، ورفعت بالعلم والسواعد قواعده.

وكل أولئك مشير للتائهين والمتشككين: أن الطريق الموصلة إلى التحويل الجذري كيما يغيِّر اللّه ما بنا مما نالنا من تغييرنا السابق: تبدأ من هنا حيث الحقائق التي يدور حولها الحديث، وأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.



الخط الموازي..
على طريق البناء وأخوة الإيمان

في معترك البناء الذي يفترض أن ترتاده الأمة، وتعمل من خلاله على زيادة الفاعلية في قدرتها الذاتية كيما يكون لها من الكفايات ما يوقظها من سباتها ويحفظ عليها بنيانها، ويُسلمها إلى حيث يكون وجودها الذاتي بالإسلام قضية غير قابلة للأخذ والرد.. في هذا المعترك: لا بد من مراعاة خطين متوازيين من الإيجابيات والسلبيات؛ فبمقدار ما يكون الحرص على سلامة المنهج في الإفادة من طاقات الأمة البشرية والمادية، ووضع قيمها موضعاً يجعل منها حوافز عمل مثمر وخير عميم: يبدو من الضرورة بمكان، مراعاة ما يمكن أن يطرأ عليها من معوقات وسلبيات قد تؤثر في سلامة البناء واستمراره معافىً يحمل كلَّ مقومات العطاء.

وكذلك كانت هداية القرآن الكريم، وكذلك كان بيان هذا القرآن من سنة النبي عليه الصلاة والسلام.. ولقد رأينا في كلام سلف بعضاً من عطاء المعالم القرآنية على ساحة الأخوة التي تثمرها عقيدة التوحيد، وما كان لذلك من أثر فعّال في استقرار المجتمع وجمع كلمة الأمة على الحق والهدى وتعاونها على رفع راية الحق وتحقيق كلمة الله في الأرض. كما سعدنا بما وقفتنا عليه معالم الكتاب العزيز من صور بدأت في العهد الملكي حيث المحضن الأول للتآخي على الإيمان، والتصور المشترك والغاية الرفيعة التي كان يطمح إلى تحقيقها الجميع.. تلك الأمور الكبار التي كانت تنمو وتتعاظم في ظل الابتلاء والمحنة في سبيل الله وما صحب ذلك من صبر ومصابرة أسهما في صناعة التاريخ.. ثم رأينا كيف اقتضت طبيعة العقيدة التي كانت موثق الأخوة، أن يكون لهذا النهج المبارك المرتبط بما تآلفت عليه القلوب.. أن يكون له الموقع المناسب على صعيد التعامل وتسيير القضايا الجزئية والكلية.

وكان آخر ما رأينا آيات من سورة الحشر أوسعت للأخلاق التي نمت وترعرعت في ظله أن يكون لها أثرٌ كبيرٌ في أمور اقتصادية واجتماعية، ناهيك عن أثرها في التعاون الخيّر على تطبيق أحكام الشريعة في السلم والحرب، كل أولئك في سلوك أخوي مكين نطقت به تصرفاتهم، وعلاقاتهم بعضهم ببعض حباً في الله، وإيثاراً، ورغبة في حسن العاقبة يوم المعاد، فكان ذلك عوناً لهم ـ بفضل الله ـ على ما هم بسبيله من أن يكونوا على المحجة البيضاء وقوفاً عند أمر الله ونهيه، وحباً صادقاً لرسول الله ﷺ يفوق حب المال والولد والنفس، وأن يوفقوا لإحكام البنية الحضارية للأمة وقد أكرمها الله بالمنعة والتمكين، وأن يمهّدوا للأجيال أن تكون كفاء ما تواجه من تحديات: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾[الحشر: ٩-١٠].

وعلى خط موازٍ لهذا الذي نقول، تقفنا الهداية القرآنية على ما يلزم العاملين من تنبه للمعوقات وسير المعوقين والمثبطين، كيما يكون في مقدورهم ـ بإذن الله ـ دفع الأذى عن مسيرة البناء، وإحكام الخطة التي تضمن النفع الشامل والاستقرار على هدي دعوة الحق.

ها هم المنافقون يعيبون على رسول الله ﷺ مسلكه في توزيع الصدقات، فلا يعجبهم شيء لا يوافق هواهم، وهمُّهم التثبيط عن عمل الخير وإلحاق الأذى بجماعة المسلمين، فينزل في الكشف عن سلوكهم وفضح نواياهم قول الله جل شأنه في سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩﴾[التوبة: ٥٨-٥٩].

وأكثر من هذا ـ في حرص على سلامة البناء من التخلخل وإماطة الأذى عن طريق المجتمع القدوة في بُناه الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وغيرها ـ يعرض القرآن لفئة منهم يعيبون على من يفعلون الخير ويعاونون إخوانهم؛ فإن كان العطاء كثيراً: قالوا ما دفعَ صاحبَه إلا الرياء. وإن كان قليلاً قالوا: إن اللّه غني عن هذه الصدقة. ذلكم قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[التوبة: ٧٩].

هكذا لا يسلم أحد من عيبهم في جميع الأحوال.. وإنه لمرض عضال لا يكاد يخلو منه عصر، يهدي المعلم القرآني إلى التنبه إليه، والعمل للحيلولة دونه ودون أن يحقق المراد تثبيطاً عن فعل الخير وهدماً وتخريباً. روى البخاري عن أبي مسعود البدريِّ رضي اللّه عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا ـ يعني المنافقين ـ: مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن اللّه لغني عن صاع هذا. فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[التوبة: ٧٩] نحامل: أي نؤاجر أنفسنا في الحمل. وفي رواية له: كنا نتحامل. أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة.

ولنا عودة إلى هداية هذا المعلم الكريم نتبين من خلالها ما يلزم العاملين دائماً من الحذر، وهم يحملون عبء التحويل إلى ما هو الأقومُ والأفضل، والتنبه إلى ما قد يصحب الإيجابيات ـ على صعيد الواقع... من سلبيات، وضرورة معالجتها بما يجب من الحكمة والحزم، وتبارك الذي جعل الدرك الأسفل من النار مثوى المنافقين!



إلا بما صلح به أولها

التوائم بين العقيدة والسلوك

الترابط العضوي بين الإيمان وما تنطوي عليه النفوس، وبين ما يثمر ذلك في نفس الفرد من طمأنينة بوعد الله وإقدام على العمل والجهاد، ذاك الذي قادتنا إليه تلكم الكلمات النيرات في سورة «الأحزاب» التي أعلنت عن موقف كلٍ من المؤمنين والمنافقين لما رأوا الأحزاب... هذا الترابط كان قضية كبرى أفسحت لها معالم الكتاب العزيز في الذكر، وقدمت لها النماذج الحية والوقائع التي تدل دلالة واضحة على أن الذين يندبون للإسهام في الرحلة البانية للإسلام العظيم، على صعيد الفرد والأسرة والمجتمع، بل على صعيد الكيان الذاتي للأمة، لا بد أن يكونوا على إيمان صادق بالرسالة التي يتحركون تحت رايتها، ويراد لهم أن يُقيموا صروح البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي وفق أحكامها ومنطلقاتها، ولا بد أن يصحب هذا الإيمان عمل دائب لتزكية النفوس وتطويعها للحق، كيما يكون المسلم على الأرض الصلبة في عمله وجهاده والأغراض التي يهدف لتحقيقها. ذلك بأن الفرد إذا لم يكن صادق الإيمان يدين نفسه لترتفع عن كل ما يجعلها تخلد إلى الأرض، وتطمئن بالانصياع للمنهج الرباني الذي تحمله الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بطهارة ونقاء، فكيف يتسنى له أن يبذل تحت هذه الراية ويدافع عنها؟ وأنّى له الارتفاع إلى مستوى التطبيق لمقتضيات «لا إله إلا الله» في الحياة في الوقت الذي جعل الله منها منهج حياة لا بد أن يلتزم، ويكون الانقياد له آية الوفاء بعهد الله والالتزام بذلك المنهج.. ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لجعلكم أمةً واحدةً ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿٤٨﴾﴾[المائدة: ٤٨]﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾[المائدة: ٤٩] ثم إن صدق الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس إنما يكون بتطويع الفكر والسلوك لما يقتضيه ذلك المنهج أيضاً، وإلا كان الانتماء دعوى عريضة بلا دليل.

والذي يحمل على التذكير بهذه الحقائق القرآنية التي لا يماري فيها منصف: ما هو معلوم من أبجديات العمل الخالص لاستئناف المسيرة الخيرة: أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلَح به أولها. وتطلعات أمتنا اليوم ـ وقد بدأت تصحو على مطارق ما أصابها في القرن الماضي ـ تطلعات لا بد من ترجمتها إلى واقع عملي. وكفاءُ ذلك ـ بعد الإيمان ـ صبرٌ وبذلٌ وتضحياتٌ، وكفايات تدأب على العمل في كل الميادين، وقدرة على الربط بين الماضي والحاضر، والتخطيط السليم للمستقبل. كل ذلك مع الموضوعية في استثمار ما أعطى اللّه الأمة من خيرات وثروات وقدرة بشرية، وموقع جغرافي، وانتماء إلى الرسالة الخاتمة، وتاريخ عريق قدّم الحضارة المثلى للإنسان. وكل أولئك لا يسيره في قنواته الطبيعية، ويجعله منتجاً، يؤدي الأغراض المرادة منه: إلا أولئك الذين تربَّوا على سلامة العقيدة التي تثمر الأخوة الصادقة، والرغبةَ في التعاون على البر والتقوى، والانطلاق إلى العمل في إطار الحوافز الإيمانية وتحقيق العبودية للّه عز وجل، لأن اللّه تعبّد المسلم بتطبيق شريعته، وتطبيق هذه الشريعة عملية بناءة ضخمة تتناول جوانب الحياة وميادينها المختلفة، والعملُ في أي ميدان من هذه الميادين بناءً وتنمية لطاقات الفرد والمجتمع في ضوء تلك الشريعة: عبادة للّه عزَّ وجل. فإذا سلم التصوّر وصلحت النية: كانت الخلايا كلها في حركتها الدائبة وما تحقق من منجزات ترفع من سوية الفرد والجماعة وتعلي من قدر الأمة: في عبادةٍ للّه تبارك وتعالى. وسورة التوبة التي تنزلت على رسول اللّه ـ والجماعة المؤمنة تضرب في الأرض عمارة وبناءً على آثار الجاهلية، ومناجزةً للباطل وأهله

في صراع على ساحات الفكر وميادين القتال ـ هذه السورة لم تفتأ تحرر البداية للخطوة الأولى، وتحذر من الدخَل في الصف الإسلامي الذي يخندق في مواجهة التحديات على كل صعيد، ولذلك فضحت المنافقين وهتكت أستارهم لأن المهمة المنوطة بالبررة المجاهدين الصابرين أهل الإيمان: مهمة لا بد أن يزاح عن طريق من يحملون أمانتها ركام الأذى وما يكون من تعويق وتخذيل، وما يندسُّ بين الصفوف من ضعاف النفوس مزلزَلي الإيمان.

ومن الأمور التطبيقية التي عرضت لها السورة والتي تؤكد ما ذكرناه في صدر هذا الحديث: صورةٌ للمنافقين وهم يحاولون التفلُّت وصورةٌ للمؤمنين وهم يُقبلون على البذل في سبيل الله، إذ يبدو موقف المنافقين نتيجة طبيعية لنفاقهم، وموقف المؤمنين نتيجة طبيعية لإيمانهم وصدقهم. ذلكم قول الله تبارك وتعالى في شأن المنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[المائدة: ٨] ثم قال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾[المائدة: ٩].

هكذا بلغ التفريق بين موقفٍ وموقف هذا الحدَّ من الوضوح، وهكذا جاء تأكيد الارتباط الإيجابي بين العمل المثمر وبذل المال والنفس في سبيل الله، وبين الإيمان الصادق الذي يمثِّل أعظم الحوافز من داخل النفس.

كما جاء تأكيد العلاقة الهابطة بين القعُود عن العمل والتخلف عن الجهاد، والمواقف السلبية من كل ما فيه خير الأمة وصلاحها، وبين النفاق الذي هو ظلمات بعضها فوق بعض ولكن المنافقين لا يعلمون.



وضوح الرؤية.. والطاقة الفاعلة في التوائم
البناة.. والهدامون
«١»

كانت لنا عَبْرَ خُطانا القريبة رحلة قصيرة مع واحد من المعالم القرآنية وقفْنا فيها على ما كان للكتاب العزيز من حرص على وضوح الرؤية عند الجماعة المسلمة وهي تحمل أعباء البناء وتعبِّد مسالك الحضارة الإسلامية للإنسان. وكان من ذلك ما رأينا في سورتي التوبة والأحزاب من صور كشفت عن الآفاق الوضيئة التي ارتقى إليها المؤمنون بإيمانهم، واستقامتهم على الطريقة، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، حيث سلم لهم البناء على العقيدة فكان من وراء ذلك خيرٌ كثير، وأظهرت الوقائع بما لا يقبل الشك مدى الترابط بين صدق الإيمان وبين ما كان من عطاء وبذل في سبيل الله. كما كشفت تلك الصور عن الحضيض الذي انحدر إليه المنافقون!! فكان الفرار من الجهاد، وانتحال الأعذار الكاذبة، ومحاولة التخذيل وتيئيس المؤمنين من إمكان المواجهة والانتصار على أهل الضلال والفساد، ناهيك عما فضحت المخادعة النابية في تصرفاتهم ومحاولاتهم اليائسة ـ أيضاً ـ من العلاقة الوثيقة بين الكفر الذي يبطنونه وضعفِ النفوس الطاغي عليهم، وبين ما كان يصدر عنهم من سلوك يتناقض مع دعوى الإيمان، ويجعل منهم هدَّامين لا يرعون في الأمة ورسالتها إلاًّ ولا ذمة.

وليس من مكرور القول الإشارة إلى أن هذه القضية المحورية في الإيمان والنفاق: قضية تتخطى القرون لتعلن إعلانها في دنيا الواقع بإعطاء الأولوية للبناء على العقيدة ومقتضياتها من عمل بالمنهج الذي تمليه في إطار الأخوة التي هي آصرتُها ورباطُها، والتعاونِ على تحقيق الغايات الكبار في بناء المجتمع الناضل القوي، والأمة الواحدة القادرة على أداء مهمتها الحضارية في العالمين.

كل هذا يقودنا إلى استجلاء الحكمة العظيمة فيما جاءت عليه سورة التوبة ـ مع تبصير المؤمنين بحقيقة النفاق وسلوك المنافقين المجافي للإيمان وصدق الانتماء ـ من الكشف عن خطوط ظالمة مظلمة يلتقي عليها المنافقون، وعن ركائز أساسية مضيئة يلتقي عليها ويطوع سلوكهم لها المؤمنون؛ فبعد الحديث عن بعضِ مخازي أهل النفاق ووضعِ أيدي المؤمنين على مكامن الداء الذي تنبعث منه تلك المخازي: قال الله تعالى بدءاً من الآية السادسة والستين من تلك السورة المباركة: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾[التوبة: ٦٦] ثم قال جلت قدرته: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾[التوبة: ٦٧].

تلكم هي عوامل التخريب والهدم التي يجتمع عليها المنافقون، وإنها لجنايات تقودهم إلى الجحيم والطرد من رحمة الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[التوبة: ٦٨].

وتلك سنة الله التي لا تتخلف في معاقبة من ينحرفون عن الصراط السوي، ويمكرون بأهل الإيمان ويبطنون غير ما يظهرون: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[التوبة: ٦٩].

أما المؤمنون الذين صدقوا ما أعطوا الله ورسوله من موثق، وتقدموا إلى ميادين البناء يملؤونها بالعمل ويشيعون فيها الحياة: فقد أهلهم للقيام بهذه المهمة الكبرى: ما نراه في الآية الحادية والسبعين من قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[التوبة: ٧١] تناصر وتعاون على الخير، حراسة للمجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

عبادة لله تسعد الفرد بمناجاة مولاه وعدم الخضوع إلا له، وتوثق عرى الأخوة والتكافل بين أبناء المجتمع، وطاعة لله ورسوله تزين العمل والسلوك، في شمول لكل ممارسات الحياة، وسيجزيهم ربهم بذلك الخلود في جنة عدن التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولهم من وراء ذلك الرحمة والرضوان: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

إن تنمية التمايز بين أصحاب العقيدة الأمناء الأوفياء، وبين غيرهم من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والإدراك العميق لما بين الركائز التي يلتقي عليها المؤمنون، وبين ما يقدمونه على ساحة الواجب من بذل للجهد وصدق في المواطن: كل أولئك مقولة يجب أن تأخذ مكانها المتقدم في سلّم الأولويات في الإعداد والمراحل المرتقبة. وحجر الزاوية في ذلك ترسيخ العقيدة وتعميق الإحساس بالأخوة النابعة منها، كيما تتوافر لعملية التغيير والبناء المنشود تلك الطاقة الفاعلة التي يشرق بها قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ والله يتولى الصالحين.



وضوح الرؤية... والطاقة الفاعلة في التوائم

البناة والهدامون

«٢»

لقاؤنا اليوم على أنموذج آخر في سورة التوبة يعطي مزيداً من الوضوح فيما أشرنا إليه سابقاً من علاقة بين البناء على العقيدة الصحيحة وتهذيب للنفوس، وبين ما يثمر من إقبال على الخير وإسهام في كل ما يعود على الأمة بالنفع ويصعد بها إلى مدارج التقدم والرقي.. ومن علاقة بين فراغ القلب من عقيدة التوحيد ودخَلٍ من داخل النفس، وبين التهالك في التحويم حول الذات والفرار من ساحات البذل والعطاء، بل والتخذيل عن العمل والجهاد.

ها نحن أولاء نقرأ في الآيتين الحادية والتسعين والثانية والتسعين من سورة التوبة قول الله جلّت قدرته: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

إنه ما دام صدق الإيمان متوافراً فلن يكون تخلُّفٌ عن الجهاد إلا بعذر، والحرج منتفٍ عَن هذا الدين؛ فليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على أولئك الذين يحرصون على الخروج إلى الجهاد ولكن لا يجدون وسيلة، ومن هؤلاء سبعة من الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فلم يجد ما يحملهم عليه فانصرفوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون في الجهاد! ليس على هؤلاء جميعاً إثم في تخلفهم عن القتال لأنهم ذوو أعذار، والله يعلم صدق رغبتهم وحرصهم على الخروج مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكن عليهم أن ينصحوا لله ورسوله بأن يشجعوا على القتال ولا يثبطوا عنه كما يفعل المنافقون.

أما الآخرون ـ والباعث مختلف ـ فيقول الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾[التوبة: ٩٣].

هكذا تقرر الآية أن الإثم في التخلف عن الجهاد واقع على هؤلاء المنافقين الذين يستأذنون وهم أغنياء قادرون على الخروج إلى ميدان الكرامة ولا عذر لهم في القعود، ولكنه التخلف النفسي والانتحال الكاذب؛ فقد رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، فكان جزاؤهم أن طبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون.

ولقد كان طبيعياً ـ وحكمة الله بالغة ـ أن يشتد التيار المؤمن الواعي في صفوف الجماعة المسلمة، ليبلغ درجته من الاندفاع والقوة، بحيث يتجاوز المعوقات التي يضعها المنافقون للقعود بالمسيرة الخيِّرة أو تحويلها عن أهدافها العظيمة في البناء المتكامل وإنشاء الواقع المعافى من رواسب الجاهلية وسلطان اليهود في الثقافة والاقتصاد.

ومما أعان على تحقيق ذلك ـ والله أعلم ـ المتابعة القرآنية لمواقف المنافقين، ورصد تحركاتهم حتى من النواحي النفسية التي تكشف عن البواعث الحقيقية وراء قعودهم عن اللحاق بركب المجاهدين، وإذلال أنفسهم بالكذب وانتحال الأعذار التي لا ظل لها من الحقيقة، فهم جاحدون قلقون، يثقلهم حب الأنا ومظاهرة الآخرين على رسالة الأمة ووجودها. ها نحن نقرأ في سورة التوبة بعد الآيتين السالفتين قول الله جل ذكره: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾[التوبة: ٩٤].

ذلكم أحد الدروس العظام في الكشف عما ينطوي عليه هؤلاء الأناسي الذين لا يَقْدُرون مسؤولية الكلمة قدرها ولا مسؤولية العمل ما يجب لها!! فكيف يؤتمنون على مسؤولية القرار في أمر من الأمور الجادَّة مهما كان شأنه؟؟ إنهم يعتذرون، ومن السهل عليهم أن يلقوا بالكلمات التي تنبىء عن الاستهتار بأمانة

العهد، وعدم الانضباط، ويفتضحون أمام الحقيقة حين تتولى الكلمة القرآنية إسقاط المزيّف: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)﴾[التوبة: ١٠٠].

ومهما يكن من أمر: فإن ساحة العمل وميادين الجهاد هي مناط الامتحان، ويوم القيامة ينكشف الغطاء أمام عالم الغيب والشهادة سبحانه وتعلن الحقيقة ـ حقيقتهم ـ إعلانها ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ويجيء التأكيد تلو التأكيد كيما تتعرى المواقف تمام التعرية، وتتضح ـ أكثر وأكثر ـ معالم الطريق للصف المسلم وهو يواجه متطلبات البناء وألوان المدّ الغازي من هنا وهناك.

ذلك بأن بناء الإنسان، وتنمية القوة العارمة التي تطرق أبواب الحياة في كل ميدان وعلى كل صعيد ضمن ظروف ليس أقلّها ما كان لليهود من سلطان ثقافي واقتصادي، ثم ما كان ينوء به المجتمع في جزيرة العرب وغيرها من رواسب الشرك والخرافة والتقليد الأعمى.. ذلك بأن هذا الأمر الجلل، لا بد أن يصحبه الوعي الذي يضبط تحركات الأعداء ودسائسهم، وطرائقهم في التعويق وإحداث الخبال في النفوس ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾[التوبة: ٩٥-٩٦].

ألا إن هذه البداية العميقة في الكشف عن مواقع المنافقين ورصد مكرهم وما يبيتون، وإلقاء الضوء على بواعث تحركاتهم غير المسؤولة من أنانية وزعزعة في العقيدة وصلف بارد في النفوس، كل أولئك أمانة في أعناق المؤتمنين على تحقيق البنية الإسلامية وتنمية طاقات الأمة في مواجهة تحديات العصر، القادرين على أن تكون بداية اليوم ذات نسب أصيل إلى بداية الأمس، كما رسمتها معالم القرآن دونما غفلة عن أن اليهود ومنافقي العصر يمتلكون من الوسائل ما لم يكن يمتلكه أسلافهم من طغاة الأمس. والعاقل من درس ونظر وتفكّر واعتَبَر!!.

سلوك المنافقين.. الهدام ودروس في المواجهة

مع ضياء الهداية في الكتاب العزيز وما تحمل آياته من رحمة وشفاء، كانت لنا بالأمس القريب دقائق في رحاب سورة التوبة وآيات كريمات كان منها قول الله تبارك وتعالى في شأن المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٧-٦٨].

وقوله جلّ وعز في شأن المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

ولقد شدَّنا إلى هذه الآيات ما كان من الحديث عن المهمة العظيمة التي ائتمن الرعيل الأول عليها، وهي صحة البناء وتحويل المجتمع وفق ما تقتضيه الرسالة المحمدية.. إذ إن من مستلزمات الحرص على أن يظلَّ البناء ـ وهو يتناول كل الميادين ـ قوياً يحمل قابلية النماء والعطاء: التنبهُ إلى ما قد يطرأ على النفوس من الفتور وحب العافية، ثم ما قد يعترض العاملين من أذى المناوئين لدعوة الخير، وأخذُ الحذَر مما يَقوم به أناس أفئدتهم هواء، ونفوسهم خَرِبَةٌ، لا يعرفون إلا التطواف حول ذواتهم، ولا يفتؤون يظاهرون أعداء الأمة عليها، وهؤلاء الأناسي هم المنافقون ومرضى القلوب الذين استفاضت آيات الكتاب الكريم في بيان حالهم وما ينطوون عليه، والكشف عن كثير من سيِّئ فعالهم.

ولقد طرحت سورة التوبة التي هتكت أستارهم فيما طرحت من أعمالهم

وسلوكهم المناوئ للحق الأبلج وأهله وضوح التمايز بينهم وبين المؤمنين، فهم يمارسون الحياة بخلال منحرفة ظالمة، ويتحركون بخبث وباطنية دائبين على ستر كفرهم وعدائهم بالأيمان، وقلب الحقائق، وإيهام السامع أنهم على غير ما يبدو، كما يعملون جاهدين على تحويل مسيرة الخير، واستبدال الهدم، الشيطاني بالبناء الرباني، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وقد حفلت الآيات بألوان من خلالهم ومظاهر سلوكهم، وقدمت ذلك بوضوح لا يحتمل اللَّبْسَ، كيما يكون المؤمنون على بنية من أمرهم حين يُعدّون الفرد القادر على الإسهام في عملية التمكين لراية الحق، وهي العملية البانية التي ليس لها على صعيد أمة الإسلام إلا الأكفاء المخلصون.

وقل مثل ذلك حين يعملون على الاعتبار بالماضي مستنطقين وقائع التاريخ، ولا يتقاعسون عن وضع المناهج السليمة التي تضمن ـ بعون الله إذا أحسن تطبيقها ـ استمرار التمكين معافى منفياً عنه الأذى، تنمو من خلاله ـ وقد شمل كل جوانب الحياة ـ قدرة الأمة على أداء رسالتها الحضارية، ومواجهة التحديات المعاصرة في كل زمان، علماً بأن الإساءة من الداخل قد تكون أشد خطراً من الخارج، لما تقوم به من فتح منافذ الشر لأعداء الأمة المتربصين.. والمنافقون بقلوبهم المنكوسة ـ والعياذ بالله ـ ينطلقون من الكفر الذي يبطنونه مع التظاهر بغيره؛ فيأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.. وأيُّ تخريب يَتعرض له المجتمع وتبتلى به الأمة.. لو تحقق للمنافقين ما يريدون ـ كهذا اللون من التصرف خصوصاً إذا تناولنا كلاً من المنكر والمعروف بمدلوله الشامل الذي لا ينحصر في بعض القضايا المحدودة، ولكن يشمل الجزئيات والكليات في شتى الميادين؛ إذ كل ما رضيه الشرع ـ ومن ورائه العقل ـ ودعا إليه: فهو معروف، وكل ما أنكره: فهو منكر. إنه لخطب جلل أن يؤمر بالهدم والخراب، ويُنهى عن الإعداد الصالح والبناء، وأن يثاب المسيء لأنه أساء، ويعاقب المحسن لأنه أحسن!!

وذلك ما يظهر بعض وجوه الحكمة من أمر النبي ﷺ في القرآن أن يجاهدهم

بالسلاح المناسب ويغلظ عليهم، وقُرن ذلك بمجاهدة الكفار، والتنبيه على عاقبتهم الخاسرة في الآخرة ذلكم قوله تعالى في الآية الثالثة والسبعين من سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[التوبة: ٧٣].

ومهما يكن من أمر: فليس في صنيع المنافقين ما يدعو إلى العجب؛ فهم يعيشون عزلة نفسية مقيتة، لما أنهم يظهرون غير ما يبطنون، ومنحسرون عن الإسهام في البذل في سبيل الله، وما يقتضيه تكافل المجتمع، حيث الأغراض الكثيرة التي يؤديها المال والاقتصاد عموماً في تماسك البنية الاجتماعية والاقتصادية، وفي إعداد القوة التي أمر الله بها بقوله جل وعلا: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وانظر إلى هذا الإيجاز العظيم في قوله سبحانه: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾[التوبة: ٦٧] إذ جاء التعبير بهاتين الكلمتين فقط بعد الواو عن مجمل سلوكهم شحاً وانحساراً عن المشاركة الإيمانية في الخير، مع الإيحاء إلى الباعث النفسي في ذلك، حيث تلمح الحركة النفسية وراء قبض اليد!!

وما من ريب في أن ذلك كله يعود عليهم ـ كما نصت الآية ـ بالمساءة وسوء العقبى في الدنيا والآخرة. فأين مَنْ دَيْدَنُهُ محاولةُ التعويق ـ بل التعويق عن الخير ـ والإساءة إلى المجتمع والأمة ـ مع نصاعة الحق بين يديه ـ ممن يسعده الله بأن يكون همُّه كبح الأنا والتعاون المجدي على الخير وبذل المال والنفس في سبيل الله، مع وضوح في الحركة، ووضع ما يعطيه الله من إمكانات ومؤهلات على طريق البناء الذي ينمي قدرة الفرد والجماعة، ويسهم في تحقيق الوجود الذاتي للأمة والتمكين لكلمة الله في الأرض. ولذلك جاء الأمر بجهاد المنافقين والكفار، وكان من عقاب المنافقين أيضاً ـ وقد نسوا الله وخرجوا عن طريق الحق ـ أن نسيهم الله وهذا عنوان تحريض لأشد العقوبة: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

إن هداية المعلم القرآني من خلال الكشف عن طابع السلوك الهدام عندما

يضمرون العداء لأمتهم، ويخالفون عن عقيدتها وأهدافها في الحياة، واضحة في ضرورة العمل على تجنيب المجتمع والأمة عوامل التخريب من الداخل، والوقوف لكل بادرة سوء بالمرصاد، ومعالجتها بالأسلوب المناسب... ومما يبين على ذلك: سلامة الإعداد بإعطاء الأولوية لغرس العقيدة الصحيحة، ثم التوعية التي تكشف عن الارتباط العضوي بين العقيدة وما تقتضيه من السلوك.. ناهيك عن التعريف بالواقع ـ كما هو ـ والنظرات الشمولية في البناء المتكامل غايةً ووسيلةً ـ كما يريد الإسلام ـ وضميمة على غاية الأهمية، وهي تنمية إحساس الفرد بأن وجوده الحقيقي مرتبط بسلامة كيان أمته المسلمة ولله عاقبة الأمور.



شفاء القرآن.. وجيل البناء

استلهام القرآن الكريم ـ فيما تعطي نصوصه من هداية وما تضيء معالمُه من مسالك ـ يقتضي أن يواجه بتجرد لا تشوبه قناعات سابقة مغايرة، مستمسكٌ بها صاحبها لأنها استحكمت بعناد، ذلك بأن المواجهةَ بتجرد ورغبةٍ في الوصول إلى الحقيقة، وتفتُّحَ القلب والعقل لقبول الهداية!! كل أولئك سبيل الانتفاع بالقرآن والاستنارة بمعالمه وعدم التحكُّم بمدلولاته وفق رغبات كامنة، أو قناعات سابقة، يراد شدُّ النصوص إليها وإخضاعُها لها؛ وذلك بالتغاضي عن سبب النزول مثلاً والمدلول اللغوي أو الاصطلاحي، أو المسلَّمات في أولويات التفسير عند أهل التأويل وما إلى ذلك، أو بالتأويل الذي قد يكون بعيداً، وقد يكون غير مقبول ألبتة!! ولقد كشف الكتاب العزيز نفسُه عن حقيقة مُذهلة في هذا الباب؛ من الواجب تنميةُ الإحساس بها عند الجيل الذي يراد له أن يُحسن صلته بالقرآن، كيما يضربَ في ميادين الحياة على هدى، ويعمر الأرض، ويبني الحضارة في ضوء منهج الله الذي لا يضل السالك في رحابه، ولا يضام المستمسك به.

تلك الحقيقة: هي أن من القرآن ما يكون شفاءً ورحمة للمؤمنين، وفي الوقت نفسه لا يزيد الظالمين إلا خساراً؛ ذلك بأن المؤمنين تقبلوه مفتحةً عقولهم وقلوبهم للهداية، وأولئك واجهوه بقلوبٍ مغلقة، وعقول مثقلة بأفكار منحازة سابقة ـ لا تريد أن تتزحزح عنها ـ وعنادٍ مستحكم في النفوس. فكانت خسارتهم بالكفر، وزادت بالعناد وعدم الخضوع إلى ما قدّم القرآن من هداية ـ معها ساطع برهانها ـ؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى في سورة «الإسراء»: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[الإسراء: ٨٢] أرأيت: هنا﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهنا:﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فالمؤمنون بإيمانهم، وانصياعهم للحق، يشفيهم الله ويرحمهم بالقرآن والظالمون بظلمهم وعنادهم لا يزدادون بالقرآن، الذي هو نور وهداية إلا خساراً.

ونقرأ في سورة «فصلت» قول الله جل شأنه: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾[فصلت: ٤٤].

ونفياً لأي توهم قد يدخل على بعض الناس في شأن الهداية والاهتداء، أو لبس مسألة بأخرى في شأن الهداية والضلال والإضلال: يجب أن نستذكر أن العلة تكمن دائماً في الانغلاق وسوء الاستقبال. أما القرآن: فهو كتاب هداية وشفاء، وهو يخاطب في الإنسان فطرته وقلبه وعقله. والإنسانُ السويُّ يقابل الكلمة الهادية بتجرد ورغبة في مخالطة الحق، دونما رواسب تعوق ذلك، أما من أُحكمت الغشاوة على قلبه: فله شأن آخر. وفي كل يوم يصل الإنسان المنصف إلى مزيد من اليقين بأحقية ما جاء به هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه كلام الخالق العليم الحكيم.

فمع الآيات المكية التي رأيناها في سورتي «الإسراء» و«فصلت» نقرأ في سورة يونس وهي إحدى السور المكية أيضاً ـ قول الله جلت حكمته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[يونس: ٥٧-٥٨].

وننتقل إلى العهد المدني لنرى في المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ صورة عملية للإعراض المعتمد عن الهداية، وإقامة الحواجز دونها ودون أن تصل إلى القلوب والعقول، وبذلك كانوا لا يزدادون بالقرآن إلا ضلالاً ورجساً والعياذ بالله. وعلى العكس من ذلك حالُ المؤمنون الذين كان إيمانهم يزداد بكل آية تتنزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام. ذلكم قول الله تعالى في أواخر سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[التوبة: ٨].

هكذا كان من شقائهم أن ما يهدي القلوب وينير العقول، يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، والعلة كامنة في نفوسهم وإصرارهم على أن تكون على قلوبهم وعقولهم أقفالها، إنهم هائمون بالشَّقاء، معرضون عن الشِّفاء.

ألا إن من حق الجيل المؤتمن على البناء أن يكون العمل على إحسان صلته بمعالم الكتاب العزيز، دائماً لا ينقطعُ وأن تُعَبَّد أمامه ـ مع تزويده بالعلم ـ سبل الهداية بالتربية الحكيمة والإعداد الروحي السليم، كيما يكون وهو يخوض غمار الحياة، ويمارسُ شؤونَ البناء الذاتي في الأمة، والإسهامَ في وضع طاقاتها موضعها المنتج المثمر... كيما يكون في ذلك كله على بينة من أمره لا يبتعد عن منهج الكتاب الذي أنزله الله هداية وشفاء ورحمة، ولا يفارق ـ وهو يتزود من العلم ويمارس عملية التغيير ـ الطريق المأمونة التي بدأها سلفنا الصالح يوم بنوا في ضوء رسالة الإسلام حضارة الإنسان على وجهها الأكمل والحمد لله أولاً وآخراً.



جيل البناء.. وتنمية الإدراك في ضوء التربية القرآنية

سأعود إلى توكيد أن مواجهة الكتاب العزيز للانتفاع بآيه، والاستنارة بمعالم هداه لا بد أن تكون مصحوبةً بالرغبة الصادقة في الوصول إلى الحقيقة، وبالتجرد عن قناعات سابقة بأمور يعوزها الدليل يُصر عليها صاحبها بعناد، ويريد من نصوص القرآن الكريم أن تنقاد إليها وتطوَّع لتأييدها.

وأراني مسوقاً إلى القول بأن ذلك حقيقةٌ شديدة اللصوق بالواقع، والحاجةُ إلى تنمية إدراكها عند الجيل المرشّح لحمل العبء ـ ضمن ظروف ليس أقلَّها الغزو الفكري ـ ضرورةٌ يجب التنبه لها لتأخذ حظها من العناية عند التربية والتعليم والإعلام، كيما تظل المسيرة ـ وهي تنتفع بمنجزات العلم التجريبي والتقني ـ موصولة الأسباب بمنابع الهدى في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

ولقد كانت معركة التغيير التي يحمل تبعاتها المسلمون وينهضون بأعبائها بدءاً من العهد المكي، تأخذ أبعادها وميادينها هنا وهناك، والآيات تنزل موضحة أن القرآن نورٌ وهدايةٌ ورحمةٌ وشفاء. والذين يظلُّون في الصف المعادي، يلوكون الباطل، ويجترُّون رواسب الجاهلية: هم هم الجُناة على أنفسهم بإعراضهم العمد عن الهدى، وإقامة الحواجز دون قلوبهم وعقولهم، ودون ما يدعوهم إليه القرآن من حقائق تتسق مع الفطرة، ويتقبلها العقل السليم ويجد فيها المنصف ينبوع الخير وسلسبيل الحياة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[الإسراء: ٨٢] وقد سعدنا من قريب بصحبة هذه الآية وآيات أخر، تزيد وضوح الرؤية وتنير السبيل، وتؤكد ضرورة التربية القرآنية في ضوء المفهومات الصحيحة للقرآن.

والحق: أن واقع المسلمين اليوم فيما يُرى من بعضهم من إعراض متعمَّد عن الهداية تحت ستار من الدعاوى التي لا يقوم عليها شبه دليلٍ فضلاً عن الدليل؛ لأنها مسوِّغات مصطنعة للانحراف، وهرطقات المدّعين المشعوذين.. هذا الواقع يشدنا إلى مزيد من التبصّر والعمل بمنهجية للأخذ بيد الأجيال إلى حيث الصلةُ بهداية الكتاب العزيز، وانشراح الصدور لسلطانها على المعرفة والسلوك والحيلولةُ دون أن يقع هذا الإعراض لأن الخسارة من ورائه كبيرة في الدنيا والآخرة.

هذا مع التسليم بأن خالق الهداية هو الله تعالى، ولكن ذلك لا يعفي من وجوب التبليغ والأخذ بالأسباب، وذلك من سنن الله في الحياة حيث ربط المسبّبات بالأسباب.

ولقد كانت الآيات المكية واضحة في تحميل المشركين تبعة تماريهم في الضلالة،وأن ذلك قد كان بإعراضهم الصارخ عن الهدى خضوعاً للهوى، وما يمليه التقليد الأعمى للآباء والأجدادِ في إهمال واضح للعقل، والنظرِ الموصل إلى الحقيقة. يقول الله تعالى في سورة ص: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾[ص: ٦٧-٦٨] أي أنتم معرضون عن القرآن الذي انبأتكم به، وجئتكم فيه بما لا يُعْلَمُ إلا بوحي من الله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾[ص: ٦٩-٧٠].

وفي سورة المدثر ـ وهي من أوائل السور المكية ـ نقرأ تنديداً واضحاً بصنيع المشركين؛ إعراضاً عن الحق وتعطيلاً للعقول أن تعمل عملها في وزن الأمور؛ ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾[المدثر: ٤٩-٥١].

سبحان الله! ما هذا الذعر الذي يصحبه إهمال العقل، وكلِ وسيلة من وسائل المعرفة، حتى كأن هؤلاء المشركين حمرُ مستنفرة وحشية فرت من هذا الحيوان المفترس أشد الهرب.

الأدهى من ذلك: أنهم يزعمون بأن تحولهم إلى طريق الإسلام يتوقف على أن يُنزلَ اللّه على كل امرىء منهم صحفاً منشَّرة من اللّه باتباع النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾[المدثر: ٥٢] كما قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾[الإسراء: ٩٣].

وفي رحلة قطعنا خلالها المسافة إلى العهد المدني: رأينا ما جاء من التنديد في أواخر سورة التوبة ـ سورة براءة ـ بصنيع المنافقين على هذه الساحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وتتضح الصورة أكثر وأكثر حين نتابع تلكم الآيات، حيث يُكشَفُ النقاب عن أن زيادة الرجس والضلال: إنما كانت بإعراضهم المتمرد على الحق وعدم تذكُّرهم.. ولكن ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر:٩] ذلكم قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[التوبة: ١٢٦-١٢٧].

وصدق اللّه العظيم فيما قال سبحانه عن اليهود: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[الصف: ٥].

أعود مرة أخرى لأشير إلى ما ينبغي عمله من التربية القرآنية وتنمية الإدراك بهذه الحقائق عند أجيالنا.. والأخذ بأيدي من يُراد لهم أن يحملوا أمانة البناء إلى حيثُ ينتفعون بهداية القرآن، ويوظِّفون علمهم وسلوكهم على طريق ما يناط بهم من مهمات التغيير والإنجاز، طاعة للّه العليِّ الكبير.



وضوح الرؤية... ومقومات السلوك
البنية الثقافية.. ودرس القرآن

في معرض الحديث عن التباشير المبكرة للتحضير للمجتمع المسلم ـ بنائه ومقومات وجوده، في خطوط عامة نيرة، والإشارةِ إلى الملامح العامة في خصائصه التي تميزه عن المجتمع الجاهلي والقواعد التي ينبغي أن يقوم عليها: قادتنا معالم الكتاب الكريم ـ فيما خلا من القول ـ إلى ألوانٍ من الهداية في هذا المضمار، وكان منها ما رأينا في سورة «القصص» من مجموعة الصفات التي وُصِفَ بها أولئك النفر الذين كانوا من أهل الكتاب وتحولوا إلى الإسلام. وقد أخذت هذه الصفات طابع التكامل؛ فمع الإيمان، الصبرُ ودرءُ السيئة بالحسنة، والإنفاقُ مما رزقهم الله، وإعراضُهم عن اللغو وما إليه؛ وذلك مؤذن حقاً بما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم من الاستيفاء في بنية أفراده وبُناه المتنوعة ـ هو ـ بحيث تشيع الحياة في كل ميدان من ميادينه الاجتماعية والاقتصادية، والفكرية... وغيرها على وجه تكون سلامة بناء الفرد فيه: مؤذنة بسلامة بناء المجتمع، تكاملاً، وعناية بسلَّم الأولويات.

كما أن طرح هذه الصفات بين يدي الجماعة المسلمة في العهد المكي، قرآناً يتلى، وللتالي بكل حرفٍ منه عشر حسنات، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف مؤذن أيضاً بأن هذه الصفات وأمثالَها: مما ينبغي أن يطبع سلوكَ المسلم ـ وهو يستجيبُ لدعوة الحياة ويستشعرُ مسؤوليته في إنشاء الواقع الذي تمليه رسالة الإسلام، بعيداً عن أوضار الجاهلية، وما تحمل من عوامل الهدم للفرد والجماعة، من حيث يدري من بيدهم قياد المجتمع أو لا يدرون!!

هذا: وإن اهتمام القرآن بإبراز هذا النهج السلوكي عند هذا الفريق من الناس الذين تحوَّلوا إلى الإسلام، ويؤتَوْنَ أجرهم مرتين.. يقتضينا الإلمام ـ ولو بإيجاز ـ بحقيقة من هم، وما تُلهم أسباب النزول في شأنهم، كيما ندور مع الآيات حيث تدور؛ فلا نسيءَ الفهم، أو نجنحَ إلى ما لا يقبل من التأويل!

غنيٌّ عن البيان، أن بين الآيات التي حملت الصفاتِ المشارَ إليها، والمبدوءةَ بقوله تعالى في سورة القصص بدءاً من الآية الثانية والخمسين: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[القصص: ٥٢]، وبين عدد من الآيات المبدوءة بالآية الثانية والثمانين من سورة المائدة ـ وهي من أواخر السور المدنية نزولاً ـ نوعاً من صلة القربى؛ لأن مجموع الروايات يدل على أن آيات سورة القصص وآيات سورة المائدة، كلٌّ منها نزلت في فئة من النصارى، انشرحت صدورهم لدين الإسلام، فأسلموا وقد جاءوا من الحبشة أو غيرها وهم عدد من القسيسين والرهبان، كانوا جادّين فيما صنعوا، وحسُن إسلامهم وسمّاهم القرآن نصارى ليُعلم ـ والله أعلم ـ أنهم كانوا نصارى ودخلوا في دين الله.

وآيات سورة المائدة: هي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾[المائدة: ٨٢-٨٥].

وقد اختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها. جنح إلى هذا الاختيار بعد أن روى بسنده عدداً من الآراء عن أهل التأويل في سبب النزول.

ألا وإن الحرص على سلامة البنية الثقافية عند الجيل، كيما تسلم له المنطلقات في التصور، وفي الحركة والتطبيق: توجب أن نكون على الجادة ـ التي رسمها العلماء المؤتمنون ـ في فهم كتاب الله من خلال مقومات الفهم المطلوبة وأن لا نتكلف حمل الآيات على نهج معيّن في الفهم، لتكون طَوْعَ قناعة سابقة ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ.

فهؤلاء المذكورون في الآيات التي نرى، واضح أنهم كانوا نصارى، ودخلوا في الإسلام ـ كما ذكرت آنفاً ـ وحسبك أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى رسولنا عليه الصلاة والسلام من آيات القرآن، ترى أعينهم تفيض من الدمع.. تفيض من الدمع مماذا؟ يقول الله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾..[المائدة: ٨٣] وأكثر من هذا: إنهم يضرعون إلى الله تعالى قائلين: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] وإنه لقول صريح في إعلان إيمانهم بهذا الدين ينفي كلَّ احتمال أو لبس. يؤكد ذلك غاية التأكيد قولهم بعد هذا: ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾[المائدة: ٨٤].

ترى هل هنالك شيء من ذلك كله يصلح أن يكون أثارةً من علم تدل على أن القوم ما يزالون على نصرانيتهم؟! أقول هذا، لأن نوعاً من التحايل في فهم الآيات، يجري على بعض الألسنة!! وتجري به بعض الأقلام سواداً على بياض!! بعيداً عن الإحساس بمسؤولية الكلمة، ونسياناً لقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[يس: ٦٥].

ومهما أحسن المسلم الظن: أفمن أجل ذم اليهود والمشركين ـ على الجميع لعنات الله ـ يقع هؤلاء المتأولون ـ الغاضُّون الطرف عن كل ما ورد في أسباب النزول، وما هو صريح الآيات المنزلة بلسان عربي مبين ـ يقعون في تقويل الكلمات الهاديات ما لم تقل، وتحميلها ما لم تحمل ـ أو ما لا تحمل ـ كيما يُشعروا القارىء والسامع أن هؤلاء الفئام من الناس مثنيٌّ عليهم لأنهم نصارى، والواقع أنهم مسلمون خاشعون، رقّت قلوبهم، وهفت إلى النجاة ودخول الجنة في

الآخرة نفوسهم؛ كل أولئك مما تنطق به الآيات بعبارة النص القاطعة: الأمر الذي يؤكد أنهم سُمُّوا نصارى باعتبار ما كان، وليُعلم ـ كما أسلفت ـ أنهم كانوا كذلك وشرح الله صدرهم للإسلام فكانوا من أهله على خير وجه والحمد لله.

والذي أرمي إليه من وراء هذا ـ والحديث يُدار عن سلامة البناء ـ أن الأمانة كلَّ الأمانة في أن نُعين الجيل على ما به يكون وضوح الرؤية، والمنهجية السليمة في الفهم وفقه الوقائع والنصوص؛ وهذا ما يجب سلوكه ونحن نبني ثقافته، ونعمل على أن ننمي فيه الملكة القادرة على الفهم الصحيح بوعي، والإفادة من وسائل الإدراك لحقائق الإسلام من منابعها الأصيلة دون تحريف أو سوء تأويل.

أما أن يكون النص القرآني ـ أو الحديث النبوي ـ بجانب: والفهم ـ نتيجة التكلف والتمحُّل لحاجة في نفس هذا المتمحِّل ـ بجانب آخر مجافٍ له؛ فهذا عدا كونه عدواناً على الحقيقة أو يكاد يكون هو، قد يكون واحداً من أسباب الحيرة عند الجيل في تصوُّر قضية من القضايا تطرحها النصوص؛ ولذلك ما له من سيء الأثر على صعيدي الفهم والالتزام، وقد يغري بالبعد عن الساحة طلباً للعافية، أو التفلُّت من الالتزام ومقتضياته، خضوعاً لتسويلات نفسية أو شيطانية كانت ذريعة النجاة من تلك الحيرة.

ومهما يكن من أمر: فإن المهمات الجسام التي تنتظر المسلم تقتضي مزيداً من وضوح الرؤية الذي يولِّد القناعة وينمي الحوافز الخيِّرة، وذلك من أبجديات ما ينبغي لعملية البناء الكبرى والله المستعان.



الثبات على الحق.. والتوجه الأخروي

الاحتياط.. للبناء الثقافي

الاحتياط للبناء الثقافي، تجنيباً للجيل مزلّات الانحراف في الفهم، ومزالق التناقض في السلوك، وإبعاداً له عن عدم الوضوح في الرؤية؛ لكيلا تختلط القضايا ـ مع مختلف تعريفاتها ـ ويلتبس الحق بالباطل والخطأ بالصواب.. هذا الاحتياط: من الأمور التي يجب أن تؤخذ مأخذ الجدّ والحزم عند كل بادرة من بوادر التخطيط والتهيج، فضلاً عن العطاء المباشر على ساحات التربية والتعليم، والإعلام والإعداد، خصوصاً إذا جرينا على أن الثقافة ليست معرفة فحسب ـ وهذا هو الأصوب ـ ولكنها ـ مع المعرفة ـ تصوُّر وممارسة، وسلوك وتطبيق: فالمعرفة ـ مع أهميتها ـ جزءٌ وليست كلاً في هذا الباب.

وحين تصحبنا سلامة التصور للأهداف التي نقصد من وراء التثقيف، والعزيمة الصادقة للعمل على تحقيقها، نضمن ـ بعون الله ـ أن يكون الفرد في عقيدته، ومعرفته، وسلوكه؛ طاقة تأخذ حجمها الفاعل المؤثر في ميادين البناء، بحيث تتجمَّع الطاقات، وتنصبُّ في قنواتها الطبيعية، وتثمر ما تثمر من منجزات في ميادين العلم والاجتماع والاقتصاد، وكل ما فيه سلامة بنى المجتمع، والعون في إعداد القوة المستطاعة كما أمر الله، وبيّن الرسول عليه الصلاة والسلام، ما توحي به آيات سورتي القصص والمائدة.

حملني على هذا القول ـ وكلمات الله لا تنفد ـ ما توحي به آيات سورتي القصص والمائدة ـ التي أسعدتنا نظرة عجلى في آفاقها من قبل ـ ما توحي به في شأن أولئك القوم الذين كانوا من أهل الكتاب ـ وفيهم قسيسون ورهبان، ثم دخلوا حظيرة الإسلام على نور من ربهم، وجمعوا إلى الإيمان الصادق، سلوكاً يتسم بنوع من التكامل له انعكاساته الطيبة النافعة على المجتمع، وسلامة بنيته، وتسييره في طريق القدرة على الحركة وجميل العطاء.

ولقد علمتنا تلكم الآيات ـ وهذا ما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في عملية التوعية والتثقيف ـ كيف تعرض الحقائق بنصاعة ووضوح، وكيف أن الإنصاف بدا سمةً مميزةً عند عرض هذه الحقائق، بصرف النظر عن الأشخاص والملابسات.

ففي سورة القصص ـ وهي من مكي القرآن ـ تطالعنا الآيات ـ كما سلف ـ بخبر هؤلاء الذين كانوا على دين النصرانية، ثم آمنوا صادقين بالإسلام، وإعلانهم الذي أعلنوه عن إيمانهم بالقرآن.. كما تطالعنا بذكر الأخلاق التي كانت من خصائص سلوكهم، واقترن ذلك بالإخبار عن إكرام الله لهم، بأن يؤتيهم أجرهم مرتين؛ لأن دخولهم في الإسلام بصدق، دلَّ على صدقهم في النصرانية التي كانوا عليها؛ إذ لما جاء القرآن بالرسالة الخاتمة ونسخ الإسلام ما قبله، آمنوا بهذا القرآن دون أن يجدوا في أنفسهم شيئاً من الحرج: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾[الأنعام: ١٢٥] وآيات سورة القصص هي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[القصص: ٥٢-٥٥].

كل هذا ـ إضافة إلى ما سبق ـ يدل على أن الله الرحيم الرحمن، لا يرضى لعباده الكفر، ويرضيه كل الرضى أن يؤمنوا ويتقوا، ويكونوا يوم القيامة ممن يزحزحون عن النار، ويدخلون الجنة التي أعدّها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات، والجنة خير مستقرّاً وأحسن مقيلاً.

وإذا كان الله جل شأنه لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، فقد ذكر هؤلاء الناس من عباده بالثناء على صنيعهم الإيماني وسلوكهم الذي كان انعكاساً لمخالطة بشاشة الإيمان قلوبَهم، وأخبر بأنه يؤتيهم أجرهم مرتين ـ كما أشرت إلى علة ذلك آنفاً ـ والرسول ﷺ يقول في ذلك كما ثبت في الحديث الصحيح الذي أخرجه أحمد ومسلم والدارمي وغيرهم من رواية أبي موسى الأشعري:

«ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها..» الحديث.

وبعد: فإن البناء الثقافي الذي يراد لصروحه أن ترتفع حضارةً مثلى وموقعاً قيادياً في العالمين، تهدينا معالم القرآن أنه لا بد أن يجمع فيه بين الكم والكيف؛ والأفق المضيء الذي تشرق فيه الآيات كما نراها في سورة القصص: دليل واضح على المنهج الذي يُراد للجماعة المسلمة أن تسلكه في ميادين العلم والعمل والسلوك؛ وهذا ما يجعل بين الجيل الذي يزوَّد بالثقافة، وبين المهمّات التي تنتظره، نوعاً من التواؤم والتوافق لا بد منهما، كيما تأخذ الطاقات الفاعلة طريقها الطبيعي إلى الفاعلية والتأثير.

ومن ذا الذي ينكر أن البنية الثقافية للمجتمع، ذات أثر فعّال في تصوّرات أبنائه، ومقدار ارتباطهم بعقيدتهم وتاريخهم، والشكل الذي يصاغ فيه انتماؤهم لأمتهم بما لها من خصائص ومكرمات في الدنيا ويوم الدين.

إن تكامل المنهج القرآني في البناء، يقفنا على الأهمية البالغة، لتزويد الفرد والجماعة، بالطيب النافع من الثقافة الأصيلة ـ التي لا يضير معها فتح النوافذ على ثقافة الآخرين ـ أجل.. الطيب النافع من ثقافتنا، علماً يؤخذ من مصادره الحقّة، وخلقاً يمثّل انعكاس العقيدة على السلوك وترجمة المعرفة إلى حركة منضطبة بضوابط تلك المعرفة، واعتزازاً بتلك العقيدة، ومن ورائها مقومات الأمة وخصائصها، وما يعنيه ذلك على ساحة الانتماء؛ كل هذا: إلى صدق يعين على وضوح الرؤية، وينأى بالمجتمع عن التباس الحق بالباطل، والخطأ بالصواب.

وما من ريب في أن سلامة العطاء على هذا النحو، تجعل من تحقيق الوجود الذاتي للأمة هدفاً بالغ الأهمية، لا عذر لمعتذر في التخلف عن السعي الإيماني لتحقيقه بمنهجية سليمة، وإدراك لطبيعة الواقع الذي تعيشه الأمة أو يحيط بها من هنا وهناك.

والأمر قبل ذلك وبعده لله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وهو المحمود على كل حال.

البنية الثقافية.. ومنهج الهداية في القرآن

«١»

من الخصائص البارزة في المنهج القرآني على ساحة الهداية: أنه يقدّم القضية في إطارها المناسب، للتزود بالمعرفة، ولا يدع ـ حين يقيم الدليل ـ أن يجعل لكل من القلب والعقل والنفس منطلقاً يلتقي ما فطر اللّه عليه الإنسان وأهَّله، ويأخذ مكانه الطبيعي في الخطاب والإقناع، بحيث لا يُبقي عذراً لمعتذر، ولا تعلَّة لكسول؛ ومن أراد مقنَعاً وجده عند الإنصاف. والماضي والحاضرُ والمستقبلُ في ذلك كلِه بحُسْبان.

ولا تسل ـ فيما وراء ذلك ـ عن الأسلوب الفذ الذي تُعرض من خلاله تلك الحقيقة!! الأمر الذي يضفي على الموضوع المطروق، سمواً، لا يرقى إلى مثله البشر، وتلك سمة من سمات الإعجاز ويزيدك ـ بجانب المعرفة ـ ما ينمي ملكة البحث والقدرةِ على المقايسةِ والاستنتاج، ثم وزنِ الأمور بالمعايير الصحيحة، والسلوكِ دائماً بمسلك العبرة في الإفادة من وقائع الماضي، والوقوف بوعي على مدى الارتباط بين هذا الماضي وبين الحاضر؛ توافقاً أو تخالفاً، وما يجب أن يرسم للمستقبل، بعد الاستعانة باللّه.

هذه كلمات ذات نسب إلى ما سبق من الإشارة إلى ما يجب للبنية الثقافية عند المسلم ـ كيما تكون سليمة قابلة للنماء ـ من ارتباط بطرائق الهداية في القرآن الكريم، والإفادة من خصائص المنهج في الكتاب المعجز، الذي هو كلام اللّه الخالق الحكيم.

وقد أردتها ـ إلماحة عجلى ـ بين يدي المتابعة لآيات من سورة السجدة، وقفنا مع المعلم القرآني على بعضٍ من عطائها من قريب هناك؛ حيث دلّنا المعلم القرآني على مدى الترابط بين العمل والجزاء، وعلى لونٍ من التكامل، فيما يجب

أن يكونَ عليه المؤمن من صفاتٍ تعكس تأثير العقيدة، وترتفع بصاحبها إلى مستوى الكفاية المطلوبة في رحلة البناء، التي لها ما لها من مقومات، وتحتاج إلى ما تحتاج إليه من كفايات، ورأينا ـ فيما رأينا حينذاك بعض نصوص السنة التي زادت من وضوح الرؤية في الموضوع؛ كان آخرَها ما أوصى به رسول الله ﷺ معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه فيما روى الترمذي والنسائي وابن ماجه حين طلب هو من الرسول ﷺ أن يدله على عمل يدخله الجنة ويباعده من النار، فكان التذكير بأركان الإسلام الخمسة والتركيز على الصوم والصدقة وصلاة الرجل في جوف الليل مستشهداً عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] حتى بلغ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ثم بيَّن ﷺ: **أن رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروةَ سَنامه الجهاد...**

ونتابع الكلمات النبوية الهادية لنرى رسولَ الله ﷺ يقول لمعاذ: **«ألا أخبرك بمِلاكِ ذلك كله؟»**.

يقول معاذ: قلت: بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه ثم قال: **كفَّ عليك هذا**.. ثم علّل أهميةَ كفِّ اللسان ـ بعد تساؤل معاذ ـ فقال: **وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم** ـ أو قال: **على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم؟!**

إنه البناء السليم المتوازن للإنسان، البناءُ الذي تولد مقوماته وتنمو على نورٍ من الله في ظل منهج القرآن في البناء، كيما يكون المسلم كِفاء المهمات، قادراً على الإنجاز المثمر ـ بإذن الله ـ يسلك الطريق التي يسهم معها في عمارة الأرض، غير ناسٍ أن الآخرة هي دار البقاء، وأن النجاة فيها والفوز برضوان الله مطمع أولي الألباب.

والآيات التي أشرت إليها في مستهلِّ هذه المتابعة للكلام على هذه القضية من سورة «السجدة»: هي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾[السجدة: ١٨-١٩-٢٠] الآيات. والفاسق هنا: الكافر الجاحد المعادي لمقتضى الفطرة.

هنا عرضٌ لحقيقة أن المسلم لا يستوي هو والصادُّ عن سبيل الله، وفي الوقت نفسه تنبيهٌ للذهن وتنمية لملكة المحاكمة وربطِ النتائج بالمقدمات.

فأين الكفر من الإيمان، وأين من يحمل عقيدة الفطرة، ويحكِّم عقله متفكراً متدبراً، ممن يجفو الفطرة، ويعطل عقله عن العمل، ويتمرّغ في حمأة التقليد الأعمى؟

ولذلك اختلفت عاقبة كل منهما عن الأخرى، باختلاف المنهج والعمل والسلوك، ناهيك عن العقيدة التي هي المفصل الأول في التفريق بين إنسان وإنسان. قال تعالى في سورة الجاثية استثارة للعقل كي يعمل ويستنتج ويحاكم: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[الجاثية: ٢١] وقال جل ثناؤه في سورة ص: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[ص: ٢٨].

هكذا تُقدَّم الحقيقة بدليلها الناصع، وتُنمَّى الملكاتُ والقدراتُ، فالآيات تزوِّد المسلمَ بالمعرفة من وجه، وتحفزُه إلى المقايسة والاهتمام بالاستنتاج وتبيُّن العلاقة بين النتائج والمقدمات: من وجه آخر...

من هنا كانت المصاحبة الواعية المتدبرة لمعالم الكتاب الهادية، نوراً وهدىً وشفاءً لما في الصدور.

البنية الثقافية.. والغزو الفكري
المنهج القرآني... وبناء الملكات
«٢»

النظرة المتدبرة في الآيات التي نعمنا بضيائها في صفحات سالفات: وهي قول الله تعالى في سورة «السجدة»: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ١٨-٢٠] وقولُه سبحانه في سورة «الجاثية»: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] وقولُه جلت حكمته في سورة «ص»: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

النظرة المتدبرة في هذه الآيات الكريمات وأمثالها، تشدُّ صاحبَها إلى الواقع شداً لا يستطيع الفكاك منه، ذلك بما يقع عليه المرء في كثير من بقاع العالم الإسلامي ـ والمسلمون يعانون ما يعانون ـ من نظرات شتَّى إلى هداية القرآن مشوبةٍ بغمزات الهوى، تظهر عليها بصمات الغزو الفكري المزخرف، أو الرغبة في العافية من الالتزام. وهذا الأمر بالغ الخطورة، على صعيد التصور، كما أنه بالغ الخطورة على صعيد المنهجية والتطبيق؛ لما أن ذلك المدَّ الطاغي بما يصحبه من زخرف القول والحالة بحقيقة الإسلام في كثير من الأحيان والناس أعداء ما جهلوا ـ يحول دون أصحاب هذه النظرات وأمثالهم، ودون الهداية والإفادة من الخير العميم في القرآن وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد يحمل ذلك نوعاً من الأذى للأمة في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى استنارة أبنائها ـ وهذا على التغليب ـ بالمنهج الرباني، سيما، وهي على عتبة يقظة يؤمل من ورائها استئناف المسيرة الخيّرة التي تلقى ما تلقى من عنت الأعداء على اختلاف مللّهم ونحلهم، وتوجُّهاتهم الظاهرة والباطنة، والمعتصم ـ بعون اللّه ـ توكيد الاستمساك بالهدي الرباني كما هو في منابعه الأصيلة والعزم الصادق على العمل.

ثم إن بوادر هذه اليقظة تلوح في الأفق، وقد ظهرت النظريات والمذاهب الأخرى على حقيقتها وأصبحت إدانتها من خلال الوقائع والتطبيق بعد التجربة، تربو على إدانتها في الحيِّز النظري وساحات الجدل والحوار.

ومن هنا تبرز ضرورة التبصُّر في أن تكون البنية الثقافية عند الجيل ـ كما أشرت غير مرة ـ سليمةً متوازنةً تصله بهداية الكتاب والسنة، وتدفع عنه غائلة التقليد الأعمى للآخرين، أولئك الذين يُذعَرون من الاتصال بحقائق الكتاب والسنة ومفهومات أئمة الهدى منهما، لأنها تضعهم أمام مسؤولياتهم، وجهاً لوجه، وتُعرِّي قعودهم وتباطؤهم، بل وعنادهم، علماً بأن وراء الأكمة دائماً ما وراءها.

وهذا الذي نقول، يعني مزيداً من العناية ببناء القاعدة الصلبة في المناخ الثقافي وإحكام الصلة الواعية بالمنهج الرباني، وفي الوقت نفسه: يعني أيَّ تهاون في تزويد الجيل بالمعرفة من أطرافها، والإفادة من العلم التجريبي والتقني وغير ذلك من كل ما يسهم في حفظ كيان الأمة ودفع الغوائل عنها؛ فهذا غير وارد في شأن أمة سبقت السابقين في مضمار تكريم العلم والعلماء، كما جاء ذلك في نصوص الكتاب والسنة وكشفت عنه مناهجنا في بناء الحضارة، ودلّ عليه الواقع العملي عبر تاريخنا الطويل، ثم ما خلّفه علماؤنا من آثار شاهدة على تكامل البنية الحضارية وإحلال العلم مكانه اللائق في ذلك البناء السابق العظيم؛ لذا كان الاتهام بذاك التهاون نوعاً من الافتراء الذي هو كما قالوا: شنشنة نعرفها من أخزم.

ثم إن قوله تعالى في سورة «الأنفال»: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال: ٦٠] يفيد وجوب إعداد هذه القوة للجهاد ومن عيون هذا الإعداد بعد الإيمان: العلم وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. هذا مع استذكار أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة، وأنه اللغة التي لا لغة غيرها تصلح لخطاب الأعداء المتكالبين على الأمة هناك وهنالك.

لقد آن لنا أن نتجاوز مرحلة التجزئة في فهم الإسلام وأن نأخذه كلاً متكاملاً كما أراد ربنا تبارك وتعالى؛ فالأمر جدٌّ لا هزل فيه، وتداعي الأمم على أمتنا واضح لا يقبل النكران.

ولقد طال انتظار هذه الأمة لجيل مؤهل يخالط هدايةَ القرآن مخالطةَ إيمان عميق وفهم دقيق، يدفعان إلى العمل والجهاد؛ إذن لانزاحت عن فكرها وأرضها ـ بإذن اللّه ـ غاشية الاعتداء الآثم والاستهتار المقيت، ولتحقق لها من وراء ذلك ـ بإذن اللّه ـ وجود ذاتي تكون فيه صاحبة الكلمة الذاتية القادرة على اختيار ما تريد، وحظُّ الإنسانية من ذلك كثير وفير والخير قادم بإذن اللّه وهو حسبنا ونعم الوكيل.



المنهج القرآني.. والبنية الثقافية
أنموذج آخر
«٣»

هذه كلمات متّصلةٌ بما العهدُ به قريب من الإشارة إلى أن من خصائص المنهج القرآني ـ وهو يهدي للتي هي أقوم ـ: أنه يُقدِّم الحقيقة بدليلها، ويفسح لها من طريق العقل والقلب والفطرة، بجانب التحضير لقبولها ـ إن لزم الأمر ـ بالتوجيه إلى العبرة من وقائع الماضي والحاضر وكل ما يخدم هذا الهدف.. كل أولئك مع الأسلوب المعجز، الذي هو البيان الفريد كلُّه، والحكمة البالغة كلُّها ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[النحل: ٨٨].

ولدى التدقيق والتبصُّر، يلاحظ أن هذا هو الوجهُ الأول للقضية. أما الوجه الثاني: فهو أن عرض الحقيقة على طريق الهداية والإرشاد بالأسلوب الحكيم المعجز: يحقِّق لمن يملك الأهلية، فائدةً عظيمة وعظيمة جداً، وهي تفتيح الذهن، وإطلاق العقل من إساره، وتنميةُ الملكة القادرة على المقايسة والاعتبار، ووزنِ الأمور بالدقيق من المعايير النيِّرة، ووضعِ الدليل موضعه الملائم مصحوباً، ذلك كله بالحكمة في الخطاب، ثم ربطِ النتائج بالمقدمات والمسبَّبات بالأسباب.

وفي ضوء ذلك: كانت لنا وقفة عجلى مع آيات كريمات من سور «السجدة» و«الجاثية» و«ص» هي قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[السجدة: ١٨]، وقولُه سبحانه في سورة «الجاثية»: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١] وقوله في سورة ص: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾[ص: ٢٨].

وما أحْسَبُ امرءاً أوتي شيئاً من القدرة على التذوق، وحسن الاستيعاب على هذه الساحة، يماري في أن هذه القضية بشقَّيْها والتي هي من عطاء المنهج القرآني على صعيد الإخراج من الظلمات إلى النور، يمكن أن تقدم للبنية الثقافية الكثير الطيب النافع، وأن تنمّي بإحكامٍ قدرة الأجيال على طريق البناء الثقافي الأصيل، وأن تزودهم في مجال العقيدة والعلم والغنى بالحقائق، والقدرة على المحاكمة: بما لا يقادر قَدْرُه من ناحيتي الكم والنوع، ناهيك عن تنمية الملكات الناعلة المنتجة، والذوق في الفهم والاستيعاب وعند الأداء.

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة المباركة التي تزيد الإيمان، وتقوي البنية الثقافية، وتنمي الملكات في إطار الذاتية والأصالة، نتجه شطر سورة الأعراف، لنقرأ في الآية السادسة والثلاثين منها، ما يفصح بالواضح البيِّن من القول عن عاقبة الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها، وأن تلك العاقبة هي الخلود في جهنم وبئس المهاد، ذلكم قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾[الأعراف: ٣٦].

وواضح ما تدل عليه الآية الكريمة ـ كما أشرت آنفاً ـ من أن الخلود في النار كائن جزاء التكنيب بآيات الله والاستكبار عنها. ولشدة اللصوق بين هؤلاء الفئام من الناس وبين نار السعير، وكونهم لا يفارقونها ولا تفارقهم ـ والعياذ بالله ـ جرى التعبير عن ذلك بوصفهم أنهم أصحابها ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذا: والأصالة التي نلمح إليها، ضرورة لا غنى عنها في ميدان التصور، وفي ميدان التطبيق العملي والسلوك؛ سيما إذا كنا على ذُكرٍ من الأبعاد التي يأخذها الغزو الفكري في حياة عديد من أبناء الأمة في كثير من بقاع العالم الإسلامي، وقد يكون بعض هؤلاء في موقع من مواقع القيادة الفكرية هنا أو هناك!! الأمر الذي انعكست آثاره الهدامة على العلاقة بين هؤلاء وبين مصادر المعرفة والثقافة من منابعها الأصيلة عندنا، كما انعكست آثاره على طبيعة الانتماء الفكري عندهم، وعلى معايير الموالاة والمعاداة؛ ناهيك عن القواعد التي باتوا يحتكمون

إليها ـ نتيجة التفكير بعقول الآخرين ـ في تفسير تاريخنا، وتعليل الحوادث والوقائع، فضلاً عن المنهج الذي يحكِّمونه عند النظر إلى الثوابت التي لا خيار للمسلم أن يختار في شأنها، فيقول: أريد أو لا أريد؛ كل أولئك يحمل الضرر البالغ لمسيرة البناء. وفي العودة إلى المنابع الأصيلة بوعي وموضوعية، والدخول إليها من أبوابها، خيرٌ كثير وفير.

وننتقل إلى الآيتين الأربعين، والحادية والأربعين من السورة نفسها لنرى لوناً آخر من التعبير عن مصير هؤلاء الجاحدين المستكبرين الذين كذَّبوا بآيات الله وكانوا ظالمين؛ ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[الأعراف: ٤٠-٤١].

والملاحظ أن الحقيقة التي هي واقعة لا محالة يوم الدين هي في الآيات الثلاث واحدة، ولكن بعد الطرح المجمل في الآية السابقة، جاءت الآيتان هنا، بما يزيد تلك الحقيقة نفاذاً إلى العقول والقلوب في ظل تفصيل مروِّع يفترض أن يثبِّت المؤمن، ويذكِّر الجانح عن الصراط السوي، أن لو كان هنالك عقل يعمل، وقلب ينشرح للذكرى.

ذلك بأنه على خط متسق مع الخلود في جهنم، يطالعنا هذا المشهد الصارخ الذي يعلن استحالة دخول أولئك المكذبين المستكبرين عن آيات الله الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط ـ والجمل هو الحيوان المعروف بعظمته أو هو الحبل الغليظُ ـ كما في رواية عن ابن عباس. والسَّمُّ: ثقب الإبرة.

وتبع ذلك تفصيلُ ما ينالهم في جهنم من العذاب؛ إذ لهم من جهنم مهادٌ ومن فوقهم غواشٍ تضفي عليهم من الشدَّة الشادة ما الله به عليم، ثم بيانُ أنهم مأخوذون بالعدل الإلهي؛ فهم بتكذيبهم واستكبارهم، مجرمون ظالمون، وما ينالهم من سوء المصير، هو جزاء إجرامهم وظلمهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

على طريق البناء الثقافي..
وعودة إلى سورة الأعراف

في حديث موصول بما تدل عليه معالم الكتاب العزيز من ضرورة إحكام العلاقة بين التكوين الثقافي للمسلم وبين المنهج القرآني في ذلك، حيث كانت الاستنارة ـ من خلال نظرات عجلى ـ بعطاء آيات من سور السجدة والجاثية وص والأعراف: تحسن معاودة النظر فيما جرت الإشارة إليه سابقاً من آيات الأعراف، توكيداً لما بدا من أن ساحة البناء الثقافي التي يغذوها المنهج القرآني ـ وهو يمكّن للّهداية في النفوس ـ لا تعني في مضمونها المطلوبِ تحصيلُه، تكديسَ الحقائق أو المعارف ـ عموماً ـ أكداساً لا يربط بينها رابط ولا ترتدّ إلى أرومة، وليس بينها وبين تقويم السلوك نسب، ولكنها تعني تأصيل المعرفة من منابعها الخيِّرة، وتوثيق علاقتها بالمبادىء والقيم وسلامة السلوك، وإقامة البناء الثقافي على قواعد تنمية الذاتية والأصالة، ولا تهمل الإنسان الذي هو محور القضية.

وكيف تهمله وهو الذي كرَّمه اللّه وخوطب بالتكليف وتنزل الوحي لهدايته.. أجل إنها لا تهمله بل ـ على العكس ـ تجعله وهي تبنيه من داخل النفس وتفسح لعقله وقلبه وفطرته بعد أن كان مضروباً عليها بالأسداد.. تجعله يحسُّ وجودَها الذاتي المرتبط بالوجود العملي لرسالة البناء التي يتحرك ضمن منهج متكامل لتحقيقها؛ فإيمانه يزداد، وملكاته تنمو وتثبت فاعليتها يوماً بعد يوم، كما أن قدرته على تقبل الحقائق، ومقايسة الأمور، في ربطٍ للنتائج بالمقدمات: تأخذ أبعادها ـ بتوازن وشمولية ـ على صعيدي التصور والتطبيق...

وامتداداً لذلك تكون نشأة الحوافز من الداخل، تعمل عملها في تطويع السلوك للمعرفة الأصيلة التي تنأى عن الترقيع، وفي ترجمة الحقائق إلى وجود عملي على أرض الواقع؛ وذلك بعض ما ترمي إليه رسالة البناء كما دلت عليها معالم الكتاب العزيز.

نعود إلى آيات سورة الأعراف وهي قوله تعالى في الآية السادسة والثلاثين: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٦] وقوله جلت حكمته في الآيتين الأربعين والحادية والأربعين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١] المهاد: الفراش، والغواشي: جمع غاشية وهي ما يغشاهم فيغطيهم من ظلل العذاب.

لقد أشارت الآية الأولى إلى حقيقة غيبية حاصلة لا محالة يوم الدين جزاء التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها، وهي حقيقة لا بد أن تكون من المسلّمات عند المؤمن بعد أن تقررت في نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة؛ فالذين يصدر عنهم التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها ـ مع وضوح الأدلة وقطعية البراهين ـ هم في نار السعير خالدون، يصلونها بما كسبوا، كلما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلوداً غيرها وبئس المصير ـ.

وهذه الحقيقة نفسها واضحة كل الوضوح في قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٤٠].

ولكن الجديد هنا: أن هؤلاء الجاحدين لا تفتَّح لهم أبواب السماء؛ لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء، أو لا تفتَّح لأرواحهم أبواب السماء لأن أرواحهم وأقوالهم وأعمالهم كلُّها خبيثةٌ، وإنما يصعد إلى الله الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الصالح يرفعُه.

ومما يزيد الحقيقة المشار إليها نفاذاً يرهب الكافر، ويزيد المؤمن إيماناً: أن الآية لم تذكر جهنم والخلود فيها، ولكن جاء التعبير عن ذلك بتعليق تفتُّح أبواب السماء لهم ودخول الجنة على أمر محال، وهو دخول الجمل في سَم الخياط الذي هو ثقب الإبرة ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤] وإذا كان الأمر كذلك.. فدخولهم الجنة محال؛ لأن الموقوف على المحال مُحال.

هكذا يكون دخول المشركين المكذبين المستكبرين مأيوساً منه قطعاً؛ فهم في النار يتقلبون فيها يطعَمون الزقوم ويشربون الغَسَّاق. لا يقبل لهم دعاء ولا توبة، بعد فوات الأوان ـ كما لم يكن لهم ذلك في الدنيا ـ بسبب التكذيب والاستكبار.

يقول صاحب الظلال رحمه الله وأجزل مثوبته: (ودونك فقف بتصورك أمام هذا المشهد العجيب، مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة، فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير، فانتظر حينئذ ـ وحينئذ فقط ـ أن تفتَّح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين فيقبل دعاؤهم أو توبتهم، وقد فات الأوان، وأن يُدخلوا جنات النعيم. أما الآن: وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط: فهم هنا في النار).

وهكذا لم تقتصر الآية على عرض الحقيقة المشار إليها، ولكنها بهذا المشهد الصارخ المعبِّر، أعانت على أن تأخذ هذه الحقيقة أبعادها أكثر وأكثر في العقل وأغوار النفس، حتى إن القارىء للآية يحسُّ كأنه يبصر بأمِّ عينه ما ينالهم من ذل العذاب، جزاء تكذيبهم بآيات الله وتكبرهم عن أن يؤمنوا بها.

وهذا الدرس العظيم من تعليق دخول الكفار الجنة، أو فتح أبواب السماء لدعائهم أو عملهم الصالح ـ كما يزعمون ـ بأمر محال: جدير بأن يزيد المؤمن حرصاً على شكر الله أن جعله من أهل الإيمان، شكراً يحمل على تقوى الله في كل ما يأتي وفي كل ما يذر، وأن يزيده اعتزازاً بدينه، ووقوفاً صارماً عند حدود، ما وضع القرآن من حدود على صعيد الموالاة والمعاداة، أو الولاء والبراء على وجه العموم ـ.

وبذلك تسير الأمور سيرها الطبيعي، ويعرف كلٌّ ـ نتيجة البناء الثقافي السليم ـ مكانه من الصف، وموقعه على ساحة البناء، بعيداً عن الحيرة والضياع، والتهافت على مخلفات الآخرين.

وإن شئت فقل: إن وجود الأمة الذاتي باستقلالية وأصالة يبدأ من هنا!! حيث تكون لها الكلمة الأولى عند صنع القرار في شؤونها كافة، وبخاصة في تسيير طاقاتها البشرية والمادية وتقرير ما يصلح لوجودها الذاتي وتحقيق رسالتها الخيِّرة المباركة في العالمين.

سورة الأعراف.. وبناء المسلم

على طريق البناء الثقافي والأصالة التي تطبع ثقافة المسلم من خلال المنهج القرآني ـ وهو يتجه بالإنسان صوب الهداية والنور ـ: كانت لنا وقفة استلهام للمعلم القرآني فيما يبسط من دلالات تحفل بها الآية الأربعون من سورة الأعراف وهي قول الله جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[الأعراف: ٤٠].

ولعل من الخير أن نعود مرة أخرى إلى اصطحاب الآية الكريمة، بغية الاستنارة بلون آخر من عطائها؛ فهناك حقيقة أخرى تضاف إلى ما ذكرنا من قبل، وهي ما ختمت به الآية من قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

إذ مع الإشارة إلى أن الكفار لا تفتح لهم أبواب السماء، وأنَّ دخولهم الجنةَ محالٌ، لما أنه عُلّق على حصول أمر في غاية الاستحالة، وهو ولوج الجمل ـ على أنه الجمل المعروف أو الحبل الغليظ ـ في ثقب الإبرة الصغير؛ فهم مخلّدون في النار، لا يقبل لهم دعاء، ولا ترفع لهم توبة ـ وقد فات الأوان ـ .

مع الإشارة إلى ذلك، يؤذننا ختام الآية الكريمة بأن ما يحصل لهؤلاء الجاحدين المستكبرين عن آيات الله: جارٍ على سنة من سنن الله في ارتباط الجزاء بالعمل؛ إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ، فهؤلاء الأناسيُّ قد أجرموا بتكذيبهم بآيات الله، واستكبارهم عن أن يؤمنوا بها ويسيروا على هديها، فكان لهم جزاءَ ذلك أنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

وهذا ما لم يُذكَرْ في الآية السادسة والثلاثين التي اقتصرت على ذكر العقوبة دون الإشارة إلى السنة الإلهية في الجزاء، وإن كان ذلك مفهوماً من الفحوى. وسبحان الحكيم الخبير، الذي أنزل كتابه المعجز على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ولم يجعل له عوجاً.

ثم جاءت الآية التالية على شيء من التفصيل فيما ينالهم في جهنم ـ كما أشرنا من قبل ـ أعاذنا الله من ذلك، فقال جل شأنه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[الأعراف: ٤١] أجل: لهم من نار جهنم من تحتهم فراش يدعوه للسخرية بهم: مهاداً، جزاء ما عتوا واستكبروا في الدنيا وما هو مهادٌ ولا لين ولا مريح، ولهم من نار جهنم أغطية تغشاهم من فوقهم. ظلمات مكدوس بعضها فوق بعض.

وتختم الآية بما يؤكد السنة الإلهية في ارتباط الجزاء بالعمل: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ فالظالمون هم المجرمون، والظالمون هم المكذبون بآيات الله المستكبرون عن الإيمان بها والانقياد لها، المفترون الكذب على الله. أوصاف مترادفة في كثير من المواطن في تعبير القرآن. والله تعالى لم يظلمهم شيئاً ولكن جزاهم جهنمَ بما كذبوا بآياته واستكبروا عنها، فكانوا مجرمين ظالمين.

وعلى طريقة القرآن في التقابل وتمييز الأمر بضده؛ تنتقل بنا الآيات ـ بعد الحديث عن الكفار ومصيرهم وبيان أن هذا المصير يجري على سنن العدل الإلهي ـ إلى الحديث عن المؤمنين وما ينتظرهم من حسن العاقبة وجميل المثوبة والحالِ التي يكونون عليها في الجنة، ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[الأعراف: ٤٢-٤٣].

ويعد هذا البيان الذي لا يُسامى والذي يزيده وضوحاً وينمي الإحساس به، وإدراكه في نفس المؤمن: ما سبق مما جاء في شأن الكافرين ــ كما سلف: ــ تطالعنا الكلمات الهاديات بحوارٍ يقع بين المؤمنين والكافرين، يزيد اليقين ويوسعُ للاقتناع أن يأخذ أبعاده في العقل، وآثاره في السلوك وتطويع العمل والتحرك البناء إلى العلم؛ ذلك ما نجده في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الأعراف: ٤٤-٤٥].

لقد استحق الظالمون اللعنة بأنهم يصدون عن سبيل اللّه ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون.

كلٌّ هذا مما نرى هنا ومما سبق ــ ومثله كثير ــ يدل على ما يجب من تحرير الخطوة الأولى لمسيرة البناء، والقاعدة التي ينبغي أن يقوم عليها بناء الإنسان، وذلك بعضٌ من أسرار التركيز على ذلك في كتاب اللّه، خصوصاً في العهد المكي، حيث البداية التي آذنت الإنسانية بحضارةٍ مثلى وتاريخ مشرق جديد.



البناء المتكامل
في سورة الاعراف... وبيان من السنّة

لعل من المسلّمات عند أهل البصيرة، أن المرء لا ينظر في آية من كتاب الله ـ أو آيات ـ متلمّساً ما تحمل الآية أو الآيات من حقائق، وما تهدي إليه من مقومات البناء القويم: إلا وجد نفسه في الأعم الأغلب، مسوقاً إلى النظر فيما يكون من حديث الرسول ﷺ على هذه الساحة من العطاء.

وليس ذلك بالأمر العجب، بل العجب أن لا يكون..؛ ذلك بأن طاعة رسول الله ﷺ ـ كما لا يخفى ـ من طاعة الله، وما أكثر النصوص الدالّة بأوضح بيان على ذلك؛ ها نحن أولاء نقرأ ـ على سبيل المثال ـ في سورة النساء قوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠] ويقول الرسول ﷺ ـ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وأحمد وغيرهما ـ: **«كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من عصاني فقد أبى»**.

وشاء الله تبارك وتعالى أن يقلد نبيه عليه الصلاة والسلام أمانة البيان لكتابه الكريم، وإنكار الارتباط بين البيان والمبيّن هنا: مكابرة أو زيغٌ نعوذ بالله منهما، يقول ربنا جل ثناؤه في سورة النحل ـ وهي سورة مكية ـ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤].

أقول هذا في أعقاب ما كنا بصدده فيما سلف من قريب، من الإشارة إلى ما للمنهج القرآني على صعيد الهداية من أثر في البناء الثقافي، وما تُغني به الحقائق القرآنية وأسلوبُ عرضها: ثقافة الأمة، من أصالة وتنمية للملكات القادرة على المقايسة والإبداع، والإحسان في ربط النتائج بمقدماتها، والتطلّع

المتجدّد إلى آفاق مستقبلية مضيئة في ظل وحي السماء وفهوم أئمة الهدى لنصوصه. ومما يعين على ذلك، ويزيد من الكشف عن آفاقه: بيان السنة المطهَّرة، كما سنرى قريباً في صورة من ذلك البيان.

وقد تأكدت هذه الإشارة من خلال عدد من الآيات الكريمات، كان آخرها آيات من سورة الأعراف، من بينها قول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[الأعراف: ٤٠].

لقد دلت الآية ـ كما سبق القول في ذلك ـ على أن الله لهؤلاء الصادين عن سبيله بالمرصاد، وأنه سيجزيهم وصفهم وفق سنة من سننه ولن تجد لسنة الله تبديلاً؛ فهم بما اجترحوا من الشرك والاستبكار عن آيات الله أن يؤمنوا بها، والصد عن سبيل الله: حقت عليهم كلمة العذاب. وهذا التحديد له ما له من الأثر في توجيه المسلم إلى المنهج الذي لا بد من سلوكه للفهم عن الله تعالى فيما يثيب وفيما يعاقب، ولتبيُّن العلاقة بين أحكامه ـ جلَّ شأنه ـ وبين سننه الحكيمة، وكيف أن الجزاء من جنس العمل وذلك ما تقرر في قوله سبحانه: ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

والحق أن المشهد الذي يبرزه قوله تعالى: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ مشهد صارخ مؤثر، يضيف إلى تبيان الحقائق المقصودة في الآية، والتمهيد لأبعادها أن تأخذ مجراها العميق في القلب والعقل... تنميةً لملكة الفاعلية والتأثير عند المؤمن، والقدرة على القول البليغ في أنفس الناس عند الدعوة، وزيادةً في يقينه بأن ما آمن به هو الحق؛ ولذلك ما له من انعكاسات طيبة على البنية الثقافية، والتصوُّر الذي تُنشَدُ سلامته على طريق البناء.

والآن: يحسن التذكير، بأن ما رأيناه في الآية الكريمة، ينقلنا إلى صورة مغايرة في الحديث النبوي، تلتقي معها في التعليق على أمر محال، يُظهر الأمرَ الذي اشترط له وقوع المحال: محالاً، ولكن القضية على العكس مما هنا!!

فهنا يتعلق الأمر بالكفار الجاحدين واستحالة أن تفتح لهم أبواب السماء، وأن يدخلوا الجنة، وهناك ـ في الحديث ـ يتعلق الأمر بالمؤمن الخاشع يبكي من خشية الله، والمؤمن المجاهد في سبيل الله، وامتناع دخول واحد منهما النار بفضل الله تعالى.

ذلكم ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يلجُ النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضَّرع، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخانُ جهنم»** أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

هذا الرجل الذي بكى من خشية الله هو من أهل الجنة، ومحال أن يدخل النار؛ فقد انتفى دخوله النار، بتعليق هذا الدخول على أمر مستحيل الوقوع ـ وهو عودة اللبن في الضرع ـ والضَّرْع لِذاتِ الظِّلف كالثدي للمرأة ـ وأنّى للَّبن بعد خروجه من الضرع أن يعود إليه؛ فكما أن هذا الأمر محال، فكذلك دخول من بكى من خشية الله النارَ مُحال.

وكان من بلاغته ﷺ في الدلالة على مكانة المجاهد عند الله، وبيان ما يجب من التكامل في شخصية المسلم؛ ـ إذ البكاء من خشية الله والجهاد في سبيل الله صنوان يتكاملان.. ـ كان من بلاغته ﷺ وحسن بيانه عما أراد أن قال في ختام حديثه: **«ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم»**.

وما من ريب في أن صورة الاستحالة لعودة اللبن في الضرع، صورة مؤثرة تجري في كلام من أؤتمن على بيان الكتاب المعجز، على سنن ما جاءت به الآية الكريمة في سورة الأعراف من حيث التعليق على أمر محال.

وما من ريب أيضاً في أن هذا الاقتران بين الباكي من خشية الله، وبين المجاهد في سبيل الله، ذو دلالة على فضل كل من الخاشع والمجاهد، ولعل من يبكي فَرَقاً من عذاب الله.. يكون ـ مع الاستعداد ـ أكثر أهليةً من حيثُ شجاعة

القلب، والتصديق بما أعَدَّ الله للمجاهدين الصادقين الصابرين. وفي بيانه ﷺ أن دخان جهنم، والغبار في سبيل الله لا يجتمعان على واحد من عباد الله: ما يكفي ويشفي على هذه الساحة المباركة.

فهنيئاً لمن تفيض أعينهم بالدمع من خشية الله، وهنيئاً للمجاهدين الصابرين جهادهم، وما يعطاه الشهداء من فضل عظيم عند الله أكرم به من عطاء، وجزى الله حماة الإسلام وبناة حضارته بجهادهم وتقواهم كل خير.



وضوح الرؤية.. والبناء الثقافي وأولوية الوحي في مصادر المعرفة

وضوح الرؤية عند المسلم بشأن مصادر العلم، والمعرفة عموماً: ضرورة تمليها سلامة البناء الثقافي، لما أن هذا الوضوح يساعد على أن يتبيّن المسلم طريقه في شأن الحقائق التي يسلّم بها، والقيم التي يحتكم إليها ـ والمعايير التي يزن بها الأمور.

خصوصاً وأن الحقائق الأساسية كلّها بالنسبة للمسلم: موردها كتاب اللّه وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام والكتاب وحي من عند اللّه عزّ وجل نزل به الروح الأمين جبريل على رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه، ونقل إلى الأمة جيلاً بعد جيل بالتواتر لم تتبدل منه كلمة ولم تتغير عبارة.. وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً من الوحي ولكنه وحي غير متلو: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[النجم: ٣-٤].

كان علي أن أسوق هذه الكلمات وأنا بسبيل النظر في الآية التاسعة والأربعين من سورة «هود» والتي ختمت بها قصة نوح عليه السلام في تلك السورة وهي قول اللّه تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[هود: ٤٩].

والعهد قريب بما كان من الإشارة إلى ما تقرره الآية من أن الوحي هو مصدر العلم بالوقائع التي حملتها القصة الأمر الذي يدل على أن الوحي هو المصدر اليقيني الأول من مصادر العلم. وهذا ما يجب أن يكون ملحوظاً عند تحرير الأسس التي يقوم عليها بناء العقل المسلم والبناء الثقافي على وجه العموم.

فليست الحقائق كلها بالجملة والتفصيل منوطة بالتجربة، بل منها ما يأتي من طريق التجربة، ومنها ما يأتي من طريق الخبر الصادق، ومنها ما يأتي من طريق العقل أو الحواس أو أية وسيلة صحيحة أخرى.

والحق أن النصوص التي تعطي تلك الأهمية الكبرى للوحي في تلقين العلم والمعرفة عموماً، نصوص كثيرة بالغة الدلالة على ما نشير إليه.

ففي سورة البقرة نقرأ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[البقرة: ٣١-٣٢]. وفي شأن يوسف عليه السلام يقول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾[يوسف: ٦٨] وفي سورة الرعد ـ وهي سورة مكية ـ يخاطب الله محمداً عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه:﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾[الرعد: ٣٧] لقد أسْمَى ما أوحى به إليه علماً، وأسْمَى دعوة الكفار له عليه الصلاة والسلام لاتباع دينهم أهواءً وهذا ما يعطي كلمة الفصل في تسمية ما يتنزل به الوحي «علماً»..

وإنها قضية بالغة الخطورة ـ كما أسلفنا ـ على ساحة البناء الثقافي وتكوين شخصية المسلم في فكره وتصوره وتحديد منطلقاته وأهدافه..

ولكم رأينا ونرى ـ حتى هذه الساعة ـ من بني جلدتنا من يؤخذون بالبريق ـ نتيجة الخطأ في التكوين المعرفي ـ فيريدون إخضاع كل شيء للتجربة، حتى ما لا يقبل ذلك، وما ليس له علاقة بالتجربة من قريب أو من بعيد، وتراهم يرددون ما حمله الغزو الفكري من محاولة تحكيم مصطلحات الآخرين في التفريق بين المنهج العلمي، والمنهج الديني ـ ولا تسل عن مخاطر ما يدعونه «المنهج التاريخي» وما درى هؤلاء المخدوعون أنه ليس من منطق العلم، أن نحكّم مصطلحات نشأت في ظروف معينة من العداء بين الدين ـ ممثَّلاً برجال الكنيسة الذين كانوا يحاربون العلم أشدَّ المحاربة وكانوا لكل يقظة بالمرصاد. لأن ذلك يتنافى مع ما

يريدون من طاعة الأتباع المرتبطة بالغفلة والجهل.. وأين هذا كله من إشراقة المنهج الرباني حيث العلم في أكرم آفاقه، وحب العمل على تحقيق إنسانية الإنسان؛ فالإسلام لا يعرف تلك التفرقة بين منهج علمي ومنهج ديني، ومصطلحات الآخرين تتنافى كل التنافي مع طبيعته كلياً.

ولعل عذر بعض من هؤلاء المقلّدين ـ إن أحسنا الظن ـ أنهم لا يعرفون ـ على الأقل ـ أن القرآن الكريم، جعل من النظر القائم على الملاحظة، ومن التدبر والتفكر، طريقاً للإيمان ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الذاريات: ٢٠-٢١] وما أكثر الأدلة والشواهد!!

كما أنهم لا يكادون يفرقون بين ما يخضع للتجربة وما لا يخضع ـ صنيع من كانوا كذلك من فلاسفة العلمانية والإلحاد وراء البحار والسهوب ـ حتى رأينا من لا يخجله أن يطالب بمحاكمة الحقائق القرآنية والثوابت فيه، من خلال المنهج التجريبي الذي جاء به فلان أو علان من أهل الصليب!!

ومهما يكن من أمر: فأنى لنا ـ مثلاً ـ أن نخضع وقائع التاريخ جملة وتفصيلاً عبر العصور المتطاولة ـ وبخاصة ما تحدث عنه القرآن وبيانه من السنة الصحيحة ـ إلى التجربة المطلوبة!! بل أنى لنا أن نخضع الغيب الذي نأخذه عن الخبر الصادق ـ كما ذكرت في مستهل هذا الكلام بمناسبة قصة نوح عليه السلام ـ للتجربة التي يريدها أقزام الفكر، وأن نجعل غير المحدود تابعاً للمحدود، يحكم هذا المحدود عليه.

وإني مورد هنا نموذجاً واحداً لعل فيه مقنعاً لمن يداخله أدنى ارتياب، وهذا النموذج إذا لم نؤمن بوقوعه تصديقاً للوحي: فالكفر هناك؟ ذلكم قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩] فإذا أردت أن تخضع هذا الذي أخبر عنه القرآن للعلم التجريبي والملاحظة والاختبار: فذلك وضع للأمور في غير موضعها أولاً، ثم الانتكاس عن الإيمان بما جاء عن الله بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة والعياذ بالله وتناقض ممن يدعي الإيمان!! «اللّهم إنا نعوذ بك من الضلال والخبال».

ألا إن منهج القرآن واضح في إحلال العلم بأنواعه مكانه اللائق، ولكنه يأبى على المسلم أن ينتكس فيأخذه ظلام الإنكار الجاهلي تحت ستار المنهجية والعلم وتزييف المصطلحات، فلا يعطي الوحي مكانه اللائق بوصفه المصدر الأول من مصادر العلم، وهو نفسه الذي فسح للعلم في حياة الإنسان تلك المساحات العظيمة التي تضمن الفكر النقي، وعمارة الأرض، وبناء القوة المطلوبة لأمة الإسلام في ظل حضارة مثلى.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

وهل يتحقَّق ذلك إلا بالعلم عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل؟!!



مع التكوين الثقافي..
الصبر على المتابعة في البناء

لا بدع أن يستوقفنا ما ختمت به الآية التاسعة والأربعون من سورة هود، وهي الآية الأخيرة في الآيات التي عرضت لقصة نوح عليه السلام في تلك السورة.

والآية الكريمة هي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

لقد ختمت الآية ـ كما نرى ـ بأمر النبي ﷺ بأن يصبر، وبيان أن العاقبة للمتقين. إن معركة البناء التي خاضها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، والتي بدت مؤشراتها منذ العهد المكي، من الطبيعي ـ وهي تمثّل حقيقة الصراع بين الحق وذويه، والباطل وسدنته ـ: أن تقوم في وجهها عقبات، وأن يتصدى لها ويناهضها أهل الباطل ـ الذين ارتبط استمرار وجودهم على الشكل الذي يريدون ـ ببقاء الباطل بكل مستلزماته ومن يقومون على تزييف الحقائق، والإصرار على استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومن العقبات التي تقوم في وجه الرسل ودعاة الحق: ما يكون من التكذيب والتهوين من شأن الحقائق التي يعرضونها، ويقيمون الأدلة عليها.

والمفروض ـ يقيناً لا يحتمل الشك ـ أن يكون الرسول على غاية الإيمان، والوثوق بما يدعو إليه لأنه إنما يتلقى عن الله عالم الغيب والشهادة الذي بيده ملكوت السماوات والأرض.

وما دام الأمر كذلك. فلا عليه أن يكذب المكذبون والمتخرصون، وليصبر مهما طالت الطريق وتفاقمت المصاعب فإن العاقبة للمتقين. والمتقون هنا هم هؤلاء الرسل أولاً، ثم أتباعهم الذين استجابوا لهم فخالط الإيمان بشاشة قلوبهم،

وأقاموا بينهم ـ في أعمالهم وسلوكهم ـ وقاية تقيهم غضب الله وعذابه، فهم قائمون بالطاعات والقربات، مجتنبون للمعاصي والمخالفات، صادقين مخلصين. وحين يتحقق ذلك فالعاقبة لهم نصراً وتمكيناً في الدنيا، وفوزاً بجنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها يوم الدين.

فالآية الكريمة بينت أن ما تنزل على محمد ﷺ بشأن نوح عليه السلام، وما كان من موقف ولده والمصير الذي انتهى إليه وكل الوقائع التي اشتملت عليها القصة.. بينت أنه من الحقائق العلمية التي لا تقبل الشك، أعلم الله بها نبيه عليه الصلاة والسلام على الشكل الواضح المستنير، حتى كان شاهدُها يراها بأم عينه.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وإذا هم كذلك، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، لأن دعوتك حق، ودليلها من الفطرة والعقل والحسّ والمشاهدة واضح وضوح الشمس في رابعة النهار..

نجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] وقوله سبحانه في سورة «الصافات»: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الصافات: ١٧٢].

﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذه الحقيقة التي يطرحها المعلم القرآني كم كانت فاعليتها عظيمة والمسلمون يُعفُّون على آثار الجاهلية، ويقارعون الظلم، ويزيحون الركام ـ وهم يبنون حضارة الإسلام ـ: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هي في وجهها الأول وعد من الله ووعد الله لا يخلف، وهي في وجهها الآخر باعث ثقة وطمأنينة عند المسلم؛ وهو يجاهد ويجالد ويبني لمجتمعه وأمته...

إن من الأمانة أن نلقن الجيل هذه الحقيقة بما لها من فاعلية وقدرة على إنشاء الحوافز والتمكين من التحويل، فإذا وُجد المتقون: علماً وعملاً وجهاداً في سبيل الله، فالعاقبة لهم والنصر على أعدائهم كائن بإذن الله.

إن منعطفاً تاريخياً على طريق البناء، يكون في صالح الأمة: مرهون بأن يدرك المسلم فعالية العقيدة والحقائق التي يطرحها القرآن!! الأمر الذي يحوِّل القضايا من نصوص مكتوبة جاثمة على الورق فحسب، إلى فاعلية تنشىء الواقع المطلوب وتبني الحضارة من جديد.



استقرار المجتمع.. وتنمية ارتباط السلوك بالإيمان سورة «الحجرات»

فارقٌ ما بين العوامل التي يقدمها المنهج القرآني، لترابط المجتمع وتماسكه والابتعاد به عن التمزق والضعف، وبين العوامل التي يطرحها الآخرون.. أن القرآن دائماً ينمي في حسّ المسلم ارتباط تلك العوامل بالإيمان؛ سواء أكانت من المأمور به، أو من المنهي عنه.

فالمؤمن ـ بوصفه مؤمناً ـ عليه أن يفعل كذا، والمؤمن بوصفه مؤمناً عليه أن يجتنب كذا، وأن يكون سلوكه متوائماً مع الإيمان. ها أنت تقرأ في كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحجرات: ١] ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وهذا غيض من فيض!.

وهكذا تجد أن نموَّ الوازع في أعماق المؤمن؛ خوفاً من الله، ورجاءَ رحمته وفضله وعونه ـ لأن من مقتضيات الإيمان أن يكون هذا المؤمن على استقامة وخضوع لأمر الله فيما أراد ـ تجد أن هذا النموَّ ينعكس على العلاقات الاجتماعية، بل والاقتصادية في المجتمع، الأمر الذي يساعد على رقي هذا المجتمع، وقدرته على العطاء في كل الميادين.

من هنا كانت عملية البناء بحاجة ـ مع العلم والمؤهلات والتخصصات ـ إلى اصطحاب هذا السلوك المرتبط بالإيمان، عند أفراد المجتمع المسلم ذكورهم وإناثِهم، فذلك مما يضمن الاندفاع الذاتي واستمرارية العمل في جو من الثقة المتبادلة النافعة.

كان عليَّ أن أشير إلى هذا الارتباط بين الإيمان والسلوك في المجتمع، وأنا أنظر في بعضٍ من آي سورة الحجرات، وسورةُ الحجرات: سورة مدنية كان من عطائها: الدعوة إلى كل ما فيه إبعاد الشوائب عن التعامل بين المسلمين، وإحاطةُ المجتمع بسور من الأخلاق، وسلامة السلوك، في إطار من التذكير بالإيمان ومراقبة الله عزّ وجل، وبالأخوة الإيمانية المنبثقة من عقيدة التوحيد التي اجتمعت عليها القلوب. هذا مع الأخذ بالأسباب التي تشد المسلم ـ على صعيد التعامل ـ إلى أخيه المسلم، وتحول دون عوامل الفرقة والتمزق أن تأخذ حظها من الوجود بين ظهراني المسلمين في المجتمع، فضلاً عن أخذها مواقع التأثير.

ولنبدأ الرحلة من هنا: يقول الله تعالى بشأن الإصلاح بين المؤمنين والقضاء على ما قد يقع في لحظة من لحظات الضعف من مشكلة أو فتنة ـ تفرق الشمل وتمزق الأواصر ـ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾[الحجرات: ٩].

هكذا بكل وضوح ترى المطلوب عند الاقتتال بين الطائفتين المؤمنتين: الإصلاح، فإن وقع البغي، فقتال الطائفة التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن حصلت الفيئة إلى أمر الله، فأصلحوا بينهما بالعدل، دون محاباة أو تجاوز على حق أحد ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

كل أولئك من أجل المحافظة على كيان المجتمع المسلم، والأمة المسلمة: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال: ٤٦].

والحق أن ضعف المسلمين، ليس خسارة لأنفسهم فحسب، ولكنه خسارة للبشرية كلها؛ فيوم كانت هذه الأمةُ على الجادة؛ تملك القوة في ميادين الجهاد والسياسة والاقتصاد والاجتماع ـ ناهيك عن الفكر والثقافة والتشريع ـ أمكنها أن تبني بالكفايات التي يوجهها الإيمان، حضارة لم تر البشرية لها نظيراً، بشمولها وعمقها وإنسانيتها.

وعلى محور الحرص على الكيان وإبعاده عن التمزق ـ والله أعلم ـ جاء بعد ذلك التذكير بالقاعدة العريضة للبناء، وهي قاعدة الأخوة الإيمانية، فالجميع إخوة في الدين، والمؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يخذله ولا يُسلمه: فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

ألا إن ما يمور به الواقع في دنيا المسلمين: يوجب العودة إلى بناء قوي متكامل للإنسان المسلم على العقيدة الصحيحة المتميزة بفاعليتها وقدرتها على التحويل، ثم العناية بالكشف عن مدى الترابط الوثيق الذي تنشئه هذه العقيدة بين المؤمنين، وعن أهمية الأخوة التي تنبثق منها؛ وبذلك تُحَلُّ كثير من المشكلات، لأننا نكون ـ مع حسن النية والخضوع لحكم الله فينا ـ قد أتينا البيوت من أبوابها على خط سواء مع المنهجية والحكمة في التدبير.

وقبل هذا وبعده: ما يكون لمؤمن ولا مؤمنة أن ينسوا أو يتناسوا أن قضية الولاء والبراء التي تجعل الموالاة لله ولرسوله والمؤمنين ـ بصرف النظر عن أية علاقة أخرى ـ: تعلو على القرابة والكيانات الشخصية مهما كان شأنها، وهذا من الأسس البالغة الأهمية في سلامة البناء وقدرته على مواجهة الطوارئ وما قد يستيقظ من نزعات ونزغات، وهذا ما نجده في سورة التوبة التي هي من أواخر السور المدنية نزولاً، بل فيها من الآيات ما هو من آخر الآيات المدنية نزولاً؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى في تحديد واضح لهذا الأمر الجلَل، وأن القريب ـ مهما اشتدت قرابته ـ بعيد إذا استحب الكفر على الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

ونقرأ في سورة المائدة عن البراء أيضاً قول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وانظر إلى وعيد من يراوحون ويعبثون بالحقائق حرصاً على دنياهم وطلباً للعافية مما يمكن أن يقع للمؤمن في سبيل الله. هذا ما نجده في الآيتين التاليتين: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥٢-٥٣].

وما أكثر الأدلة والشواهد التي تقرر وتؤكد هذه المقولة الجذرية التي لتحقيقها والتحقق بها ما له من الفوائد العظيمة في بنية المجتمع المسلم والأمة المسلمة، والعكس بالعكس؛ والواقع الذي يلف بظلامه أمتنا في هذه الحقبة من الزمن نتيجة التراخي في الاستمساك بالقيم، والتهاون في تحكيم الضوابط: لا يخفى!!

وهذا كله لا يتعارض مع حسن التعامل بأخلاق الإسلام مع الآخرين، ولكن المقصود البعدُ عن التخليط والوقوع في الخطيئة الكبرى وهي وضع الأمور في غير مواضعها الحقيقية:



البناء.. وترجمة القيم إلى واقع

من القضايا الأساسية التي يرتبطُ بها كيان الأمة المحمدية وثيق الارتباط؛ أن الله تعالى شاء لها أن تنبثق في وجودها الذاتي عن كتاب أنزله على عبده محمد عليه الصلاة والسلام مصدِّقاً لِما بين يديه من الكتاب.. ومهيمناً عليه، وهو القرآن الكريم الذي تنزّل وحياً على محمد عليه الصلاة والسلام ليخرج الناس به، من الظلمات إلى النور.

وهذه قضية تطوي في ثناياها ـ فيما تطوي من الحقائق ـ القيمة المعطاة في دين الإسلام ـ بعد التوحيد ـ للعلم، والعقل، والتدبر، والتبصر بسنن الله في الكون وفي الخلق عموماً. وأخذ العبرة من تاريخ الماضين وما ترتب على سلوك كل أمة أو قبيل من الناس من نتائج على صعيد البناء بعمومه وانتظامه لكل الميادين.

كما تطوي أهمية الأخذ بالأسباب لإعمار الأرض والإفادة مما سخّر الله للإنسان في هذا الكون من عناصر الحركة ومقومات الحياة في موازنة دائمة بين ما هو للدنيا من العمل والتصرف، وما هو للآخرة!.

هذا بجانب ما زخر به هذا الفرقان الحكيم من جعل التفكر في النفس، وفي آيات الله في الآفاق طريقاً من طرق الإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الذاريات: ٢٠-٢١].

ناهيك عما يدل عليه التسخيرُ الذي تنوّعت صور التعبير عنه في القرآن، والدعوة إلى التفكر والتدبر وما إليها: من وجوب التزوُّد ـ لتحقيق ذلك ـ بالأسباب النافعة من علم تجريبي وغيره، وكل ما هو من ذلك بسبيل. من مقدمات ونتائج وتبصُّر بارتباط الجزئياتِ بالكليات، والنتائج بالمقدمات، كما هي

في سنن الله تبارك وتعالى، الذي أودع مخلوقاته الخصائص التي اقتضتها حكمته سبحانه وتعالى. وصدق ربنا تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] أي: يهدي للصراط المستقيم والسبيل القويم، بل التي هي أقوم.

من هنا كان ارتباط المسلم بالقرآن الكريم، ارتباطاً يتجاوز الفطرة إلى العقل والقلب والمشاعر في مقايسة الأمور، قصداً لتحقيق الوجود الذاتي للفرد المؤمن والجماعة المؤمنة.

وهذا الذي قامت على أصدقيَّته الأدلة وزخرت به النصوص في الكتاب والسنة: هو ما يجب أن تبنى عليه شخصية المسلم بحيث يكون صادق الاستجابة لله وللرسول إذا دعاه لما يحييه الحياة الطيبة في الدنيا ويسعده يوم المعاد، وبذلك يكون نعم اللبنة الصالحة في بناء المجتمع والأمة، والطاقة الفاعلة في تحقيق الرسالة التي هدى إليها وقرر معالمها هذا الكتاب العزيز، وأخرج بها الأمة من ظلمات الجاهلية والتفكك الاجتماعي وغيره، إلى نور الإسلام وتأليف القلوب على كلمة الله..

من أجل ذلك ـ والله أعلم ـ رأينا في حديث رسول الله ﷺ حرصاً على أن يكون بناء شخصية المسلم على غاية الدقة والتكامل، والإحساس الصادق بالتبعات التي يحمِّلها وحي السماء لأمة الإسلام؛ وكان من بيان ذلك وإعطائه مزيداً من الوضوح في الحجم الذي يجب أن يأخذه في عملية البناء الكبرى: دعا عليه الصلاة والسلام إلى نوع من الأدب مع كتاب الله ينمي في حسِّ المسلم صلته بالقرآن، كما ينمي وعْيَه للكلمة الهادية ومدلولها، والخروج بذلك إلى حيِّز العمل والسلوك، في تدبُّر لا تعوزه مقومات الفهم الصحيح، وما لكلام الله في النصِّ من أبعاد؛ العلمُ بها ـ حسب الطاقة البشرية ـ كسب كبير على طريق البناء.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾[التين:١] فانتهى إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾[التين: ٨]. فليقل: «وأنا على ذلك من الشاهدين». ومن قرأ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١﴾[القيامة: ١] فانتهى إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾[القيامة: ٤٠]. فليقل: «بلى وعزة ربنا»، ومن قرأ ﴿الْمُرْسَلَاتِ﴾[المرسلات: ١] فبلغ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[المرسلات: ٥٠] فليقل: «آمنا بالله» قال إسماعيل: ـ وهو الراوي عن الأعرابي لهذا الحديث ـ: ذهبت أعيد على الرجل الأعرابي الذي رواه عن أبي هريرة وأنظر لعلّه ـ أي لعلَّه نسي أو وهم في شيء ـ قال: يا ابن أخي أتظن أني لم أحفظ لقد حججت ستين حَجَّةً ما فيها حَجةٌ إلا وأنا أعرف البعيرَ الذي حججت عليه. رواه أحمد وأبو داود وأخرجه الترمذي بنحوه.

ولنا عودة إلى اصطحاب هذا الحديث ـ إن شاء الله ـ نتلمس من خلالها قبساً من هدي خاتم النبيين ﷺ في شأن العلاقة بين المسلم وبين ما ينبغي من تقوية أواصر هذه العلاقة المباركة التي كلما نمت وقويت كان ذلك عنوان خيرية ينالها أهل الصدق المقربون، الذين يديمون الصلة بكتاب ربهم تلاوة، وتدبراً، ووعياً إيمانياً، وإحساساً بما يحكم الترابط بين العقيدة وبين الكلمة الهادية ومدلولاتها وأبعادها في الكتاب الكريم، كما أراد النبي ﷺ لذلك أن يكون ـ. ثم إني أود التنبيه على ما يقتضيه هذا الهدى النبوي ـ الذي نستشرف ضياءه ـ من إحكام البناء عند تربية الفرد والمسلم ذكراً كان أو أنثى، وإعداده الإعداد المنهجي الصحيح، كيما يكون على المستوى الذي تتحقق معه فعالية الكلمة القرآنية في عقله وقلبه ونفسه، فيترجم القيم إلى حركة في دنيا الواقع وذلك مناط الهداية من أول الطريق.

البناء.. والتفاعل مع المعنى القرآني

كانت مبكرة هداية القرآن إلى أن من النفوس ما يكون هذا الكتاب الكريم شفاءً وهدىً ورحمةً لها ـ وهي نفوس المؤمنين ـ فضلاً عن أن يكون موعظة تصل من يتفاعل معها بسعادتي الدنيا ويوم الدين. وأن أولئك المعرضين الظالمي أنفسهم بالإصرار على أن تظل الصلة معدومة بين قلوبهم وبين آياته: لا يزيدهم إلا خساراً، وبعداً عن الطريق التي إن سلكوها استنارت عقولهم وقلوبهم وكانوا في الدنيا والآخرة من الفائزين.

ففي سورة «يونس» ـ وهي سورة مكية ـ نقرأ قول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

إنه كتاب فيه ما لكم وما عليكم ـ وهو القرآن ـ ودواء لما في الصدور من العقائد الفاسدة والشكوك والأوهام، وهدىً من الضلال المطبق بظلامه، ورحمة للمؤمنين به في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

وتطالعنا سورة «الإسراء» ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ بقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

من هنا: للبيان؛ فالقرآن شفاء من الضلالة، مضموماً إلى ذلك ما ثبت في الصحيح من جواز الرقية به، وهو رحمة للمؤمنين به ـ كما سبقت الإشارة آنفاً ـ ولا يزيد الكافرين الصادّين إلاّ خساراً، لكفرهم عامدين الانصراف عن هدايته مع قيام الأدلة اليقينية على أنه من عند الله.

ونقع على توكيد واضح لكونه هدىً وشفاءً للمؤمنين، أما الجاحدون: ففي آذانهم ثقل فلا يسمعونه، وهو عليهم عمى فلا يفهمونه، ذلكم قوله تعالى في سورة «فصلت»: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾[فصلت: ٤٤].

وإذا كان الأمر كذلك في تقرير هذه الحقائق: فالمفترض أن يكون ذلك مما يحسب حسابه في منهج البناء للإنسان المسلم، للانتفاع بذلك السبب المتصل بين قلبه وعقله وبين القرآن، ليكون ذلك باعثاً على التفاعل بينه وبين معالم هذا الكتاب، الأمر الذي يعقب ما يعقب من الخير في كيان الفرد والمجتمع.

والعهد قريب بما سبق من الإشارة إلى ما للصلة، بين المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وبين القرآن الكريم من أهمية بالغة في بناء شخصيته المتوازنة الجوانب، وتنمية طاقاته الفاعلة التي إذا لامستها معاني الفرقان الحكيم ـ وهو يَعنى بالعقل والقلب عنايته بالنفس والمشاعر والفطرة ـ حوّلت فاعليتها إلى عمل خيِّر مثمر، وسلوك مرضيٍّ مستقيم، ووضعتها في مكانها المنتج الذي يترجم قيم الإسلام وأحكام شريعته إلى وجود عملي يُصلح الإنسان في دنيا الواقع.

والحق أن الجيل الذي بناه القرآن وهو ينفعل بمعانيه بوعي وتبصُّر، وشهد تاريخ الإنسانية عطاءه على ساحات التحويل، يوم كانت الإنسانية تئن تحت وطأة الجهل والجهالة والظلم، ومجانبة عقيدة التوحيد،... الحق أن هذا الجيل الفريد في التاريخ والذي كان ما قدَّمه من وافر العطاء في كل ميدان ضمن ظروف شديدة العسر، ليس أقلَّها ما يثقل الكواهل من موروثات الجاهلية والاعتبارات القبلية، وأعراف التقليد غير المبصر للآباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.. دليل عملي واضح ينتظمه سلك الأدلة التي لا تكاد تحصى، على أن القرآن وحيٌ من عند الله، ثم على أنه ـ وهو كلام الحكيم الخبير ـ يزدان بتلك القدرة الفائقة على تفجير الطاقات وتسيير الإمكانات في قنواتها الطبيعية التي تصنع الحياة الكريمة، وتنشىء الواقع الذي ترمي إليه الرسالة الخاتمة كما بلّغها عن الله محمدٌ عليه الصلاة والسلام.

والمهم ـ أولاً وآخراً ـ أن يكون هنالك تفاعل صادق، وسلامة استقبال لهداية الكتاب العزيز لا تشوبها معكِّرات الوقر ولا العمى اللذين أشارت الكلمة الهادية إليهما، وعندها يكون ـ بفضل الله ـ الشفاء والرحمة والهدى والنور.

وهذا الذي نقول: يدعو إلى استذكار ما آذن به الهدي النبوي ـ على هذه الساحة ـ، وتجديد الصلة بما يتجه إليه من إحكام البناء في شخصية المسلم، كيما يكون ـ بعون الله ـ على المستوى اللائق في مواجهة القرآن حين يتصل به تلاوة وتدبُّراً وعملاً.

من ذلك ما جاء عنه ﷺ ـ كما سبق من حديث أبي هريرة ـ من تعليمه ﷺ تالي القرآن كيف تكون استجابته التلقائية لمضمون بعض من الآيات الكريمات؛ فمن تلا سورة: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ فعليه أن يقول: «وأنا على ذلك من الشاهدين» ومن تلا سورة القيامة وانتهى إلى قوله جل شأنه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ فليقل: «بلى وعزة ربنا» وقل مثل ذلك في سورة المرسلات؛ فإذا انتهى التالي إلى قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ كان مطلوباً منه أن يقول: «آمنا بالله».

وأخرج أبو داود في السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١] قال: «سبحان ربي الأعلى» كما أخرج عن موسى بن عائشة رحمه الله قال: «كان رجل يصلي فوق بيته وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال: «سبحانك فبلى» فسألوه عن ذلك فقال:سمعته من رسول الله ﷺ وأخرج الإمام أبو جعفر الطبري عن قتادة: قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك وبلى» كما أخرج ابن أبي حاتم أن ابن عباس رضي الله عنهما كان إذا مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال: «سبحانك فبلى».

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: إذا قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ [المرسلات: ١] فقرأ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ فليقل: «آمنت بالله وبما أنزل» أخرجه ابن أبي حاتم.

هكذا يعمل النبي ﷺ على أن يُكم بناء اليقظة في عقل المسلم وقلبه، وأن تنمو في نفسه وفي حسّه قابلية الانفعال بالقرآن والاستجابة لمضامين الآي ومدلولاتها.

والمسائل التي طرحها عليه الصلاة والسلام ـ وهي قد تبدو جزئية إلى حد ما ـ هي في الواقع ـ كما تدل مجموع الروايات ـ مسائل تتعلق بسلامة الاعتقاد، وفي الوقت نفسه ذات دلالة على الانفعال الصادق بالمعنى القرآني من حيث هو؛ الأمر الذي يجعل ذلك بريد التطبيق، والقدرة على ترجمة مدلولات القرآن ومضموناته فيما خاطب به المؤمنين ـ إلى واقع عملي ينطق به سلوك المؤمن ومنجزاته النافعة في كل ميدان من ميادين الحياة، وفق الثغر الذي أقامه الله عليه.

ذلك بأن القرآن ليس موعظة عابرة يتفكّه بها السامع، أو يضعها من تصوره موضع الترف الثقافي وكفى ـ في إطار من الاختيار ـ ولكنه خطاب الله لعباده بما شرع لهم سبحانه وما كان للمؤمن الذي طلب منه بمقتضى الإيمان صدق التفاعل مع الكتاب العزيز، أن يكون له الخيرة من أمره أمام الذي يأتيه عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، والعدول عن ذلك معصية وضلال يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[الأحزاب: ٣٦].

وإنها لقضية بالغة الأهمية من الواجب مراعاتها بعناية تامة عند إعداد الجيل المرشَّح للبناء، وهو ينتمي إلى أمة الرسالة الخاتمة، كيما يكون قادراً ـ بعون الله وتأييده ـ على حمل التبعات بذاتية وأصالة بدءاً من نفسه التي بين جنبيه، والله يتولى الصالحين.



البناء.. والانفعال بهداية القرآن

ما أوردناه من مكيِّ القرآن في شأن تصنيف الناس على سُلَّم الانتفاع بكلام الله تبارك وتعالى؛ فهو شفاء وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين، والكافرون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى ولا يزيدهم إلا خساراً... يصلنا بما ورد من القرآن المدني في ذلك، الأمر الذي يزيد هذه الحقيقة وضوحاً على وضوح، ويثير كوامن الإيمان عند المسلمين كيما يمتحن كلٌّ منهم نفسه، ليرى مقدار القرب أو البعد ـ لا سمح الله ـ عن كلام ربه سبحانه وتعالى الذي أوحاه الله إلى نبيِّه عليه الصلاة والسلام ليخرج الناس بهديه المبارك من الظلمات إلى النور..

ها نحن أولاء نقرأ في سورة النساء ـ وهي سورة مدنية ـ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴿١٧٤﴾﴾[النساء: ١٧٤]

البرهان: الحجة وهو النبي عليه الصلاة والسلام والنور المبين: هو القرآن الكريم؛ فهو مبين ـ بيِّن ـ فلا ألغاز ولا باطنية، والمهم ـ مع التجرد في طلب الحقيقة والرغبة في الانتفاع ـ صفاء القلوب ليسلم حسن التلقي وتحصل الهداية بإذن الله.

فأنت ترى أنه تلا ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴿١٧٥﴾﴾[النساء: ١٧٥]

وتطالعنا سورة الأنفال ـ وهي سورة مدنية أيضاً ـ بما يتقرر معه أن المؤمنين ـ بتجردهم في طلب ما في القرآن من الهدى، والحرص بصدق على الانتفاع بما فيه تراهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم تصديقاً، وهذا خير على خير وفضل من الله كبير، وهو من علامات صدق الإيمان.

قال جل ثناؤه:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[الأنفال: ٢].

وتوضح سورة التوبة ـ وهي من أواخر ما نزل من القرآن ما تحدثه السورة يتنزل بها الوحي في نفوس المؤمنين من زيادة الإيمان والتصديق وأنهم لتصديقهم بها يستبشرون فرحين، وما تحدثه في نفوس المنافقين ـ لما أنهم أغلقوا قلوبهم دون هداية السماء ـ من زيادتهم رجساً على رجسهم وهو رجس تصحبهم ظلماته إلى ساعة الموت ـ والعياذ بالله ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[التوبة: ١٢٤-١٢٥]. وفي أعقاب ذلك يقول تعالى في شأن هؤلاء المنافقين: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[التوبة: ١٢٧].

من هنا، كان إحكامُ الصلة بهذا الكتاب ـ وهو وحي الله إلى خاتم المرسلين ﷺ ـ والتربيةُ الحقّة على الانفعال المثمر بهدايته: من القضايا الجذرية في بناء شخصية المسلم، وتنمية قدرته على الانتفاع بآياته البينات، وعلى العطاء في مجتمع تُطلب صياغته ـ كما لا يخفى ـ وفق المنهج الرباني الذي أشرقت به معالم التنزيل، وأدى أمانة بيانه ـ خير ما يكون الأداء ـ نبيُّنا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وهذه عودة ـ يقتضيها المقام ـ إلى ما سبقت الإشارة إليه من بعض صور الهدي النبوي التي توجه المسلم إلى حسن التفاعل مع آي الكتاب الكريم ـ وهو يسهم في البناء وإنشاء الواقع المطلوب ـ وذلك فيما وجّه إليه النبي الكريم من النطق بكلمات مباركات ينبغي للقارىء مناجاة ربه بها حين ينتهي إلى بعض الآي في سور مكية هن سور «التين»، و«القيامة» و«المرسلات» و«سبّح».

فسورة «التين» قد ختمت بقوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾[التين: ٧-٨] وذلك بعد أن أقام الله الحجة فيما سبق من الآيات على قدرته تعالى بأنه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾[الرحمن: ٣] ـ جنس الإنسان

ـ ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤] ـ تعديل لصورته ـ فسوّى الأعضاء وحسّنها، وزينه بالعلم والفهم والعقل والتمييز، بجانب كونه يمشي منتصباً على رجلين، وبعد أن أبان ـ سبحانه ـ بأن هذا الإنسان ـ الجنس ـ مردود إلى النار إن لم يسلك سبيل الإيمان ويستقم على طاعة الله تعالى. أما الذين يؤمنون ويعملون الصالحات: فجزاؤهم أجر لا ينقطع ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وهم في جنة عدن خالدون، ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾[التين: ١] إلى قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ومن قدر على بدء الخلق من العدم فهو قادر على بعث الناس بعد الموت للحساب والجزاء، والمصير إما إلى الجنة وإما إلى النار؛ إذ ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار.

بعد هذا خوطب الإنسان بقوله جل شأنه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ [التين: ٧] فما يكذبك يا ابن آدم بالمعاد والجزاء، بعد الذي علمت من قدرة الله تعالى؟! أي شيء يحملك على التكذيب بيوم المعاد حيث تقام الموازين بالقسط، وقد عرفتَ أن من قدر على البدأة ـ وهي النشأة الأولى ـ بإيجاد الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً وخلقه في أحسن تقويم، فهو قادر على إعادته بشراً سوياً بطريق الأولى!! ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٩].

ويستوقفك بعد التذكير بتلك الحقائق النيِّرة قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ وهنا تبدو روعة ما وجّه إليه النبي ﷺ أمته من أن على التالي للسورة إذا انتهى إلى هذه الآية أن يقول: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين». أخرجه أبو داود من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

ألا إن الله هو أقضى القاضين، لا يجور ولا يظلم أحداً، بل ينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه، ولو كانت هذه المظلمة مثقال ذرة؛ ومن عدله ـ جل جلاله ـ أن يقيم القيامة، ويضع الموازين القسط، ليكون الجزاء، ولتكون النصفَة، فلا

يضيع عمل عامل من العباد من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض، ولا يستمر الظلم والطغيان، دونما مؤاخذة، وردٌ للحقوق إلى أصحابها فهو ـ جل شأنه ـ أعدل القاضين والجزاء الذي يقضي به من ذلك: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝﴾؟!

وهكذا ترى أن النظرات المتبصِّرة في هذه الآيات الكريمات وما ختمت به من هذا التقرير البالغ العمق من خلال هذا الاستفهام، توحي بأن الكلمات الهاديات تدل بواضح الدلالة على أنه لا يستقيم في ميزان العقل السليم أن تنتهي الحياة الدنيا ـ بما كان فيها من التعامل بين الخالق تباركت أسماؤه ـ والخلق، وبين الخلق بعضهم مع بعض، وما اتسم به هذا التعامل من استقامة أو انحراف ـ: دون أن يكون هنالك يوم للمعاد والجزاء؛ يحاسب فيه الناس على أعمالهم التي توزن بميزان لا يعول، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وأراد رسول الله ﷺ ـ وهو المبين عن الله ما أراد ـ أن يأخذ التكامل في بناء الفرد والجماعة مكانه من عملية البناء الكبرى، فيقترن في بناء المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وتكوينَ شخصيته، وقدرته على محاكمة الأمور: عملُ العقيدة بالإحساس بفاعليتها، وما أودع الله فيها من أهلية التحويل؛ ومن هذه الفاعلية: استجابته الصادقة النابعة من العلم وتذوق حلاوة الإيمان، وانفعاله بهذه الحقيقة التي طرحتها السورة، حقيقة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝﴾.

أليس ـ وهو الذي خلق فسوّى وقدّر فهدى ـ بأقضى القاضين وأعدل العادلين؟ بلى إنه يحكم بالعدل، بل يأمر به، وبالإحسان جميعاً، وحرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرّماً؛ فهو ـ جل ثناؤه ـ لا يظلم ولا يجور؛ بل يحسن متفضلاً كريماً؛ وإذا كان الأمر كذلك: فكيف لا يبعث الناس يوم القيامة؟!

ولقد أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يضيف إلى تقرير هذه الحقيقة في حسِّ المؤمن، تعبيره عنها بقوله إذا انتهى إلى ختام السورة: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» من الشاهدين على أن الله أحكم الحاكمين وأقضى القاضين وأعدل العادلين سبحانه.

ومعاذ الله أن يكون خاتم النبيين ـ وهو يزاول العملية العظيمة في بناء الفرد وإنشاء الواقع الإسلامي على صعيد المجتمع والدولة ـ قد أراد كلمات تجري على اللسان دون انفعال حقيقي بمدلولها، وأن تكون تعبيراً تلقائياً عما هو معتقد آخذ مكانه في داخل النفس، بل أراد ـ والله أعلم ـ أن تكون هذه الكلمات: **«بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»** صورة صادقة لاستجابة نابعة من الأعماق، ووعيٌ للدليل النيِّر القاطع الذي قدَّمته السورة على أن يوم المعاد والجزاء آتٍ لا ريب فيه.

فالله أحكم الحاكمين، وإذن فلا بد من يوم القيامة، وأنا ـ يأيها المؤمن ـ مصدِّق تصديقاً جازماً بالقلب وأقتنع اقتناعاً عقلياً قائماً على إدراك الحجة التي أقامها القرآن على ذلك.

أرأيت إلى هذا الوجه المشرق من وجوه البناء للمسلم في قلبه وعقله وقدرته على الجهر بالحقيقة التي تنزَّل بها الوحي، واتضحت معالمها ـ على صورة لا تقبل الشك ـ للعقل السليم: **«بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»**.

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهداه إلى يوم اللقاء.



الكلمة القرآنية..
وتنمية التفاعل والتدبُّر

الذي هدى إليه الرسول ﷺ من وجوب الانفعال الصادق بآي الكتاب العزيز والبرهنة على ذلك ـ عند تلاوة بعض الآيات ـ بإعلان ما يدلُّ على الإيمان بمعانيها وما ترمي إليه، هو صورة من صور البيان النبوي ـ والله أعلم ـ لما حفل به القرآن نفسه من الدعوة إلى ذلك...

وفي متابعة لعطاء المعلم القرآني على هذه الساحة التي تكتنف قلب المؤمن وعقله ومشاعره نذكر قول الله جل شأنه في سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الحشر: ٢١].

روى الإمام الطبري بسنده عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: يقول: «لو أتى هذا القرآن على جبل حمَّلته إياه، لتصدَّع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع».

هكذا يعظم الله أمر القرآن، ويبين علو قدره تعليماً للمؤمنين، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتنفعل انفعالاً صادقاً بمعانيه الكريمة عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد، والحقائق التي ـ إن حملها المؤمنون بعقولهم وقلوبهم علماً وعملاً ـ فازوا بسعادة الدارين: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

فإذا كان الجبل في غلظته وقسوته، لو أعطي التمييز ـ كما يقول العلماء ـ ففهم هذا القرآن، وتدبَّر ما فيه: لخشع وتشقق من خوف الله عزَّ وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر ـ وقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وعلَّمه البيان ـ

أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتأثر التأثر الصادق القويَّ من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وخالطتم معاني كلامه ودلالاته؟ ولهذا ختمت الآية بقوله تبارك وتعالى:﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وما أحسن ما قال الحسن البصري رحمه الله في فقه لعطاء الآية الكريمة: «إذا كانت الجبال الصُّمُّ لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشية الله، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم»؟.

وإني مذكِّر بوقفة كانت لنا عند قوله تعالى في خاتمة «سورة التين»: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾[التين: ٧-٨] إنه استنكار للتكذيب بالجزاء بعد البعث، مع أن العقل السليم يقضي بأنه لا بد من البعث ومن بعده الجزاء؛ فالله جل شأنه أقضى القاضين وأعدل العادلين؛ ومن صور ذلك أنه يبعث العباد بعد الموت، ويجازي كلاً بعمله.. أجل إنه يقضي بين عباده بالحق جزاءاً بما كانوا يعملون.

ولقد هدانا المعلم القرآني من خلال تلك الوقفة إلى الوجه المضيء المشرق في بناء شخصية المسلم على العقيدة، والإحساس بفاعليتها، وقدرتها على التحويل إلى ما هو الأفضل؛ الأمر الذي يدعو إلى الانفعال الصادق بالحقيقة القرآنية، وحُسْن الاستجابة لها!

هذا بالإضافة إلى الوعي الذي يقوم على الاقتناع العقلي، وإدراك الأبعاد التي تحملها أدلة القرآن التي لا تدع زيادة لمستزيد؛ وهذا ما يدفع إلى العمل الصالح، وصياغة الحياة وفق ما تمليه الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

والآثار الطيبة لذلك ـ على صعيد الواقع في تاريخنا بدءاً من عصر التنزيل ـ توحي بأن هذا الذي حوله ندندن، هو ما يجب أن يبنيَ عليه المسلم في قلبه وعقله، وتنمية قدرته على التفاعل مع الحقيقة؛ علماً يبعث على العمل، وإيماناً ينشىء الواقع.

والعهد قريب بما رأينا فيما سبق من تربية النبي ﷺ الأمة على ذلك؛ وهو ما يشهده المؤمن في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي جاء فيه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «من قرأ منكم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾ فانتهى إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ فليقل: «وأنا على ذلك من الشاهدين». ومن قرأ: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ فليقل: «بلى وعزة ربنا» ومن قرأ «والمرسلات» فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المرسلات: ٥٠] فليقل: «آمنا بالله» أو «آمنت بالله» ومن الأهمية بمكان أن نذكر ما روى ابن عباس رضي الله عنهما ـ كما أخرج الطبري وغيره ـ من أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] قال: «سبحان ربي الأعلى».

والحق أن الحديث بدءاً من الفقرة الأولى المتعلقة بسورة: «والتين والزيتون» عنوان على ما ينبغي من سلامة البناء وتكامله؛ فالمسلم شاهد صدق على أن الله أحكم الحاكمين، يبعث الخلق، ويقضي بينهم كافة بالعدل المطلق. ولا يجور، بل ينتصف للمظلوم، ويعيد الأمور إلى نصابها؛ ولذلك يجمع الناس إلى يوم القيامة الذي هو يوم المعاد والجزاء وهذا منتهى العدل والفضل.

وشهادة المسلم هذه التي أمر الرسول ﷺ التاليَ أن ينطق بها، عنوان على تصديق جازم بالقلب، واقتناع عقلي، لا يقبل الاحتمال؛ سيراً وراء البرهان الواضح القاطع، والحجة النيِّرة التي لا ينكرها إلا من سفه نفسه وضلَّ السبيل!

والفقرة الثانية من الحديث ـ كما رأينا ـ تتعلق بسورة القيامة، وما ينبغي على المسلم من قوله عندما يبلغ آخر آية من آيها، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾؟!

وهو ما جاء من قوله ﷺ: «ومن قرأ: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ فليقل: «بلى وعزة ربنا» .

سبحان الله هناك في السورة السابقة، أقيم الدليل على قدرته سبحانه وتعالى، وأن من مقتضى عدله: أن يبعثَ الخلائق، ويجمعَ الناس ليوم المعاد والجزاء، وأراد الرسول صلوات الله وسلامه عليه من التالي للسورة أن يقول إذا بلغ الآية الأخيرة: «**بلى وأنا على ذلك من الشاهدين**» وهنا ـ كما سنرى قريباً إن شاء الله ـ تعرض سورة القيامة للأدلة التي تثبت قدرة الله تعالى على أن يحييَ الله الخلق بعد موتهم، ويهدي رسول الله ﷺ المؤمن إلى أن يقول عند تلاوة الآية التي ختمت بها السورة، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ يهديه إلى أن يقول: «بلى وعزة ربنا».

وانظر إلى العمق في كونه صلوات الله وسلامه عليه لم يطلب من التالي أن يقول: «بلى» فحسب ـ وهي حرف جواب ـ بل ينبغي له أن يقسم بعزة، الله على إيمانه بذلك، واقتناعه به عقلياً، فيقول: «بلى وعزة ربنا».

صلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير. لقد أراد ـ وهو نعم المربي ـ أن يبني شخصية المسلم بتكامل وعمق، وأن ينمّي في حسّه فاعلية العقيدة وقدرة الكلمة القرآنية على التحويل والصياغة الملائمة للفرد والجماعة، ونعمّا يصنعه سيد العالمين وإمام المربين.



البناء.. في منابع الإسلام والواقع التاريخي

شمول الرسالة

كثيراً ما تنقضي أوقات وأوقات وتسوّد صفحات وصفحات في الكلام على أعداء الإسلام من الناحية الفكرية، فقد قالوا أو فعلوا أو كتبوا وافتروا، وظاهروا الباطل على الحق في بُعد عن الموضوعية والإنصاف.

وهذا صحيح: فهم دائماً كذلك، وأكثر؛ ولا تكاد تجد، أيَّ نوع من أنواع الانفصام عندهم ـ في النظرة إلى الإسلام وقيمه وتاريخ المسلمين ومقومات وجودهم ـ وبين النواحي السياسية وغيْرها، كما يبدو أثر ذلك في أسلوب التعامل؛ فترى الحكم المسبق على كله ماله صلةٌ بالإسلام والمسلمين، وترى مظاهرة أعدائهم عليهم ـ وإن كان الحق بجانبهم، على غاية الوضوح.

وفي الواقع ألف دليل ودليل على ذلك، ويجب أن يكون المسلمون على بينة من أمرهم، يأخذون حذرهم ويتلقفون أسباب الحياة من أطرافها ويُعِدُّون القوة المستطاعة سالكين أسبابها المشروعة من جميع النواحي العلمية والاقتصادية وما إلى ذلك، وفقاً لما أمر ربنا تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. دونما غفلة عن الواقع الإقليمي والدولي، أو وقوعٍ في الارتجال وردود الفعل!

ولكن الذي لا مناص من التنبيه إليه ـ بجانب هذه الحقيقة الواقعة ـ هو أسلوب التعامل مع الآخرين، ثم موقف المسلمين أنفسهم من الإسلام نفسه؛ ولست بمعرض الإطالة والتفصيل، ولكني مشير إلى نقطة واحدة هي: شمول الرسالة الإسلامية ـ كما جاء بها الوحي، واتساعها للدنيا والآخرة جميعاً: فهذه قضية جذريةٌ كبرى لا نزال ـ مع الأسف ـ نجد بعضاً من بني جلدتنا على

موقف متخلخل منها، ويتعامل بعضهم مع الإسلام، على الصعيد الفكري ـ على الأقل ـ من خلال نظرات الآخرين إلى الدين عموماً بمعناه الكهنوتي عندهم، يوم حدّدوه ليتخلصوا من رجال الكنيسة وسلطانهم على العلم والفكر ومطاردة العلماء باسم الدين!!

وأين هذا من الإسلام في منابعه الأولى من كتاب اللّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، بل أين هذا من السيرة النبوية العطرة التي هي ترجمان عملي لمبادىء الإسلام؛ حيث ذَرْعُ الحياة بطولها وعرضها في السلم والحرب، ومن سيرة الراشدين والواقع العملي في تاريخ المسلمين خلال العديد من القرون، حيث التواؤم الكامل بين الإسلام والحياة، وما تقتضيه عمارة الأرض، والبناء الحضاري السليم الذي يبدو صورة عملية لهذا التواؤم.

رأيتني مسوقاً إلى أن أشير بهذه الكلمات وأنا أنظر في الجامع الصحيح للإمام البخاري لأراه وقد عقد كتاباً للبيوع بعد أن انتهى من «كتاب الاعتكاف» التابع لمباحث الصوم، فقال رحمه اللّه: «كتاب البيوع وقول اللّه تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وقوله: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] ألا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم وما أحسب هذا بحاجة إلى توضيح أو بيان. ولكن أين العلم، وأين الإنصاف؟.

وظاهرة الشمول في حديث رسول اللّه ﷺ لأمور الدنيا والدين وبناء الحياة بكل ميادينها: هو ما تراه في كتب السنة جميعها، لما أن السنة بيان للقرآن الكريم ـ وإن اختلفت أساليب التأليف والترتيب عند المحدثين.

وقول اللّه تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ جزء من الآية الخامسة والسبعين بعد المائتين من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

أما قوله جل وعلا: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] فهو جزء من الآية الثانية والثمانين بعد المائتين من سورة البقرة أيضاً وهي أطول آية في كتاب اللّه وتسمى آية المداينة وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

إن تنمية الوعي لحقيقة الإسلام كما هو في شمول رسالته: من اللبنات الأساسية التي يجب أن تراعى في تكوين الجيل وإعداده كيما يكون في بنيته الثقافية في منجاة من ذلك الغثاء الذي يزعم انفصاماً بين الإسلام وبين الحياة، وكيما يحسَّ وهو يبني الحياة، ويعمُر الأرض، ويُعدُّ القوة الذاتية انطلاقاً من عقيدته: أنه يحقق جزءاً أصيلاً من رسالة الإسلام.



البناء.. وشمول رسالة الإسلام
يهود والربا.. وشيء عن البنية الاقتصادية

أشرت من قريب إشارة عجلى إلى شمول رسالة الإسلام، وأنها للدين والدنيا والآخرة، ومن أجل ذلك كان بناءُ الحياة على الوجه الذي ينبغي ـ حيث حفظ الحقوق، وأنَّ الآخرة بحسبان ـ، جزءاً أصيلاً من تلك الرسالة التي تنزَّل بها الكتاب وحياً من عند الله تعالى.

ذلك لأنه لا انفصام فيها بين الدنيا والدين؛ والمهم الحرص الإيماني بأن يكون البناء بمختلف مجالاته وميادينه وفق ما يمليه منهج الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

والشمول الذي نلمح إليه ـ وهو من حكمة الحكيم الخبير سبحانه ـ واضح كل الوضوح في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حيث التكامل والتوازن في المنهج الرباني، كما هو واضح في السنَّة المطهّرة التي هي الترجمان العملي لمبادىء الإسلام، كما هو واضح كل الوضوح في الواقع العملي الذي يجده المرء في تاريخ هذه الأمة، وما كان من مهمتها الحضارية عبر الزمان والمكان؛ ومن ذلك ما كان على الصعيد العلمي في مصادر السنة المطهّرة وصنيع رواة الحديث وشراحه رحمهم الله.

وفي عود على بدء نذكر صنيع الإمام البخاري رحمه الله ـ وهو يعقد كتاباً للبيوع ـ كيف أشار في العنوان إلى آيتين كريمتين من سورة البقرة، وسورةُ البقرة سورة مدنية هي من أواخر ما نزل من القرآن على رسول الله عليه الصلاة والسلام.

والآيتان هما: الخامسة والسبعون والثانية والثمانون بعد المائتين. وإذا كانت الآية الثانية قد أقرت مبدأ التعامل بالتجارة عن تراض من المتبايعين: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولذلك ما له من الأهمية في البنية الاقتصادية وتنمية الثروة من طريق حركة التعامل الحر، وتنمية الثروة من طريق الكسب المشروع فإن الآية الأولى التي جاء فيها قوله تعالى: ..﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] ذات أهمية بالغة على صعيد حفظ الحقوق، واستدامة الود في التعامل ونفي الحقد والغل كما أنها تفصح عن قاعدة بالغة الدقة والعمق في البناء الاقتصادي في الإسلام؛ وهي تحريم الربا، فالربا حرام في دين الله، وليس في البناء الاقتصادي عندنا لبنة تسمى «الربا» أما الحلال المشروع ـ كما نصت الآية ـ: فهو البيع، والمثلية منتفية بين البيع والربا.

وأنت ترى أن هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات التي عالجت الموضوع، تتنزَّل على رسول الله ﷺ لتغيِّر واقعاً قائماً، يئن في جزيرة العرب من سلطان اليهود الاقتصادي؛ والربا عند اليهود قضية أساسية لا معدى عنها تنتمي إلى الاقتصاد والسياسة ومحاولة السيطرة جميعاً، ويبيحون لأنفسهم عند التعامل مع المسلمين ما لا يفعلونه في موطن آخر، وإن كانت الأهداف العامة لا تتغيّر ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٧٥].

هذا إلى أن الربا لم يكن مقتصراً على اليهود الذين كان من أسباب لعنهم والغضب عليهم أخذُهم الربا وقد نهوا عنه، بل كان التعامل الربوي متفشياً عند غيرهم كما أشرت آنفاً، ولذلك كان من خطبته عليه الصلاة والسلام يوم حجة الوداع كما روى أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم: «وأول رباً أضعه ربا عمي العباس».

والآية الكريمة كما تقرر أن الله أحل البيع وحرم الربا، تأخذ في تقرير ذلك، خطاً موازياً آخر يتعلق بضرورة الإحساس بالمسؤولية في الآخرة، فينشىء الوازع من داخل النفس، لما أن التعاون قائم في شريعة الإسلام ـ وهذا من خصائصها ـ بين السلطة القضائية والتنفيذية وبين الوازع الأخروي الذي يسعف في أن يُقَدِّرَ الوعد والوعيد حق قدرهما، لأن المؤمن يحاذر كل أمر ينتهي به إلى غضب الله وعقابه، ويسعى إلى مرضاته سبحانه، وفعلِ كل ما تحسن معه العاقبة يوم الدين والفوزُ بما أعدَّ الله لعباده المستمسكين بحبله المتين. والوعيد شديد شديد في آيات الربا. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥] .

هذا ناهيك عن الحرب التي يؤذن بها قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٩] وهكذا تجد الآية أو الآيات التي ترسي قواعد البناء الاقتصادي: تطالعك بجانب آيات الصلاة والصيام والزكاة والحج وما إلى ذلك ناهيك عن آيات العقيدة والأخلاق والسلوك.

وما تجده في الكتاب العزيز: تجده على شكل مفصَّل ينشىء الواقع ويعالج القضايا الطارئة في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولامرىء أن يتساءل: هل يقرأ هؤلاء الذين يحلو لهم أن يفصلوا بين الإسلام وبين الحياة، أم أنهم يتركون القراءة لغيرهم؛ لأن التقليد، وترديد ما يقوله الآخرون لا يكلف شيئاً من العناء!!

إن بناء المجتمع على هدي الإسلام ضمن الظروف المتطورة والمتغيرات وما يجدُّ على الصعيد العالميِّ كلَّ يوم: لا بد أن يصحبه دائماً بناء الإنسان في تصوراته وثقافته ومنطلقاته.

وذلك ما صنعه الإسلام، بل رأينا رسول الله ﷺ يعمل على صياغة الفرد والجماعة من خلال الممارسة العملية للبناء، مع النصوص الموجودة.

وما أكثر الأمثلة والدلائل من النصوص والواقع عبر التاريخ الطويل وفيها مقنَع لمن أراد مقنعاً؛ والإسلام حياة، ومنهج حياة؛ والآخرة ـ مع عمارة الأرض والتوجه الحضاري ـ منه دائماً بحسبان وتبارك اسم ربنا العليم الحكيم، القائل في محكم كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].



الإنصاف والموضوعية.. في طلب الحقيقة

أول خطوة على طريق الموضوعية والإنصاف في طلب الحقيقة، النظر المتدبر في نصوص الكتاب والسنة بتجردٍ ـ كما هي في منابعها الأولى ـ والدقة في الانتفاع بما يكتنف فهمها ودلالاتها من سبب نزول الآية أو ورود الحديث، واللغة والبيان.. وما إلى ذلك من أمور لا مجال لتفصيل القول فيها هنا، وهي معروفة في مظانها.

من أجل ذلك كانت النظرات الواعية المجردة في نصوص القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ، وما فهمه أئمة الهدى، علماؤنا الأثبات المؤتمنون، وهم يستنبطون الأحكام منهما بدقة علمية وأمانة... كانت هذه النظرات كفيلة ـ دائماً ـ أن تردَّ الجانح إلى الصواب، أن لو كان عنده الشجاعة الأدبية التي تحمله على الإنصاف في طلب الحقيقة حتى من نفسه، وتركِ العناد، والإقلاع عن اتباع الهوى وما يزينه الشياطين.

ولعل من الضرورة بمكان: أن نشير إلى وجوب الاستقراء في استكمالٍ للنصوص الواردة التي يراد النظر فيها، وأن لا تؤخذ مبتوراً بعضها عن بعض، لأن ذلك يسيء إلى حقيقة الفهم، ويحول دون فقه متكامل لعطاء النصوص التي هي القاعدة الأولى في البناء. يستوي في ذلك بناء الفرد أو الأسرة أو المجتمع..

ها هي ذي الآية التي سعدنا بصحبتها من قريب ـ وهي من أواخر ما نزل من سورة البقرة، والتي أرست قاعدة بالغة الأهمية من قواعد البناء الإقتصادي في شريعة الإسلام، نجد بلا عنت، فيما سبقها وما تلاها من الآيات البديلَ الصالح لما أنكرته وحرَّمته؛ فالمجتمع الذي تبنيه شريعة الإسلام مجتمع منتج يستثمر الثروات المتاحة، ويسيرها في قنواتها المنتجة وينمي الطاقات والإمكانات لتكون في خدمة الهدف الكبير وهو إعلاء كلمة الله، وهو ما يحقق إنسانية الإنسان ويسعده ـ أن لو عمل بإخلاص ـ في الدنيا والآخرة.

وهو في الوقت نفسه مجتمع متكافل متضامن تسوده ـ مع النظام ـ روح الأخوة والمودة والتعاون لأن المؤمنين إخوة مأمورون بالتعاون على البر والتقوى، ومطلوب أن يكونوا كالجسد الواحد توادا وتراحما وإيثاراً.

فمن الآيات التي سبقت: قولُ الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وتلاها بعد ذلك قول الله سبحانه: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٦-٢٧٧].

وفي حلٍّ للمشكلة القائمة يومذاك، والانتقال من نظام ربوي جاهلي تهدر فيه كرامة الإنسان!! إلى نظام تحكمه شريعة الله ويتسق مع الفطرة وإنسانية الإنسان قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[البقرة: ٢٧٩].

وقد سبقت الإشارة من قبل إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام أبطل الربا إبطالاً قاطعاً حيث جعل كل رباً في الجاهلية موضوعاً تحت قدميه وقال: «وأول رباً أضعه ربا عمي العباس». ولا تسل عن تشجيع القرض الحسن، والتذكير بأخوة الإسلام، ووجوب التعاون والتآزر والتكافل، وتوسيع الدعوة إلى الانفاق في سبيل الله، والترغيب فيه. وإنظارُ المعسر من الأمور العظيمة التي أولاها القرآن ما تستحق من الأهمية والبيان على صعيد التعامل بين المسلمين والتعاون على تنمية القدرة الاقتصادية للمجتمع؛ فقد جاء بعد الآيات السابقة قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٨٠]. يعني وإن وُجد ذو عسرة لا يستطيع الوفاء في موعده، فالواجب نظِرة إلى ميسرة حيث يكون قادراً على الوفاء في الوقت المطلوب، ويتسامى الأمر حتى تُطلب المسامحة والتصدق!!

هكذا تجد تحريم الربا وإحلال البيع، والدعوة إلى الإنفاق وإنظار المعسر، بل والمسامحة إن أمكن!

وبناء المجتمع على هذه التصورات التي يتبعها التطبيق العملي وفق قواعد يرسمها المتخصصون الخبيرون بالواقع: يحتاج إلى تحرر من المحاصرة الفكرية التي ضربت على الأذهان في العصر الأخير، فبدَّلت وغيَّرت من مجرى التفكير عند بعض مسموعي الكلمة بحُكم مناصبهم وأحدثت قناعات غريبة عن أصولنا لا تتفق مع النهج الإسلامي كما هو في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا تحقق مصلحة العباد!.

من أجل هذا: كانت النَّصفة في الحكم، والتسامي عن الانهزام الفكري، وعدم الغفلة عن عوامل التحريك لعجلة المراباة في العالم، مع القراءة الجديدة الواعية لمرتكزاتنا الأولى، وفقهنا العظيم من: الضرورات الملحة التي لها انعكاساتها على بنية الجيل الثقافية وتصوراته. وأثرُ ذلك على رحلة البناء والإنماء: أثر إيجابي مبارك إن شاء الله.



البناء.. وشمول المسؤولية

تكامل النصوص

مما يستوقف الناظر المتبصِّر في الكتاب العزيز: أن الآيات التي آذنت بالحرب من الله ورسوله على الربا وأهله، ودعت إلى التعامل الذي تفرضه الأخوة والفطرة السوية للإنسان، وهي من أواخر ما نزل، وذات ارتباط واضح بالمنهج الذي يجب أن تقوم عليه البنية الاقتصادية والبنية الاجتماعية.. مما يستوقف الناظر المتبصر: أنه تلاها في ترتيب الآيات الكريمات في المصحف: الآية التي يرى الأكثرون ـ وحق ما رأوا ـ أنها آخر ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن، وهي قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾[البقرة: ٢٨١].

بعد الرحلة المباركة مع آيات الترغيب الشديد في الإنفاق في سبيل الله، وإحلال البيع والتحريم القاطع للربا، والدعوة إلى إنظار المعسر حتى تحصل الميسرة وبيان ما لذلك من آثار في حياة الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، بل وبعد الرحلة مع سورة البقرة بكاملها وإن شئت فقل: مع القرآن بكامله... تأتي هذه الآية الكريمة لتفتح بصائر المسلمين على الضمانة الأكيدة لسلامة تطبيق الشريعة، وأخذ أحكامها مأخذ الجد والعزيمة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ تذكير باليوم الآخر، وأنَّ الرجوع إلى الله حق لا ريب فيه وهو واقع لا محالة، وعلى المؤمنين أن يقيموا بينهم وبين عذاب الله وقاية من الاستقامة وسلامة الأخذ بأحكام الدين، انطلاقاً من عقيدة التوحيد الخالص الذي تقتضيه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وبعد هذا: تضع الآية كل فرد من أفراد المسلمين ذكورهم وإناثهم أمام مسؤوليته، الأمر الذي يؤهله لأن يكون شيئاً مذكوراً ـ أن لو درى ـ في بناء مجتمعه وأمته ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أجل توفى هنالك كل نفس ما كسبت إن خيراً فخير وإن شراً فشر دون ظلم أو تجاوز. أرأيت!! الهدي القرآني يأخذ بيد المؤمن إلى حيث يسلم يوم الرجوع إلى الله وتوفية كل نفس ما كسبت، وذلك بأن يتقي ربه ـ يقيم تلك الوقاية ـ طاعة لله وبعداً عن معاصيه، والمسؤولية فردية، لا مساومة فيها ولا متكآت، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ألا إن هذه الآية الكريمة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ بدلالتها العميقة الشاملة في التذكير باليوم الآخر، ووضع كل فرد أمام مسؤوليته أياً كان موقعه، وكائناً ما كان تخصصه على ساحة الإسهام العملي في بنى المجتمع اقتصادياً كان ذلك أو اجتماعياً أو غير ذلك... وبكونها آخر آية نزلت من القرآن الكريم: توجب العمل على تنمية الإحساس بالقاعدة التي ترسيها في بناء الفرد والجماعة، كما توجب إعادة النظر في كثير مما أخذ عن غيرنا وكاد يعتبر من المسلَّمات، لأنه عنهم وكفى، دونما تدقيق، أو تمحيص، أو شيء من التساؤل عن موافقته أو مخالفته لما تشرق به معالم الكتاب العزيز، وبيانها من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ومن حق الجيل المرشح للبناء في هذه الظروف التي تكتنف الأمة الإسلامية، والمتغيرات التي تحدثها الوقائع يوماً بعد يوم، وما تفعله حصيلة السنين العجاف.. من حق هذا الجيل الذي يفترض فيه تحقيق كثير من الآمال التي يتطلّع إلى تحقيقها الصادقون في إيمانهم وانتمائهم إلى خير أمة أخرجت للناس، وفي متابعة ـ اليقظة بوعي وموضوعية: أن يزوَّد دائماً بما يمتِّن ارتباطه بالعقيدة ويجعله أصدق انتماءً وأكثر وعياً لكتاب ربه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، كيما ينظر بعينه لا بأعين الآخرين ويفكر بعقله لا بعقل الآخرين، ويحقق انتماءه إلى الأمة على صعيد الواقع والحركة في بناء الحياة، لا بالكلمات والمواقف غير المسؤولة والدعاوى فحسب.

والكل مسؤول أن يضع نصب عينيه ـ وهو يسهم في دفع القافلة إلى الأمام بعون اللّه لتحقيق ما يجب من الوجود الذاتي للأمة علماً واقتصاداً وقوة في مواجهة التحديات ـ أن يضع نصب عينيه قول اللّه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ وقوله ﷺ فيما روى البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود وغيرهم: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته..» الحديث.



آية المداينة.. والخطوط العامة للبناء حيث الأحكام وسلطان العقيدة

في أعقاب الرحلة القصيرة التي قطعناها مع الآية الخامسة والسبعين بعد المائتين من سورة البقرة، والإشارةِ إلى ما سبقها وما تلاها من الآيات كيما تحصل المخالطة لعطائها على صعيد ما يمكن أن ندعوه بالخطوط العامة للبنية الاقتصادية التي لها ما لها من أثر في البنية الاجتماعية، بل في كيان الأمة على وجه العموم...

في أعقاب هذه الرحلة العجلى، وبعد الذي رأينا من دلالة قول الله جل ثناؤه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ يبدو من الأهمية بمكان، التذكير بأن البناء الذي يقيمه الإسلام على العقيدة، ويمتد رواؤه حتى يشملَ ميادين الحياة جميعها، ويُحكمَ العلاقة بين عمارة الأرض وإقامة الدولة، وبين المسؤولية يوم المعاد... هذا البناء المبارك المنشود، لا يقيمه على الموعظة والتذكير باليوم الآخر فحسب بعيداً عن الضوابط الأرضية، ولكنه يسلك الطريقين جميعاً؛ طريق التشريع والتنظيم، مصحوباً بضوابط التعامل والمؤيدات التي تكون للسلطة القضائية ومواقع التنفيذ ـ وطريق الوازع الذي تنشئه العقيدة ـ ومن قبسات الضياء فيها الإيمان بالغيب ـ في تكامل بالغ الروعة والسمو، يدل أول ما يدل على أن الإسلام دين ودولة وأنه من لدن حكيم خبير.. وهذا من خصائص الشريعة الإسلامية ومميزاتها؛ حيث يتعاون على تحقيق الأحكام المطلوب الانصياعُ لها وتحقيقُها في المجتمع، وأن تكون شريعة الله نافذة ـ بما يضمن الخير للفرد والجماعة ـ يتعاون على ذلك المؤيدات الدنيوية من السلطة، والوازع الأخروي الذي يحمل على مراقبة الله الذي لا تخفى عليه خافية، والرجاء في مثوبته، والخوف من عقابه؛ فإذا غابت عصا

السلطة، أو استطاع المكلّف أن يُفلِت منها؛ فاللّه تعالى لا تأخذه سِنة ولا نوم، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ناهيك عما يفعله ذلك في نفس المؤمن من إشعاره بأن وجوده، الذاتي النافع على هذا الكوكب إنما يتحقق بأن تكون شريعة اللّه هي المحكّمة في الشؤون كلها، وأحكامها هي النافذة.

وآية المداينة وهي الآية الثانية والثمانون بعد المائتين من سورة البقرة، والتي أتى الإمام البخاري بجزء منها عندما عقد كتاب البيوع في الجامع الصحيح ـ كما أسلفت من قبل ـ: أنموذج واضح ـ وما أكثر هذه النماذج وأوفرها ـ لعناية القرآن بتنظيم التعامل بين الناس، وضبط هذا التعامل بما يحفظ الحقوق، ويحول دون أكل أموال الناس بالباطل ـ وكل أولئك بمنتهى الدقة والإحكام ـ وفي ذلك ما فيه من ضمان الاستقرار الاقتصادي، والاستقرار الاجتماعي، مصحوباً ذلك بالرضا والطمأنينة، وصفاء القلوب عند التعامل المالي وكل ما هو منه بسبب، بين أفراد المجتمع الذين يقع كلام اللّه وبيانه من سنة رسول اللّه ﷺ موقع التصديق الجازم من أنفسهم، ويرون أنه لا خيرة لهم فيما يقضي به اللّه ورسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والآية الكريمة ـ أعني آية المداينة ـ هي قول اللّه جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ويزداد الأمر تبيّناً لدى النظر في الآية التي تلي وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فآية المداينة وهي أطول آية في القرآن الكريم، والآية التي تلتها ـ وهما في مقدمة الآيات التي تنظم شؤون الحياة بشتى وجوهها في منهج لا يستعصي عليه إنشاء الواقع الذي تتحقق فيه مصلحة الأمة مهما تطور الزمن ـ صورة واضحة المعالم لتكامل المنهج الرباني في البناء وشمول رسالة الإسلام، بل صورة جدُّ مشرقة لما يجب أن يكون عليه مفهوم الدين الإسلامي في عقول الناشئة ذكورهم وإناثهم، كيما يكونوا في منطلقاتهم وأهدافهم على الانسجام التام مع الحقيقة التي يؤمنون بها، وكيما يكون إسهامهم في البناء ترجمة عملية لعقيدتهم التي هي منهج حياة تعبِّد الله الناس من خلالها ـ فيما تعبدهم ـ بعمارة الأرض وبناء الحياة، وإقامة الحضارة المثلى في إطار العبودية الخالصة لله عز وجل والعمل على تحقيق ما يسعد الإنسان في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.



البناء الاقتصادي.. وحفظ الحقوق في سورة البقرة

الآيتان الثانية والثمانون بعد المائتين والثالثة والثمانون بعد المائتين من سورة البقرة وهما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾... [البقرة: ٢٨٢] وقوله جل شأنه: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾... [البقرة: ٢٨٣] هاتان الآيتان الكريمتان، كان من عطائهما ـ فيما تشرقان به من العطاء كما سبق ـ دلالتهما من خلال الضوابط التي وضعت للمداينة من كتابة وإشهاد وتوثيق مصحوب باستثارة الإيمان ومراقبة الله عز وجل، وما يتعلق بذلك كله.. كان من عطائهما الدلالة على مقدار الأهمية المعطاة للمال وحفظ الحقوق تحقيقاً لمصالح الفرد والجماعة في كتاب الله عز وجل.

وهذا لا يعني أن ينشغل المسلم بالمال عن دينه وربه، فيتجاوز الحدود طلباً للاستزادة من المال، أو الطغيان في الإنفاق الذي يجعل صاحبه من إخوان الشياطين.. ولكنه يعني العدل، وحفظ الحقوق، والدقة في اختيار الطرق التي يوظف المال من خلالها ويبنى الاقتصاد من أجل تحقيقها. هذا إلى جانب تكريم الإنسان، ومواجهته بما فطر عليه من حب التملك، مع الضوابط والمعايير التي تحول دون الكسب الحرام، ودونَ الاعتداء على حقوق الآخرين، والحيلولة دون التنمية المطلوبة.

إن بناء القوة الذاتية للأمة المسلمة، منوط بعناصر أساسية، يأتي في مقدمتها ـ بعد العقيدة ـ العلم والمال، كما أن الفرد في المجتمع المسلم، يجب أن يتوافر له الأمن والطمأنينة، فيكون أميناً على ماله، كما يكون أميناً على الضرورات الأخرى كلها، من الدين والنفس والعرض والعقل وما إلى ذلك.

وإذن: فلا عجب أن يعنى القرآن بهذه القضية هذا القدر من العناية، ويضع الضوابط والمعايير التي تكشف عن الإطار العام للتعامل المالي والاقتصادي، بما يصون حقوق الفرد، وينمي الثروة، ويضمن مزيداً من الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي.

وسيراً مع المنهج القرآني في إنشاء الوازع الإيماني من داخل النفس، بجانب المؤيدات والسلطة، نجد آية المداينة قد ختمت بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ثم جاء استكمال تلك الأحكام المتعلقة بالدين وتوثيقه وحفظ الحقوق المالية عموماً بين الأخ وأخيه سفراً وحضراً، في الآية التي تلت وهي قول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٣].

أرأيت!! إلى جانب الدلالة على أن شريعة الإسلام تقدم المنهج الرباني المتكامل للحياة بجميع شؤونها، وإلى جانب التنظيم والضبط على الصورة التي لا تجارى، نجد ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ كما نجد ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ ونجد أيضاً ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ناهيك عن قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما ذكرتُ آنفاً.

وهكذا تقيم الهداية القرآنية إلى جانب ما تُلزم به من الانضباط في التعامل، إقامة حارس من داخل النفس، يحرس القيم والأحكام المطلوب العمل بها، والوقوف عند حدود الله بالتزامها، ويحول دون ارتكاب الحرام ـ بل ما هو من المشتبهات ـ وتجاوزِ المرء على إخوانه في المجتمع، مصحوباً ذلك كلُّه: باعتقاد المسلم أن المال مال الله، وموكول إليه أن يتصرف فيه وفق شريعة الله، بعد أن يكون قد جمعه من الكسب المشروع.

وبعد: فإن هاتين الآيتين من سورة البقرة ـ وأمثالهما كثير ـ أمانة في أعناق أهل الإيمان، وبخاصة المؤتمنين منهم على تحقيق البناء الذاتي للأمة المطلوب إحكامه على الوجه الذي ينبغي، وتنمية طاقاتها الفاعلة، واستقرار مجتمعاتها في مواجهة التحديات دونما تجاهل أو غفلة عن التطور العلمي، وما يتسم به الواقع إقليمياً كان أو عالمياً!!

وإذا كانت الكلمة القرآنية قد أعطت ما أعطت من العناية بالوازع الإيماني وسارت به جنباً إلى جنب مع ما أوجبت من الضوابط والمعايير عند التعامل المالي؛ فإن الأمانة ثقيلة مطلوبة الأداء في تنمية هذا الوازع من خلال التربية والتعليم والإعلام وكل وسيلة مشروعة ممكنة.

ولا يخفى أن إقامة الحراسة للأحكام وتنفيذها بهذا الوازع مصحوباً ذلك بالمؤيدات التي تحمل على الالتزام بتلك الأحكام وضوابطها، توفر ما توفر من المتاعب والنفقات، وتسهم أيما إسهام فيما ينشده المخلصون الواعون من قوة واستقرار، وبُعْدٍ عن التبعية والاضطراب.

كيف لا والوازع يجعل من الفرد المكلف نفسِه حارساً لأحكام شريعته ودينه وكلِ ما فيه مصلحة الجماعة والأمة!! وغني عن البيان أنه لا بد من الجمع بين الوسيلتين ـ وسيلة المؤيدات الظاهرة ووسيلة الوازع الداخلي ـ وهذا من خصائص شريعة الإسلام والحمد لله، وكثير من الناس لا يغني في انتظامهم إلا سلطة التنفيذ، ورضي الله عن عثمان بن عفان إذ يقول: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».



الاقتصاد.. والوازع في البناء الفرد والجماعة.. ومظهر التكامل في سورة البقرة

«١»

في لمحات عابرة ونظرة عجلى في العطاء الخيِّر الذي تشرق به زمرة مباركة من آي سورة البقرة التي تدور ـ عموماً ـ حول الإنفاق في سبيل الله ـ وإنظار المعسر، وضبط أمور المداينة بين الناس بالكتابة والإشهاد وما إليهما من كل ما يحقق التوثيق، ويحفظ الحقوق، ويباعد عن الإضرار بالآخرين، بل ويسهم في تنمية ثروة الأمة، وما يرجى للمجتمع من سلامة في البناء الاقتصادي، والكيان الاجتماعي..

في هذه اللمحات العابرة، وقفنا المعلم القرآني على أن ذلك كله في القرآن الكريم، واحد من مظاهر التكامل الدقيق في المنهج الرباني؛ فالمحور الذي يقوم عليه التعامل في هذا المنهج محور إنساني، وإنسانيته ليست بمنأى عن واقع الإنسان فيما فطره الله عليه.

وهذا المحور لا ينزل بالعلاقة بين الإنسان وأخيه في المجتمع ـ حيث تعمل العقيدة عملها ـ إلى مستوى أن تكون مقيسة بالأمور المادية النفعية بتمحّضٍ وإطلاق، ولكن يرقى بها، إلى أن تكون ـ مع الحفاظ على الحقوق ـ إلى أن تكون مقيسة بمعيار الأخوة وكرامة الإنسان، وأن المال مال الله والعباد مستخلفون فيه.

وهذا لا يتعارض ـ كما قلت ـ مع الدقة في الأخذ والعطاء وتنظيم التعامل بوضوح يتيح حفظَ الحقوق وتنمية الثروة، ونفي الحقد والغل وما هو منهما بسبب.

فالربا الذي يطبع التعامل بطابع المادية القاسية: حرام، والبيع هو الحلال ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] بل من الخير أن يأخذ القرض الحسن مكانه الملائم، وأن يُنْظِرَ الدائن أخاه إن كان معسراً ريثما تحسن حاله ويفي دينه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وفي مرحلة أخيرة تبلغ الغاية في السمو، نقع على الترغيب في المسامحة إن أمكن ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٨٠].

والمسلك الذي يطلب من المسلم: التزام بالأحكام، وتكاملاً في السلوك ــ لا يشكى معه نقص في فهم معاني العبادة، والتعامل المرضي في شريعة اللّه ــ إيماناً وعملاً صالحاً وإقامة للصلاة وإيتاءً للزكاة، الأمر الذي يُقْدِرُ الفرد على العطاء، ويشد أزر المجتمع ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وقد يقول قائل: وهل تنتظم أمور المجتمع الاقتصادية بأن يُنظِر الموسر المعسرِ المدين له أو يسامحه متصدّقاً عليه بدينه؟ ويأتي الجواب هنا في آية المداينة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧]. حيث عُنِيَتْ أشد العناية بذكر الضوابط الدقيقة التي عنيت السنة المطهرة بإعطائها مزيداً من التفصيل والبيان. وهي ضوابط تحفظ الحقوق المالية، وتضمن سلامة التعامل المتكافىء بين الناس، خصوصاً إذا لاحظنا ما صاحَبَها من الترغيب والترهيب في إنشاء الوازع الداخلي القائم على مراقبة اللّه وعدم نسيان اليوم الآخر وما فيه، الأمر الذي يتيح لأفراد المجتمع أن يكونوا متعاونين على البر والتقوى، يوظفون المال في طرقه المثمرة المنتجة بما يعود على الفرد والجماعة بالخير، ويسهم في بناء القوة الذاتية للأمة.

وإذن: فالمحور الإنساني الذي من أغراضه الحيلولة دون المجتمع ودون أن يقع فريسة الربا والمرابين، وما يترتب على ذلك من آثار لا ينكر مساوئَها وأضرارها إلا مكابر. هذا المحور الذي ألمحت إليه غير مرة، لا يعني إهمال الاقتصاد

والعشوائية في مناهجه، وإضاعة الحقوق ـ لا سمح الله ـ ولكن يعني إنسانية التعامل وسلامة الأسس التي يقوم عليها وجعل المال في خدمة الإنسان، لا جعل الإنسان مهدداً بالويل والثبور، محكوماً أبداً لتلك المادية الطاغية التي لا تقيم وزناً لإنسانية، ولا للسياج الأخلاقي المتين الذي يحفظ على المجتمع قدرته على الاستمرار في أداء رسالة الخير للجميع.

فآية المداينة ـ وهي أطول آية في كتاب الله ومن أواخر ما نزل به الوحي ـ جاءت ومعها الآية التي تليها، بهذا القدر العظيم من الضوابط التي تصون الثروة وتعين على تنميتها، وأن يكون لكل ذي حق حقُّه كاملاً غير منقوص.. يستوقف المتدبرَ المتأمل في آي الكتاب الكريم: أنها جاءت ملاصقة للآيات التي أحلت البيع وحرمت الربا، ودعت إلى الإنفاق وإنظار المعسر، وأن المسامحة عند الإمكان خير.

كل ذلك مع التذكير بالله واليوم الآخر، وأن ما عند الله خير وأبقى، مصحوباً ذلك، بأن الانتفاع بما جاءت به الكلمة الهادية من الترغيب والترهيب: من مقتضيات الإيمان!

إنه التكامل الذي ينمي ثروة الأمة، ويدفع عجلة الاقتصاد إلى الأمام، ويعمل على صيانة الحقوق، وضمان أن تعمل الطاقة المالية عملها في بناء الحياة كما أرادها الإسلام.

وفي الوقت نفسه لا يهبط بالإنسان إلى الحضيض، فيضيع كرامته، ويجعله مستعبداً للمنهج الربوي ـ كما هو الأمر في عالم اليوم ـ ولكن يجعل التحرك في التعامل على محور إنساني تلاحظ فيه مصلحة الفرد والجماعة، وأن المال مال الله والناس مستخلفون فيه، ناهيك عن اعتقاد أن الرزاق هو الله سبحانه، وأن المؤمنين إخوة.

هذا: والنظرة الواقعية إلى ما منيت به المجتمعات في ظل التعامل المادي البحت الذي تقوده المصارف وما وراءها من مؤسسات!! وتستهلكه المادة وعقابيلها يوماً بعد يوم، والذي لا يقدر كرامة الإنسان وطمأنينته قدرهما.. هذه

النظرة تكشف لنا عن لون من ألوان الإعجاز في المنهج القرآني، حين وجه منذ ما يقرب من خمسة عشر قرناً ـ والدنيا تمور بالربا وسلطان المرابين.. حين وجه أمة الإسلام هذه الوجهة التي تضمن سلامة البنية الاقتصادية، ومن ورائها سلامة البنية الاجتماعية، وتشعر الإنسان بكرامته وطمأنينته بأنه في أمن من الجوع والخوف، وتنشئ في النفوس حوافز الخير والتنافس الودي المثمر، وذلكم حجر الزاوية في الحضارة التي تسعد الناس وتجعلهم يشعرون في ظلها بوجودهم الحقيقي، وليسوا عبيداً لمناهج التعامل الربوي.



مرة أخرى مع الاقتصاد..
والوازع وآيات من الزهراوية
«٢»

مهما عادوت النظر في كتاب الله وكان ذلك بصفاء قلب ويقظة عقل وحرص على التدبر: وقفت على جديد، وازددت يقيناً على يقين بأن هذا الفرقان الحكيم كلام الله تبارك وتعالى، وأنه للأزمنة كلها، ولبني الإنسان جميعاً وأنه لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

وكثيراً ما تحسُّ ـ وأنت تنظر بشيء من التأمل والتدبر في آية أو مجموعة من الآيات الكريمات أو سورة من السور ـ: كأنها غضة طرية تتنزل في هذه الأونة على الواقع، فتكشف عن مسارب الخطأ والصواب فيه، وتدخل إلى أعماق النفس الإنسانية، وتقدم العلاج الناجع أن لو عقل الناس أمورهم، وأخذوا بالأسباب التي ينتصرون معها ـ بعد توفيق الله ـ على الهوى والتقليد الأعمى، واعتصموا بأسباب القوة التي مكَّنت لأسلافهم في الأرض، وفقدّموا للبشرية أكرم بناء حضاري عرفه الإنسان.

أقول هذا، تعقيباً على ما كنا بصدده في كلمات قريبات من الإشارة إلى التكامل على ساحة الاقتصاد، والتعامل المالي وتقوية الروابط بين أفراد المجتمع، والذي يظهر في مجموعة من آيات سورة البقرة مضموماً إليها الآية الثلاثون بعد المائة من سورة آل عمران ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ.

والواقع أن هذه المجموعة المشار إليها من سورة البقرة أطول سورة في كتاب الله، والتي هي مدنية كلُّها، ومن أواخر ما نزل من القرآن الكريم، تبدأ ـ كما يبدو والله أعلم ـ من الآية الحادية والستين بعد المائتين وهي قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ

حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١] وتنتهي بانتهاء الآية الثالثة والثمانين بعد المائتين التي تلي آية المداينة وهي قول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وهذه الآية ـ كما يلاحظ ـ أتت على بقية الأحكام المتعلقة بتوثيق الدين، والاهتمام بالشهادة وعدم كتمانها حفظا للحقوق، مما لم تأت عليه آية المداينة.

ولا بد أن ينضم إلى هذه المجموعة المباركة من الآيات، آية أخرى وهي الآية الثلاثون بعد المائة من سورة «آل عمران» وهي قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠].

والحصر في مجموعة من آيات سورة البقرة مع هذه الآية من سورة آل عمران، أردت به تحديداً يساعد على التصور ضمن إطار التكامل الذي عنيت، وإلا فارتباط آي الكتاب بعضها ببعض على محور الهداية ـ وإن تعددت الموضوعات أحياناً ـ قضية واضحة كل الوضوح، ولكم يجد المرء من الآيات التي تتصل معانيها ـ أو بعض تلك المعاني ـ بالمعنى العام الذي تنتمي إليه تلكم الآيات من سورتي البقرة وآل عمران.

وفي نقلة إلى الواقع، وما يراد من الانتقال به دائماً إلى ما هو أفضل في ضوء معالم الكتاب العزيز، وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.. في نقلة إلى هذا الواقع.. تبدو ضرورة النظرة الواعية المستقلة إلى ما جاء به القرآن الكريم، في موضوع البنية الاقتصادية واللبنات التي يتكوّن منها النظام الاقتصادي في الإسلام؛ وهي نظرة إذا اتسمت بالتجرد والدقة في الحكم، بعيداً عن الانبهار بما عند الآخرين، والافتتان بما يحمل من القوة الظاهرة، وعن آفة التقليد الأعمى... مكّنت ـ وهي تخرج بالمبادىء والأحكام إلى الميدان العملي التطبيقي ـ من تحقيق الأغراض، في تنمية الثروات والإمكانات المادية، وتوظيفها

على الشكل الذي يضمن رفاهية الفرد، وطمأنينته إلى يومه وغده ـ بإذن الله ـ وقدرته على العطاء، كما يضمن الإسهام الكبير في تحقيق القوة الذاتية المطلوبة للأمة في زمن مثقلةٍ لياليه وأيامُه بالتحديات، ولغة القوة ـ ومن شعبها القدرة الاقتصادية المتوازنة ـ علماً وعملاً وإعداداً ومعرفة بالواقع الإقليمي والعالمي، هي اللغة التي تقنع الآخرين دون غيرها.

كل أولئك دونما عدوان ـ من قريب أو بعيد ـ على كرامة الإنسان، وقيمه الرفيعة التي أراد الإسلام أن تحكم التعامل بين الناس.

وأين هذا من الشباك المنصوبة للعالم من قبل اليهود ومن يسيرون على هواهم، في نظرتهم إلى المال، والاقتصاد، وإلى الإنسان غير اليهودي ـ مهما كان شأنه على الحقيقة ـ وما يبيتون دائماً من اعتماد منهجهم في تلك النظرة، ليكون سلاحاً فاعلاً ـ ضمن أسلحة تتقزز منها نفوس المنصفين ـ في إخضاع الآخرين لسلطانهم، والقضاء على كل قيمة تؤذن بالنهوض من الكبوة، واستئناف مسيرة خيِّرة لبني الإنسان.



الاقتصاد... والتكامل في البناء وصلاح آخر الأمة.. بما صلح به أولها

قد يكون من أغراض التذكير بما جاء في الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام في كثير من الأحيان، إعادة الثقة إلى بعض النفوس، وردها إلى ساحة اليقين بأن ما جاء عن الله ورسوله هو الخير، وأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلَح به أولها.

وإعادة الثقة واليقين على الصورة التي نلمح إليها هو من العناصر الضرورية التي يجب توافرها للمسلمين وهم يتحركون للبناء، ويفتحون أبصارهم وبصائرهم على واقع التخلف الذي يعانون منه في كثير من بقاع العالم الإسلامي، وهل هو تخلف حسب معايير الآخرين، أم أنه تخلف يحكي جفوة المسلمين للإسلام وتقاعسهم من اللحاق بركب الإيمان الصادق، الذي أخذ هذا الدين بقوة، وتقدم إلى ساحات البناء بالعقيدة الصحيحة، والعلم النافع، والعمل الصالح، والجهاد المستمر؟!

من أجل ذلك أرى لزاماً وقد كان مدار الحديث في حلقات قريبات: صورة من صور التكامل في المنهج الرباني على ساحة الاقتصاد والتعامل المالي بين الناس ـ أن نعود إلى تلكم الآيات التي أشرنا إليها في سورتي البقرة وآل عمران، لنقف ولو بنظرة عجلى على لون آخر من المرتكزات فيها، وهي مرتكزات تشكل ـ كما يبدو والله أعلم ـ إطار التكامل الذي نلمح إليه في هذا الموطن من السورتين في القرآن الكريم، وإلا فمواطن ذلك كثيرة وفيرة تشرق بالإعجاز، في كتاب كله هداية ونور وشفاء.

فبدءاً من الآية الحادية والستين بعد المائتين وحتى الآية الرابعة والسبعين ـ بعد المائتين والغاية هنا داخلة في المغَيَّىء ـ يجد الناظر في الآيات دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله بالأسلوب الحكيم الذي تعدّدت ألوانه وتنوَّعت صوره،

وكان القلب والعقل والواقع منه بحسبان. وآخر ما جاء من هذه الآيات قول اللّه تعالى في الآية الرابعة والسبعين بعد المائتين قول اللّه تعالى من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وبعد هذا المحضن العظيم الذي تتهيأ النفوس من خلاله لتجاوز العقبات، والتسامي ضمن الواقع، وما يكون من ظروف: تطالعنا آيتان في تحريم الربا وما يجب من الانتهاء عنه وتنزيه المجتمع المسلم عن أوضاره الاقتصادية والاجتماعية وتوعد من لا يفعل: هما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥] أما الآية الثانية ـ وهي واضحة في أمر الترابط بين تحريم الربا وبين إنظار المعسر أو الحط عنه والدعوة إلى الإنفاق ـ: فهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ أما الآية الثانية ـ وهي واضحة في أمر الترابط بين تحريم الربا وبين إنظار المعسر أو الحط عنه والدعوة إلى الإنفاق ـ: فهي قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢٧٦]؛ فمقياس الربح والخسارة غيره عند المرابين؛ فاللّه جل شأنه يمحَق الربا ويربي الصدقات ويزيدها، وتختم الآية بهذا الوعيد: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

وموعدنا كلمات قادمات نتابع فيها النظر إلى هذه المرتكزات والإشارة إلى المحور الذي تتحرك عليه بإطار التكامل الذي يضمن النمو الاقتصادي، وسمو العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وسبحان من أنزل كتابه نوراً وهدىً للمتقين.



البناء.. ومزيد من إيضاح التكامل وإعادة الثقة

ما أشرت إليه من قريب من أن إعادة الثقة إلى النفوس عند بعض المسلمين الذين زلزلتهم بعض العوامل من هنا وهناك، وزيادةِ اليقين بأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولُها: من القضايا الملحَّة التي يجب أن تولى ما تستحق من عناية، حيث تتطلع الأمة إلى البناء، ويسعى الرواد من أبنائها إلى أن يوظِّف ما أعطاها الله من ثروات وإمكانات ـ بجانب عظيم رسالتها اليقظة على طريق اليقظة والتمرد على واقع التخلف الذي أناخ على صدرها بكلكله ردْحاً من الزمان، وأعقب ما أعقب من آثار مدمرة والعياذُ بالله.

وعلى ساحة البناء الاقتصادي والتعامل المالي بين أفراد المجتمع، عمدنا فيما سبق من القول إلى عيِّنة يبدو من خلالها التكامل في المنهج الرباني.. هذه العيِّنة كانت مجموعة كريمةً من آيات سورة البقرة، مضموماً إليها الآية الثلاثون بعد المائة من سورة آل عمران، وقد أشرت إلى معاني تلك الأيات إشارة سريعة من قبل، وحاولت التوقف عند بعض المرتكزات فيها، بدءاً من الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، ومروراً بالآيتين اللتين تحملان تحريم الربا والتوعد عليه، وما يجب أن يكونُ عليه العمل، وهما الأيتان الخامسة والسبعون والسادسة والسبعون بعد المائتين، حيث ألقينا عصا التَّسْيار عندهما.

وفي متابعة للرحلة المباركة نسعد باصطحاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧] وفي ذلك إشارة لما يجب أن يكون عليه المؤمن ويتميز به، بوصفه إنساناً مسؤولاً عن مهمة البناء وفق منهج الله وسننه في الكون والإنسان والحياة.

وبعد هذا: نقع على ما يجب أن يكون من التطبيق العملي لتحريم الربا ـ وقد كان التعامل به سائداً في الجاهلية ـ فنقرأ قول الله آمراً بترك ما بقي من الربا وأن هذا من مقتضيات الإيمان، وإلا فالوعيد الشديد لمن لا يمتثل أمر الله في ذلك: ولا ينتهي عما نهى الله عنه فيه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

ونقرأ في التوجيه إلى تنقية المجتمع في بنائه الاقتصاديِّ مما كان عليه أهل الجاهلية من أكل الربا أضعافاً مضاعفةً: قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠] أي: اتقوا الله في عدم أكل الربا، وذلك طريق الفلاح، لأن «لعل» وأمثالها في كتاب الله للتحقق لا للترجي؛ فكأنه قال: إن انتهيتم عما أنهاكم عنه أفلحتم في الدنيا والآخرة.

وحاشا أن يكون في الآية الكريمة دلالةٌ على أن الربا إذا لم يكن أضعافاً مضاعفة، فأكله مباح، ذلك بأن هذه الآية تصور الواقع الجاهلي وتستثير العقول لاستنكاره، ولا تقيُّد التحريم بقيد الأضعاف المضاعفة، إذ إن أكل الربا أضعافاً مضاعفةً ـ كما هي الحال في ذلك الواقع وما أكثر الأدلة عليه ـ يعني الكثير من تزكية عناصر الهدم ومن إهدار القيم الإنسانية البعيدة عن الاستغلال البشع وتحكيم المعايير المنحرفة في المجتمع.

ثم إن الآية السالفة من سورة البقرة صريحة في وجوب عدم الزيادة على رأس المال، ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وما رأينا في الآيات الأخر تبدو الكلمة فيه على إطلاقها لم تحدَّد بكثير أو قليل.

ومن المرتكزات التي تدل على التكامل الذي حوله ندندن بهذه الوقفات: أن الآية في سورة آل عمران، تلاها التهديد والتوعدُ بالعذاب للمخالفين، والحضُّ على طاعة الله والرسول؛ لأن حقيقة الطاعة إنما تظهر بالالتزام على صعيد الواقع العملي ائتماراً بما يؤمر به المكلَّف وانتهاءً عما يُنهى عنه.

ثم جاء الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والجنة التي أعدت للمتقين، وذكَرُ أنَّ من أول صفات هؤلاء المتقين أنهم ينفقون في السراء والضراء ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

ومـا من ريب في أن النظرة المتبصرة إلى هذه الآيات مع آية الربا توحي بالتكامل المشار إليه فيما ينبغي أن يكون عليه المسلم من هذه الناحية، والسمة التي يجب أن تميِّز المجتمع المسلم على ساحة الاقتصاد والتعامل المالي.. تلك السمة التي لا تُغفل ـ مع الحرص على البناء الاقتصادي ـ إنسانية الإنسان وأخوة الإيمان.



مرة أخرى: مع الاقتصاد والبناء ومرتكزات التكامل

لقد انتهى بنا المطاف في كلمات قريبات، ونحن نتابع ـ بالإشارة العابرة ـ مرتكزات التكامل في المنهج الرباني، على ساحة الاقتصاد والتعامل المالي بين أبناء المجتمع المسلم، إلى قول الله جل ثناؤه في الآية الثمانين بعد المائتين من سورة البقرة: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وفي هذا ما يدل واضح الدلالة على أن الأمر لم يقتصر في الكلمة القرآنية ـ الداعية إلى تحقيق المجتمع المسلم ـ على تحريم الربا ـ كما رأينا في آيات سابقات ـ بل ترتفع الكلمة الهادية بالمكلفين إلى حدِّ الإرشاد إلى إنظار المدين المعسر الذي لا يجد وفاءً، ريثما يصبح قادراً على الوفاء؛ أي: وإن وَجد مدين معسر تحولُ قلة ذات اليد بينه وبين وفاء الدين على وقت الوفاء، فالمطلوب الصبر عليه، وتأخير المطالبة بالوفاء إلى حين الجِدة التي تمكنه من أداء الحقوق: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

وهذا النهج ـ كما هو واضح ـ مختلف تمام الاختلاف عما كان عليه اليهود يومذاك، وعما كان عليه المجتمع الجاهلي، حيث يقول الدائن لمدينه إذا حلَّ أجل الوفاء: «إما أن تقضي وإما أن تربي» أي تزيد في المال لقاء التأخر الزمني عن قضاء الدين. وقد يصل الأمر إلى حد الاسترقاق عند العجز عن الوفاء!!

وأين هذا النوع من التعامل بين الناس الذي يحمل ما يحمل من التخلُّف عن مراعاة الجانب الإنساني ـ على الأقل ـ دون غطرسة ولا استغلال.. أين هذا النوع من التعامل ممّا أضاءت به تلك المرحلة التي رسم نهجها الإسلام، والتي تبدو متقدمة أيَّ تقدم عما كان عليه أهل الجاهلية واليهود؟!

وهل تستوي صياغة المجتمع على عدم الربا في المداينة، بل على إنظار المعسر ـ والمراد المعسر حقاً ـ حتى يتمكن من القضاء... وإحكام القبضة من طريق سيف المراباة الذي كان مصلتاً على الأعناق؟؟

ومع هذا: فإن الآية الكريمة، لم تقف عند هذا الحد، بل رأيناها تختم بمرحلة أكثر تقدماً على طريق العلاقات الإنسانية بين الإخوة في المجتمع، في تدرج حكيم دالٍ على حكمة الله ورحمته بخلقه؛ ذلكم قول الله جل شأنه: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

هذا إِخبار من الله بهذه الحقيقة؛ أي وإن تتركوا رأس المال بالكلية، وتضعوه عن المدين المعسر الذي ساءت حاله فعجز عن القضاء: خير لكم إن كنتم تعلمون ما يعود عليكم بذلك من الخير في الدنيا والآخرة. إنه خير يحمل وعداً ربانياً لا يُشك في حصوله على الوجه المرضيِّ في العاجلة والآجلة.

وهذا الذي نراه في كتاب الله قد جاء بيانه في سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، تقريراً وتوكيداً على صعيد التطبيق العملي.

وأحسب أن من الطبيعي أن يكون الأمر كذلك، وصاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه يصوغ بنفسه الفرد المسلم والمجتمع المسلم على هدي تلك الرسالة، فيقود عملية البناء بعمقها، وتعدُّد ميادينها، ويعفى بضيائها وإنسانيتها على آثار الجاهلية في الاجتماع والاقتصاد، والقيم التي ينبغي أن تحكم التعامل بين الناس، وهم يبنون الحياة، ويحققون عمارة الأرض، ذاكرين أن مردَّ الناس في خاتمة المطاف إلى الله.

وقد رأينا من قبل أنه كان من خطبه ﷺ في حجة الوداع ـ وهذا التوقيت الزمني له ما له من الدلالة ـ: قوله عليه الصلاة والسلام: **«ألا إن كل رباً كان في الجاهلية موضوع ـ أو موضوع عنكم ـ كله، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وأول رباً أضعه ربا عمي العباس بن عبدالمطلب موضوع كله»**.

وهنا نبصر تقرير ما جاء في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

ومع هذا التقرير والتأكيد، نرى تطبيق الحكم الذي دلَّ عليه الكتاب الكريم على صعيد الواقع العملي، وبدأ رسول الله ﷺ بوضع ربا عمه العباس عمن كان يلزمهم، فكل ما كان من ربا له رضي الله عنه قبل نزول الآية بهذا الحكم، فهو موضوع بتقرير النبي ﷺ ذلك، وله هو رأس المال لا يظلم ولا يُظلَم، ولقد كان منه رضي الله عنه، تمام الرضى بقضاء الله ورسوله.

أما عن المرحلة الثانية: مرحلةِ الدعوة إلى الصبر على المعسر، وإنظاره حتى يصبح قادراً على الوفاء، بل والترغيب بترك رأس المال نفسه كليةً، ووضعه عن المدين الذي أصابته جائحة العجز عن القضاء ـ وهو المرحلة الثالثة الأكثر عمقاً في التعاون ومراعاة حال المدين؛ فذلك مما عني به رسول الله ﷺ ـ بياناً للكتاب ـ شديد العناية ترغيباً وترهيباً؛ ومما جاء في ذلك: ما روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أراد أن تستجاب دعوته، وتكشف كربته، فليفرج عن معسر»**. وفي «المستدرك» للحاكم عن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أعان مجاهداً في سبيل الله، أو غازياً، أو غارماً في عسرته، أو مكاتباً في رقبته، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»** والأصناف التي وردت في رواية الحاكم ـ ومنها المجاهد في سبيل الله والغازي والغارم في عسرته ـ تشير إلى مدى اهتمامه ـ وهو يذكي روح الحياة في الأمة ـ بهذه الجزئية ضمن القضية الكبرى.

فصلَّى الله وسلم وبارك عليه كلَّما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون. وجزاه عن أمة الإسلام خير الجزاء.



القرآن.. والبيان النبوي
ملامح المجتمع القدوة.. ومرتكزات الاقتصاد

ملامح المجتمع القدوة الذي تولى رسول الله ﷺ ومن معه من البررة الصادقين بناءه: تتبدّى فيما وجهت إليه آيات الكتاب الكريم، وما بينه رسول الله ﷺ بقوله، وفعله، وإقراره، وهو يزاول عملية البناء بكل فروعها وشعبها وميادينها، ويسهر على مراحل تلك العملية العظيمة، واحدة بعد الأخرى؛ كيما تكون على المنهج الرباني، ويفوز المسلمون من خلالها وتحقق ما كانت من أجله، من التمكين في الدنيا، على الوجه الذي يصون إنسانية الإنسان، ويحمي الحق وأهله في كل زمان ومكان، ويضمن الفوز بحسن العاقبة يوم الدين.

أسوق هذه الكلمات بين يدي وقفة لا بد منها، مضافة إلى ما أشرت إليه في كلمات قريبات، ونحن نسعد باصطحاب آيات كريمات، كان منها قول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾[البقرة: ٢٧٨-٢٨٠] وقوله سبحانه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢٧٦].

فقد رأينا أنه كان من بيان رسول الله ﷺ للآيتين الأولى والثانية في مجال التطبيق العملي: إخراج الحكم إلى حيز التنفيذ على صعيد الواقع بادئاً بعمه العباس رضي الله عنه ـ وهو من أقرب الناس إليه وأصدقهم في خدمة الدعوة ـ فربا الجاهلية كله موضوع، وأول ربا وضعه عليه الصلاة والسلام: ربا عمه

العباس؛ فليس للعباس بعد هذا، إلا رأس المال الذي هو الدين، وكل ما زاد على ذلك ملغىً وموضوع، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وغير خاف أن هذه الآية جاءت في أعقاب الأمر بترك ما بقي من الربا، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨] ذلك ما حملت الكلمة القرآنية من الوعيد المرعب حقاً وهو الحرب من الله ورسوله لمن لا يفعل ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وباب التوبة مفتوح لمن يصدق في ولوجه بامتثال الأمر واجتناب النهي ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾.

وما صنعه رسول الله ﷺ ـ وهو المؤتمن على سلطة التنفيذ مع التبليغ ـ كان وضعاً للأمور في نصابها، من حيث إن تحريم الربا داخل في إطار التشريع والتنفيذ.

وكان من وضع الأمور في نصابها أيضاً: أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ اكتفى في شأن إنظار المعسر أو حتى وضع رأس المال عنه، بالترغيب والترهيب لأن هذا ليس من الأمور التي يحمل عليها المرء حملاً، بل هي من مكارم الأخلاق التي تترك لرغبة الإنسان في الخير، وقدرته على قهر المعوقات، وتجاوز الصوارف من داخل النفس ومن خارجها.. ثم لمقدار تطلعه إلى مثوبة الله عز وجل، والاحتكام إلى الضوابط التي تحدِّد ـ على ساحة التصرف ـ ما هو من حظ الدنيا، وما هو من حظ الآخرة.

ولذا رأينا ـ بجانب النص القرآني ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٨٠]عدداً من نصوص الهدي النبوي ترغب المؤمنين بما رغبت به الآية الكريمة، وتكشف عن بعض من أبعاد الخير الذي نطقت به، وتحذر من الغفلة عنه.

وعلى الصعيد العملي، وقوفاً عند الذي رغب به رسول الله ﷺ أو رهّب من الغفلة عنه في التعامل الاقتصادي والمالي: يطالعنا ما روى الإمام أحمد بسنده أن الصحابي أبا قتادة رضي الله عنه، كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه، فيختبيء منه؛ فجاء ذات يوم، فخرج له صبي، فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه فقال: يا فلان اخرج، فقد أخبرت أنك ههنا، فخرج إليه فقال: ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر وليس عندي شيء، فقال: آللّه إنك معسر؟ قال: نعم. فبكى أبو قتادة ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من نفّس عن غريمه أو محا عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة»**.

هذا: ويفترض بالمسلم دائناً كان أو مديناً، أن يكون صادق الحرص على أداء الحقوق ـ كما رأينا في غريم أبي قتادة ـ لأن أكل أموال الناس بالباطل حرام، مراقباً لله الذي يعلم المفسد من المصلح ولا تخفى عليه خافية سبحانه.

(رواه مسلم) التكملة... اللّه: يعني: أباللّه. والخَزِيرَةُ، بفتح الخاء وكسر الزاي وآخره راء: طعام يصنع من اللحم والدقيق ونحوه.

ورواه مسلم بلفظ: أن أبا قتادة طلب غريماً له. فتوارى عنه. ثم وجده فقال: إني مُعسرٌ. فقال: آللّه؟ قال: اللّه. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سَرَّه أن يُنجيَه اللّه من كَرْب يوم القيامة فلينفِّس عن معسرٍ أو يضعْ عنه»**.



عودة الثقة..
البناء الأنموذج في آية المداينة

وقفت بنا رحلة القول في تلكم الثوابت التي تدل عليها النصوص على ساحة التكامل بين الحركة الاقتصادية في المجتمع المسلم وبين إنسانية الإنسان وآصرة الأخوة بين المسلمين.. وقفت بنا هذه الرحلة العجلى عند آية المداينة في سورة البقرة، مضموماً إليها آية من سورة آل عمران بعد أن أسعدتنا صحبة مجموعة من الآيات تتعلق بالإنفاق في سبيل الله، وحل البيع وحرمة الربا، والوعيد الشديد لآكله، ووجوب وضع ما كان منه فيما سلف، قبل بزوغ فجر الإسلام وما قررت شريعته من أحكام.. ولم تكن تلك الآيات بمنأىً عن الترغيب في إنظار المعسر، ووضع الدين عنه.. إلى غير ذلك مما يتعلق بهذه القضايا تجليةً وتوكيداً.

وأراني ـ والأمر كذلك ـ مسوقاً مرة أخرى إلى القول بأنه ما يزال في المسلمين من هم بحاجة إلى تذكيرهم بتلك الثوابت التي لا خيرَة للمؤمن في قبولها أو ردّها، ووضع أيديهم على دلالات القرآن والسنة التي أعلنت تلك الثوابت ـ وهي من شرعة الحكيم الخبير سبحانه ـ وتبصيرهم بها من أجل أن تعود إليهم الثقة ـ على الأقل ـ بما يدعو إليه المصلحون من استئناف مسيرة البناء الاقتصادي والبناء الاجتماعي وغيرهما، على هدي الكتاب الكريم والسنة المطهَّرة، وأن يكونوا على يقين من أحقية أنه ـ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صَلَح به أولها ـ خصوصاً وأن الاتجاه إلى المنابع الأولى ـ التي كانت بها أمتنا خير أمة أخرجت للناس ـ لا يحول مطلقاً دون الإفادة بذاتية ووعي كاملين، من كل وسيلة أو تنظيم وصل إليه العلم، مما لا يتنافى مع حقائق الإسلام وشريعة الله في شأن البُنى الاقتصادية والاجتماعية

والثقافية وغيرها، منزهةً عن تلك المآخذ والعيوب التي يشكو منها غيرنا في ظل بلاء مادي متفاقم وتسخير لطاقات الإنسان ـ في كثير من المجتمعات ـ لأهواء من بيدهم تحريك عجلة الأخذ والرد في دنيا الاقتصاد في العالم، ولا تسل عن الصور المفجعة المفزعة لذلك!!

وكنت أشرت من قبل إلى أن آية المداينة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾... [البقرة: ٢٨٢] بما فيها من تنظيم دقيق شامل وضبط للتعامل بين الدائن والمدين على الصورة التي تحفظ الحقوق، وتباعد عن التجاوز.. أن هذه الآية الكريمة، تعطي مع تلكم المجموعة من الآيات التي سعدنا ـ من قريب ـ باصطحابها والاستنارة بعطائها، على ساحة البناء الاقتصادي والتعامل.. تعطي صورة التكامل في المنهج الرباني؛ فالحقوق مصونة، والتعامل منضبط؛ ولكن المحور الذي يجب أن تتحرك معه العلاقات المالية بين أبناء المجتمع: محور إنساني تراه ـ مع الحرص على التفاعل الاقتصادي والنماء في المجتمع ـ يقيم لمكارم الأخلاق، من ود، وتعاون على الخير وتسامح، ومراعاة لمقتضيات الأخوة، وزناً كبيراً، يشعر الإنسان بحقيقة إنسانيته، وكرامته في المجتمع، وأنه ليس طاقة معطلة بسبب ما يحكمه من ظروف مالية قاهرة.

علماً بأن السلطة موجودة بجانب الوازع الإيماني، الأمر الذي يضمن ـ بتوفيق اللّه ـ مزيداً من الاستقامة والانضباط، ويحول ـ في الأعم الأغلب ـ دون التلبيس والعبث بالقيم!.

وأنت واجد أن آية المداينة ـ وهي أطول آية في كتاب اللّه ـ افتتحت بالخطاب الذي يذكِّر أهل الإيمان بالقاعدة التي تبتنى عليها الأحكام ـ وهي الإيمان ـ فقال جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وبعد الأمر بالكتابة إذا كان الدين لأجل مسمىً، وإحاطة هذه الكتابة بما يصونها، ويجعلها تؤدي الغرض، يأتي دور التوجيه في شأن الإشهاد على الدين، وأنه ليس للشهداء أن يأبوا الشهادة إذا ما دعوا إليها، تلا ذلك بيان أن التهاون

في ضبط الحقوق ـ قلَّت أو كثرت ـ يتجافى عن المنهج الرباني الحكيم: ﴿وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ وانظر إلى تعليل هذا الحرص على الضبط ما أروعه!! ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

وقد يقول قائل: هذا كله في التداين إلى أجل مسمى، فما الحكم في التجارة الحاضرة؟ وتجيب الآية بقول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

ثم يؤمر المؤمنون بالإشهاد إذا تبايعوا، وينهون ـ بجزم ـ عن المضارَّة ـ عموماً ـ فلا يضارَّ كاتب ولا شهيد.

وبعد هذه الضوابط الدقيقة الشاملة التي لا غنى عن محورها مهما تبدّلت الظروف وتطورت، والتي تصون الحق، وتحفظ المال من الضياع، وتبعث في نفوس المتبايعين والمتداينين، الطمأنينة، تختم الآية باستثارة القلب إلى تقوى الله ومراقبته، وبيان أن التقوى تنير السبيل، وتباعد من الزلل؛ فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وهكذا يتعاون التنظيم الواقعي تنفذه السلطة، والوازع الإيماني من داخل النفس؛ وما أعظم ما يترتب على ذلك من آثار هي في صالح الفرد والجماعة بيقين.

ثم جاءت الآية التي تلت آية المداينة، توجه إلى ما يجب عند السفر وعدم وجود الكاتب. وإذا حصل الائتمان، فلا بأس أن لا يكتبوا ولا يُشهدوا. وكتمان الشهادة لا يجوز، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه. وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ألا إن هذه الدقة في تنظيم التعامل ومخاطبة النفس الإنسانية، والشمول ـ بجانب ذلك ـ في ضبط هذه الحالات من التعامل بين الناس: كما أنها تدل على أن الإسلام هو شِرْعَةٌ للحياة بميادينها جميعاً، تدل في الوقت نفسه على تكريم

الإنسان وحرمة المال وأهمية تنميته في ظل الضوابط النيِّرة، وما ينشده الإسلام للمجتمع من استقرار اقتصادي وأمن شامل.. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



المحتويات

